الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ، سهيل ادريس ، بهيج عثمان

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

مشكلة الشخصية العربية

بقلم الدكتور جورج طعمه

ثمة مظهران اساسيان يدلان على حقيقة الشخصية البشرية : العلاقات الانسانية والاعمال الايجابية . الاولى تفصح عن موقف الانسان الخلقي، ومفهومه للفرد والمجتمع وعالم القيم الذي يستمد وحيه منه — أهي ثابتة خالدة ذات قيمة ذاتية ، ام انها وليدة الساعة والصدف نبدعها عندما تقتضي الحاجة ؛ والثانية — اي الاعمال — تعكس اتجاه الشخصية في الحياة وموقفها ، وجفافها او حيويتها ، وجمودها او انطلاقها، وهو ما يبرر حكمنا على شخص من الاشخاص حين نقول مثلاً : هذا انسان منتج وذاك شخص عقيم .

ولكن لنخرج من هذا التجريد والتعميم ، ولندخل مجتمعنا العربي الناشيء ، لنستدل من خلال مظاهره المتعددة ومختلف اقسامه على حقيقة الشخصية العربية وميزاتها الاساسية . ولندخل كل خلية من خلايا هذا المجتمع : البيت والعائلة حيث تولد شخصية الفرد وتترعرع مكتسبة اتجاهها الاساسي في الحياة . المدرسة والجامعة حيث يفترض ان تتسع آفاق الحياة والفكر وتتفتح الشخصية في حرية مطلقة وفرح ومسؤولية. مركز العمل مهما كان نوعه حيث ينطلق الفرد الى العمل المنتج من خلال تعاون مفرح سعيد، او يقعد به اليأس والتشاؤم والضجر الخلقي لانعدام التعاون . الاندية ومراكز اللهو البريء على اختلاف انواعها حيث يصرف المرء ساعات فراغه ويستجم ويجدد نشاطه مما يقوي كفاحه في الحياة وايمانه بها ، تغذية صداقات بريئة مجردة تنشد الحق وتسعى اليه .

لو استعرضنا جميع هذه المراكز الحية ، التي يتألف منها ومن سواها المجتمع العربي حيث تنقضي معظم سني حياتنا ، لما امكننا ان نجد علاقات انسانية مفرحة تغذي حياة الفرد وتوحي له بالعمل المبدع الخلاق. فالشخصية العربية تثير جميع مشاكل المجتمع العربي وتعكس هذه المشاكل حتى ليصعب القول أيها السبب وأيها النتيجة .

نحن نعيش في مجتمع متحول غير مستقر ميزته الاساسية انه متجاذب بين اطراف متناقضة،لم يعرف بعد حداً وسطاً بينها. فهو مجتمع متأرجح بين القديم والجديد وبين الهرم والطفولة . مجتمع يخرج من نظام قديم عاش مئات السنين وهو آخذ بالانهيار،الى مجتمع جديد لم تتوفر فيه عناصر

التكامل والنضوج بعد . وهو مجتمع عرف عصوراً طويلة من الحكم والاستبداد – والطغيان الاجنبي الذي كاد يعفي على جوهر الامة ، ولكنه كمجتمع متحرر مستقل لم يتجاوز عمره السنين القليلة . وهو مجتمع تصفعك فيه هذه الاضداد والمتناقضات : من غنى مفرط ترتع فيه الاقلية الى فقر مدقع تتخبط فيه الاكثرية . ولكنه ايضاً مجتمع غني بالموارد الطبيعية يملكها ويستثمرها ويستفيد من خيراتها إما الاقلية التي اشرت اليها او الشركات الاجنبية المستثمرة . وهو مجتمع يسعى الى الوحدة على اساس القومية وتقعد به بل تشله النزعات والعصبيات المتعددة وفي طليعتها الطائفية والقبلية والاقطاعية والاقليمية . وهو مجتمع يسعى الى الاستقرار ولكنه لا يشعر بالطمأنينة بسبب الخطر الاستعماري السياسي الذي اصبحت إسرائيل رمزه القوي وسيفه المسلط .

ان مجتمعنا هذا شأنه، ولا يمكن ان يكون بيئة صالحة تنمو فيها الشخصية نمواً صاعداً سليما. بل هو على العكس يثير مشاكل كثيرة معقدة في الشخصية العربية اكتفي بالاشارة الى اثنتين منها :

اولاً : المشكلة الاجتماعية ؛ وتتلخص في شعور الفرد العربي بانه لا ينتمي الى مجتمع سليم ، بل انه لا ينتمي الى مجتمع على الاطلاق . وهو شعور ممض عنيف يورث الشخصية نزعات مرضية وانحرافاً غريباً ، إذ ان حياة المرء الطبيعية ونمو الشخصية وتكاملها إنما يتمان بل يجب ان يتما داخل البيئة البشرية . ومن هنا كانت الفردية القوية التي ينتهي اليها العربي ويعيش ضمنها بمعزل عن الآخرين وكأنه سجينها . وهي تتضح في عدم الثقة بالآخرين وسوء الظن والحيطة، والشك الدائم في ان الشخص الآخر ينوي شراً أو يرمي اليه ، أو انه بيّت امراً لا تعرف حقيقته ولكنه يظن بانه كذا وكذا. ومن هنا ايضاً النقد الهدام المستمر ، والشهوة القوية في ان نجر كل شيء الى الاسفل ونهوي به الى الحضيض ، والامتعاض من نجاح يدركه زميل أو صديق بفضل سعيه وجهده ، ويصل بنا ذلك احياناً الى درجة الحقد وكراهية أية مأثرة إيجابية تتم على ايدي غيرنا في حين ان الشخصية القوية السليمة لا تخاف من اكتشاف القوة والغنى في الآخرين بل تنعم به . وينتهي ذلك كله الى عزلة روحية قوية يعيش فيها الفرد العربي ، وتمركز في حدود الذات الضيقة حتى ليظن انه مركز العالم : كل شيء ينتهي اليه وكل امر يصدر عنه أو له علاقة به . وليس هذا مجرد وهم بل انه حقيقة واقعة .

وربما كانت احدّ حالة مرضية تتميز بها الشخصية العربية وتخلق لها ازمة عنيفة اليوم هي عدم المقدرة على الصداقة. يقول دوستويفسكي على لسان احد ابطاله في روايته الخالدة «الاخوان كرامازوف» : «أتدري ما هو الجحيم ؟ انه عدم مقدرة المرء على ان يحب أو ان يجد اثراً للمحبة في الآخرين . »

اكثر الناس فينا بل كلنا نردد الشكوى تباعاً من ازمة الخلق العربي . وأعتقد انه لو رجع أي شخص منا الى ذكرياته البعيدة لوجد ان هذه الشكوى رافقت نشأته . وهذه الشكوى لما تنقطع بعد. لاننا ما زلنا نعاني الكثير من آثارنا هذه الازمة المستفحله وندفع لها ثمناً باهظاً في حياتنا العامة . وهي بين الطبقات المثقفة أو التي تدعي الثقافة أو بين ابناء الجيل العربي الجديد لا تقل حدة عنها في أية طبقة اجتماعية اخرى إن لم تكن في تزايد مستمر . وفي ابناء هذا الجيل صراع بين العقل والغرائز الاول يحاول ان يوجد نظاماً وانسجاماً بين الفرد والمجتمع . حين تقضي الغرائز على ذلك الانسجام بما تثيره من انانية مرضية ورغبة في الشهرة والسيطرة والنفع المادي على انقاض الآخرين دون ان نعرف حداً لأهوائنا واطماعنا . ولا يمكن ان تتركز الشخصية إلا بعد ان يحل هذا النزاع الكياني العميق على اساس من النقد الجريء لا يعرف مواربة أو خوفاً . يقول الزعيم المغربي علال الفاسي في كتابه «النقد الذاتي» ما يلي :

«ان الاجيال المظلمة التي مرت علينا نزعت منا كل الحقوق التي خولنا الله اياها وحرمتنا من نعمة الفكر التي هي اساس الحياة السعيدة ، وهكذا فقدنا حاسة النقد والانكار وأصبحنا نستصعب وجودها عند البعض منا . ان التقزز الذي نحس به عندما يوجه الينا احد نقداً ما ، أو الامتعاض الذي نشعر به عندما نقرأ افكاراً مباينة لأفكارنا – ان ذلك كله دليل على الاضطهاد العظيم الذي وجدته الحرية في بلادنا سواء من ذوي الأمر المنتسبين للدين أو من ذوي الثروة والجاه ، لأن الذين يألفون رؤية المناظر البشعة يعتادونها فلا تنكرها ابصارهم بل ربما طلبوها عند فقدها . فيجب ان نتحرر إذن من آثار الاضطهاد السابق في نفوسنا ، ومن آثار النفاق التي تسيطر علينا ، ونسمح لغيرنا بابداء آرائهم حرة طليقة ، حتى ولو كانت ضدنا » .

أما المشكلة الثانية فهي مشكلة الفراغ الفكري والعقائدي

اطوار الزجل اللبناني

بقلم مارون عبود

ما اكثر الشعر في هذا الجيل الشاعر. كانت اساطيره، والأساطير مراعي الشعراء، خميرة الحضارة الاولى فطلع عجينها وأمسى خبزاً حياً على موائد الآلهة. ثم استحال في دنيا الأحلام عشاء سرياً تلذذت الانسانية الاولى بطعامه المقدس.

احلام رافخة تراءت للبناني الأول فعبرهــا بصور شتى: صناعات ونقوش وحروف، دمى وأرجوان وزجاج. أوضح فكرته تارة بالنقش، وطوراً بالغناء، وأحياناً بالفتوحات الفنية فكان خياله العجيب منبع اساطيره الغربية. ومشى لبنــان والزمان في منعرجات التطور فاستعرب وراح يتذوق آداب لغته الجديدة مذ دارت الضاد على لسانه، وأبى عليه طموحه ان يقعد حسيراً فضرب فيها بسهم وطفق يقول الشعر فلم تنقد له اللغة فكان الزجل.

ليس «الزجل» الذي نعجب به ونعتز لسماعه ابن امس، فهو غير صغير السن ولا حديث الميلاد، كما قال الجاحظ حين أرخ الشعر العربي. فالزجل اللبناني عريق، دونه تاريخنا منذ خمسماية سنة. فمهلهله وامرؤ قيسه اسقف استعرب وتمغرب. نظم زجله أو شعره على عروض خاص استمد توقيعه من لغته الأولى «السريانية» وخلف للاجيال هذا الوزن تراثاً أو اساساً لشعرنا العامي الذي ارتقى الى ذروة الفن الأدبي.

المطران جبرايل ابن القلاعي اللحفدي هو القوال الأول. عاش في القرن الخامس عشر، وقال أزجاله في مواضيع اكثرها دينية طائفية.

قال عنه الدويهي في تاريخه الشهير: ولد جبرائيل بن بطرس اللحفدي في قرية تدعى لحفد من اعمال جبيل، وهي قرية قديمة طيبة الهواء كثيرة الديورة والكنائس ظهر منها كثير من الرجال الفضلاء. وأما جبرائيل فيكنى بابن القلاعي وابن غورية لأنه كان لوالديه بيت مبني بين القلاع، في مزرعة تدعى غورية من أرض لحفد، ومنذ صباه سلمه والداه إلى الخوري ابراهيم بن دريع، وهو رجل فاضل، ليدرس عليه اصول اللغة السريانية والعربية، فأخذ جبرائيل يجتهد ويجد، وكان رزين العقل مشغوفاً بالقول فنظم الزجليات. ثم خطب له والداه ابنة حسنة من ذوات قرباه فاعتراه استرخاء في عينيه فكرهته الخطيبة ولأجل ذلك زهد في العالم وهاجر إلى القدس الشريف وهناك انخرط في سلك رهبان القدس، وسافر معهم إلى رومية في سنة ١٤٧٠ ثم عاد منها إلى بيت المقدس سنة ١٤٩٣ بعد ما تخرج فيها واقتبس العلم، وبعد جهاد ثلث قرن سيم مطرانا سنة ١٥٠٧ [١].

فهذا الشاعر العامي قضى حياته في الغرب بعدما فجع بحبه الأول، وكان من هذا شعر كثير وتصانيف شتى، يقول الدبس في ملحق تاريخ سوريا: ونظم قصائد كثيرة وان

(١) تاريخ الدويهي ص ٤١٢

فالشخصية لا يمكن ان تتجه ايجابياً وان تنتج وتبدع إلا بوحي ايمان شامل عميق. وقد يكون هذا الايمان دينياً او عقلياً أو علمياً أو قومياً. ومهما كانت طبيعته فلا بد من وجوده لتسيير الشخصية واعطائها مبدأ الحركة الدافع. اما جذور هذه المشكلة فهي فكرية فلسفية وتعود في الحياة العربية الى قصة الصراع بين العقل والدين، تلك المشكلة التي يجابهها المجتمع العربي منذ مئات السنين وما زال بعيداً عن حلها. وإذا تم أي حل جزئي فقد قام على انقاض العقل، والحط من شأنه، وإضعاف سلطة الفكر وحقه في البحث الحر والاستقصاء الصريح. اننا لم ندرك بعد ان العقل والدين لا يمكن ان ينفي الواحد الآخر. اما التأرجح بين الاثنين على اساس الغموض والادعاء وتمويه الحقائق فقد يؤدي بالنتيجة الى فقدان الاثنين معاً وبالتالي الى امحاء الايمان. وهو الامر الذي يهدد الشخصية العربية ويعطيها الميوعــة التي تتميز بها وعدم التحديد الواضح لمعالمها وبالتالي نقصان اليقين والحرارة للبناء.

قد تبدو هذه المشاكل على ظاهرها بسيطة ولكن نتائجها أبعد مما نتصور بكثير. ومن الصعب ان نتبين خطرها اذا لم نتألم كفاية من واقعنا العربي ونرجع اليها مسؤولية الفواجع التي ارهقته. انها لا تقرر مركز الفرد العربي في مجتمعه فحسب بل وفي المجتمع الدولي وتعطيه صورة معينة اقرب الى الفقر ومركزاً ضئيلاً. ومعالم هذه الصورة ان الفرد العربي مضطرب مقلقل غير منتج، وانه بحاجة الى تغيير يمتد الى الجذور والاعماق ويخرجه من عالم العبودية المظلم الى عالم الانطلاق الفسيح.

ان مشكلة المجتمع العربي هي مشكلة الشخصية العربيــة والفرد العربي.

جورج طعمه

كانت منحطة لغة فهي كثيرة الفائدة [1].

ولما رأى هذا الاسقف البدع رافعة رأسها في وطنه هب مناضلاً مقدّم بشري عبد المنعم، وقد بلغت رسائله وقصائده النضالية الخمسمائة وهي مكتوبة ومنظومة في مواضيع شتى. ان الزجل اللبناني (المدوّن) يبدأ مع هذا المطران الذي حفظت لنا التواريخ بعض آثاره، ومنها يستدل ان الزجل كالرجز، بدأ بسيطاً ساذجاً، كما يبدو لنا من آثار هذا الحبر العالم المحفوظة بمكتبة الفاتيكان بين كتبه.

طبعاً لم يقل ابن القلاعي، وهو الاسقف الراهب، زجله غزلاً ومعنّى، بل قاله في مواضيع دينية قومية اصلاحية. نظم في (ميمر) كبير احبار طائفته ونضالها الروحي. فاستهل (ميمره) منددا براهبين خلعا النير، وخرجا على معتقد طائفتهما فقال:

ابليس اب كل الطغيان	نظر شعب مارون فرحان
حسده ورماه في احزان	لأجل تنين كانوا رهبان
كان الواحد من يانوح	والآخر من دار نبوح
كرزوا في السر الموضوح	تكلم بهم روح الشيطان

★

وما اكتفى الزجال اللبناني الاول بارسال شعره بسيطاً على وتر واحد، فازدوجت قيثارته، فقال في ميمر آخر بالموضوع عينه، وهو قصيدة رثى بها معلمه الراهب يوحنا

أرادوا يقولوا عنا، في سر مخفي عظيم
إنّا هراطقه قد كنا، منذ الزمان القديم
جاوب الراهب حنّا، عاد كل عالم بكيم
العقل منهم تحير، غاب الصواب والبصر

فمن سماع نموذج من هذا الزجل ندرك امرين، اولاً ان هذا الزجل أو الشعر العامي — سمه كما تريد — قديم العهد جداً في لبنان، وانه، وإن خلا من الصور الشعرية، فهو يدل على شاعرية ابن الجبل الملهم ... ومن هذا الزجل القديم تولد شعر باللغة الفصحى، أرقى من الزجل قليلاً. وظل يتمشى في التاريخ رويداً رويداً حتى استقامت لغته للمطران فرحات ولكهنة ورهبان آخرين. ثم خطا مع نقولا الترك وبطرس كرامه شاعري المير، وظل يتطور حتى أوشك ان يبلغ قمة الشعر العربي بصوره الرائعة وموسيقاه الساحرة. اما الزجل فما قصر، ولا توانى في الطريق. ارتقى، بعد ثلاثة عصور، مع القس حنانيا المنير فنحا منحى الشعر في خياله وصوره، كما نرى من قصيدة (البرغوت) الرائعة. فهذا الراهب الشاعر قاسى من قرص البراغيث ما قاسى يوم لم يكن د.د.ت. لمكافحتها، فقال يصف احدى المعارك الليلية مع البرغوث بحوار طريف فخلد زجله، ومات شعره. قال:

بعدّ بيوت مع قصدان تا خبركم بللي كان طول الليل وأنا سهران
وصبّح جلدي كالجربان

جاني البرغوت وأنا نايم وصار على صدري حايم وقلبي من شهرين صايم
بحسابي خلص رمضان

قلتلو لا تجدبني علامك انت مكاربني بالله عليك لا تتعبني
كل النهار وانا تعبان

قال لي ما انا بهمّك ان سرك اوكان غمك عشايي الليلة من دمك
وبكره بيفرجها الرحمان

وقلي ما هو عا كيفك هالليله انا ضيفك عيب عليك ويا حيفك
يكون عندك وينام جيعان

ولا يفوت القس حنانيا ان (يبدع) في زجليته هذه، فيدمج في زجله سياسة عصره قائلاً بلسان برغوثه:

قلي كلامك كلو فشار قرايبي وولادي كتار وتربو عند الجزار
وتسلطوا على البلدان

ويعجز القس فيتهدد خصمه بالشكوى فيجيبه:

حكم القاضي انا عاصيه ومن يومي انا معاديه وفرمانو ما بعمل فيه
وعلي ما لو سلطان

قلت يابرغوت قلي كارك واهديني لباب دارك قصدي اقطع جدّارك
واحرق نسلك بالنيران

قال لي لعشيه بقلك وعلى باب داري بدلك لمن بدخل بظلك
وبرقصك مثل السعدان

هذه صورة عن الزجل الاول. اما مدرسة الزجل الكلاسيكية النابتة فروعها على هذا الجذع فهاك حديثها.

الطور الكلاسيكي

رافقت هذه المدرسة طفلاً، فعلى انغام هذا الشعر واصدائه استيقظت نفسي، فهو نشيدة مهدي وترنيمة سريري، ولهذا انطبع في ذهني، وهيهات ان يمحو الزمن ذكريات الصبا. ان هذا الشعر منبثق من اعماق نفوس اللبنانيين وقلوبهم، من ظلمات اوديتهم وثرثرات انهارهم وجداولهم، من اضوائهم

---
(1) الجامع المفصل ص ٢١١

وظلماتهم ، من عرازيلهم وخيامهم ، من قلق العجائز واحلام الصبايا . انه منسوج من خيوط شمسنا الذهبية ، لحمته من وراء البنفسج ، وسداه من خيوط القلوب ولهذا سمّوه المعنّى والعتابا . اما حياته الفنية فمستمدة من هواء وماء هذا الجبل المتصوّف .

لقد رافقت هذا الشعر رفقة عمر لا رفقة طريق ، استهواني فعشقته فرأيت فيه اصدق صور المحيط الذي أمدني بما نسميه الحياة . قرأت عن هذا الشعر في الكتب ، فعرفت كيف نشأ الزجل الاول مع ابن القلاعي اللحفدي ، فكان حافلاً بالمعاني ، وكاد ان يكون خالياً من الصور والالوان . ثم نظرت اليه فرأيت كيف تطور مع القس حنانيا المنيّر الزوقي . ثم اخرج من دائرة الكتب الى ألسن الرواة ، وما رواته إلا ابي وعمي وخالي وجيراني ، فصرت اطير فرحاً كلما سمعت بعرس جديد انتظره لاسمع المعنّى والقرّادي من ابن عمي سركيس ومن ابن عمي طنوس عبود ، ومن طنوس المير والزغنا على نقر الدف . ثم نسمع العمّين انطون وارسانيوس يتباريان بقصيدة زجلية موضوعها مفاخرة بين (البيضا والسمرا) فتتطاول الاعناق وتتلاقى النظرات ، وتنقسم العرب عربين .

هؤلاء كانوا رواة الشعر اللبناني في ضيعتنا ، ومثلهم كثير في كل قرية ، فهم الذين غذوا مخيلتي بهذا الشعر الرائع الذي لا يزال يهز نفسي اليوم ، كما كان يهزها يوم كنت ابن اربعة عشر . ولهذا أراني بعدما سمعت من هذا الشعر ورويت وحفظت استطيع تقسيمه الى مدارس كالشعر الفصيح . فالشعراء الاولون هم ابن القلاعي والمنيّر وغيرهم كثيرون . اما الكلاسيكيون فهؤلاء هم شعراء القرن التاسع عشر وكان رواتهم عندنا من ذكرتهم لك . ان اكثر اسماء هؤلاء الشعراء مجهولة . وحالهم حال الشاعر العربي الفصيح المجهول ، فيقولون عند رواية شعر له : قال الشاعر ، وكفى . لقد تأسفت اشد الاسف لاني لم أدون قصائد غراء من هذا الشعر الذي يؤلف اصدق صورة عن الحياة والمحيط ، ولكن الحرب العظمى الاولى ذهبت بكثير من رواته ولم تترك في نفوسنا إلا اللوعة والحسرة عليه .

ان ذلك الشعر الذي سميته بالكلاسيكي مجهولة نسبته ، وقد اريتك نماذج منه كما سمعته من الرواة . انك ترى وتعرف ان لشعرائه جولات حساناً في ميادين شتى . اما اكثر اغراض هذا الشعر فحنين وعتاب ومساجلات .

وينقضي دور الرواة ويجيء دور التدوين بالطبع ، فاقرأ اول ديوان من هذا الشعر للياس الفران اشهر قوّالة زمانه ، ويقال ان الاستاذ ابراهيم الحوراني جاءه مرة فرآه منعكفاً يحوك على النول فقال له :

شفت الدبّ حرير يكبّ   عبيجيك آلاجا

فأجاب الفران :

ديّات بي الدهر الدبّ   العمل منك خواجا

ثم تعارفا ، ولا تعجب ان تسمع الحوراني يقول فأكثر كبار شعرائنا قالوا الزجل . اما ما اذكره من قول الفران فهذه الردة وقد قالها في سيدة كانت ملكة جمال عصرها طول عمرها :

يا من فيك الحسن التمّ   وعندك حطّت رحالو
ان شاهد حسنك بدر التمّ   بيروح بيخبي حالو

أرأيت هذا الجناس ؟ ان الجناس قوام نوع آخر من هذا الشعر ويعرف بالعتابا وهو يستحق درساً على حدة . ثم يظهر ديوان شاعر اسمه نعمان فارس من ادة البترون . افتخر نعمان هذا في ديوانه فقال مورّيا في ختام احدى قصائده : نعمان فارس والجميع بيشهدو .

فرد عليه شاعر آخر كان يقف له دائماً بالمرصاد ، فقال له :

تسماية بيّك فارس كانت صدفه   وخوري اللي عمّد بيّك فاقع خرفه

وظهرت دواوين اخرى اشهرها ديوان خليل سمعان وديوان شاهين الغريب فطفر الشعر العامي طفرة رائعة ، ونشرت قصة الدست والكيس لحنا الباني فكان القول القصصي .

وسمع صوت حلو هو صوت المرحوم رشيد نخله الذي انصرف عن الشعر الفصيح الى قول الزجل فكان اميره بحق . وعلى ألسنة اللبنانيين تدور له ابيات عائرة ومقطعات رائعة ، اما اتباع مدرسته الكلاسيكية فمشهورون يعرفهم القارىء ، وله اولى الملاحم في القول ، وهي محسن الهزان .

وتطور هذا الشعر تطور الشعر الفصيح فظهرت مدرسة جديدة مع ميشال طراد ثم اسعد سابا ، وهكذا نحا شعرنا العامي نحو الشعر الفصيح وظهرت له جرائد ومجلات ، وطبعت دواوين وعنيت به الصحف في الوطن والمهجر . وقد اهدي إلي من هذا الشعر المحبوب ديوان للشاعر اسعد السبعلي واسمه « عطور من لبنان » .

أهداه إليّ منذ سنوات، المرحوم شكري الخوري، صاحب جريدة «ابو الهول» البرازيلية، فرأيت فيه صورة اولئك الشعراء الذين سمعت شعرهم من ألسن الرواة. رأيت السبعلي طافح القلب بالحنين إلى وطنه، فيصوره لك حتى تكاد تراه وكل ذلك بزجل كلاسيكي. أما في ديوانه الذي صدر بعدئذ فرأيته متأثراً بالمدرسة الجديدة ولكن بمقدار لا يخرجه من المنطقة الكلاسيكية وإن كثرت فيه الألوان. ففي هذا الديوان تصاوير محلية ذات ألوان كأنها الواقع المغذى بمخيلة الشاعر الملهم، كقوله في مطلع ديوانه يناجي الضيعة:

وضيعة بجبل لبنان قلبي ودها   نيسان عمتضحك زهورو بخدها

من جبالها هالسمر ايدك مدها   بصدر السما بتلعب متل ما بدها

هي ضيعتي هي عرس لبنان النضير   تموج بالألوان ترهج بالحلا

ونغمات حلوه تهز اوتار الجنان   لمين يا عصافير الفلا هالمهرجان

والهدهد تغاوى بتاج وصولجان   والهدهد مهودس بسفرة عالغدير

وقبل شق الفجر ولف عالصلا

فراشات بيض وحمر غنجات ودلال

بترف عالازهار رفات الخيال

وحقله قطع سجاد تضحك للجمال

وجوزات خضر مكتّشي بصدر الجبال

بتبعت هواها عاليمين وعالشمال

وراعي يغني بو الزلف عن كتف شير

والراعية السمرا تقلّو يا هلا

لا استطيع نقل الكثير لضيق المجال ولكن خيال السبعلي يوقفني أين سرت في ديوانه. لقد أعجبني جداً تصويره حياة الشاعر القروي بقوله:

بعرزال طري عميحصد غمار الهوا

مضبضب على مراجيح عمتهدر هدير

ومفرّعا عا سطيحتو شمس الفلا

حلوة هذه الشمس (المفرعة) التي نضت ثيابها كفاطمة امرىء القيس، وأجمل من هذا وصفه أودية لبنان الرهيبة قال:

ووهرة الوديان عجقة عرس جان   ودوار هادي مفرعه فيه الحسان

وعالحفافي ملوحة بالارجوان   وشربين عن الايام عميقلي بيان

ويعطي متيلي عن خلود السنديان   ومن دير رشتعمود بتشم العبير

بترد عنّك لمس حيطانو البلا

الشعر جميل وطبيعي جداً ولكن السبعلي يتجه نحو الالفاظ الفصحى فاسأله أن يقل منها لان التفاصح يفسد جو الشعر العامي فجمال هذا الشعر بغرقه في العامية إلى أذنيه. ويقول السبعلي من الوزن المعروف بالقرادي يصف مغارة:

بتمشي بنهر على شمالك   صفصافي تهدّي يديها

بتشوف مغارة عا قبالك   ضوي شمعا وفوت ليها

بتدخل ليها بتسمع حسّ   وصرخة نهر تقلك هس

وباشباح الليل تحس   وبتقول بها المغاره

غافي الدهر بعينيها

اما روح السبعلي الوطنية فظاهرة كالصخور التي يصفها في ديوانه، واسمع هذين البيتين لتقدر تعلقه بوطنه:

دير مار يوسف تحت الشير   عليه الوديان بتبومي

مهيوب وأفخم بكتير   من الفاتيكان بورمي

ومن مميزات شاعرنا إجادته الحوار، وله في ديوانيه روائع فاقرأهما إذا شئت ففيهما عطور لبنانية حقاً.

هذا هو الزجل الكلاسيكي، منذ نشأته حتى الآن، اما المدرسة الجديدة فحديثها يأتيك حين نتكلم عن «جلنار» ميشال طراد، «ومن قلبي» لأسعد سابا، وفي هذين الديوانين تتمثل المدرسة الرمزية في الشعر العامي، ولعلها وفقت اكثر من اختها في شعرنا الفصيح، وسنرى.

مارون عبود

النزعة الانسانية في الأدب العربي الحديث

جواب الاستاذ سلامة موسى

أجل . ان النزعة الانسانية في الادب العربي الحديث ضعيفة بل اكاد اقول انها معدومة .

وعلة ذلك ان الادباء العرب لا يزالون يتعالون على الشعوب التي يعيشون بينها ويأكلون لقمتهم من كد ابنائها . بل ان منهم من يكرهون الفقراء . وقبل سنوات عيرني كاتب ، يوصف بأنه كبير ، باني اسكن في حي الفقراء في القاهرة ...

اي ان الفقراء مكروهون محتقرون .

ما الذي يجعل الكاتب انسانياً ؟

هو ان يعيش في طبقات الشعب ويعرف الثراء والفاقة ، واحزان الناس وافراحهم ، وقوة العلم على تعميم الرفاهية ، ومحو التعاسة . وعندما يفعل ذلك يجد ان قلبه وعقله مع الفقراء وعندئذ يشتغل بالسياسة ويأخذ من هذه السياسة بالمذهب الاشتراكي .

ولا يمكن كاتباً عربياً ان يكون انسانياً الا اذا كان قد درس السياسة ووصل منها الى المذهب الاشتراكي .

ولا يمكنه ان يكون اشتراكياً الا اذا كان يعرف بل يوقن ان العلم يستطيع ان يمحو الفقر والشقاء لانه يزيد الثراء . ويجعل العمل المنتج مستطاعاً بلا ارهاق او كد . وعندئذ يتاح للعامل (وكل رجل او امرأة في الامة يجب ان يعمل) ان يجد الأجر الكافي لرفاهيته . ويجد الفراغ لتثقيف ذهنه وجسمه . ويجد الظروف الاجتماعية التي تتيح له الحب والابوة وسعادة الاخاء البشري وحرية الفكر ، هذه الحرية التي لا تعد حقاً للانسان بل واجباً . لانه لا يمكنه ان يكون انساناً اذا ارتضى لنفسه العبودية للتقاليد المظلمة او الغيبيات المضللة او الاستبداد المذل .



هل صحيح ان النزعة الانسانية ضعيفة في الادب العربي الحديث؟ اذا كنتم تعتقدون ذلك، فما هي اسباب هذا الضعف ، وما السبيل الى معالجته ؟ .

جواب الاستاذ رئيف خوري

النزعة الانسانية في الادب ! ماذا تريد بها ؟ اتريد بها تلك النزعة التي تجعل من الانسان موضوعا للادب يدور عليه ولا يحيد عنه ؟ ولكن هذا الموضوع ياصاحبي خضم عظيم ، لا مقاس لعمقه ، ولا لسعته ، ولا حصر للخلجان والبحيرات التي يتشعب فيها ، ولا للانهار والجداول التي تنصب فيه . وبعد ، فموضوع الانسان - على الاقل - موضوعان : الانسان جماعة (اي : المجتمع) والانسان فرداً . ولا يقل قائل ان الموضوعين متشابكان، فهذا لا يعني انها غير متمايزين . ثم ان الانسان كائناً منصوباً في وجه الطبيعة ، هوموضوع . وكذلك الانسان كائنا مصارعا او معاونا للانسان في قلب المجتمع هو موضوع آخر . واحسب ان الادب الذي يدور على احد هذه الموضوعات ، وان في اطار انساني عام او قومي خاص ، قابل لأن يوصف بالنزعة الانسانية .

فاذا اتفقنا على هذا ، لم يكن لنا ان نقول ان النزعة الانسانية في الادب العربي ضعيفة من كل وجوهها . لا ، فان في قصائد حافظ إبراهيم ، مثلاً ، التي شن فيها الحملة على الاستعمار البريطاني وتغنى بمصر ، وغنى حقوقها ، نزعة انسانية مشتقة من العاطفة الانسانية الاصيلة ، عاطفة القومية وحب الاستقلال القومي . وكذلك قصائد خليل مطران التي دمغ بها الطغاة تشتمل على نزعة انسانية مشتقة من العاطفة الانسانية الاصيلة التي هي الحرية . ومثل هذه النزعة نلمسها حارة قوية في كثير من شعر شوقي وسواه من بقية شعرائنا المحدثين . وكذلك قصص المنفلوطي مثلاً تتنفس عن لوعة والم لحظوظ البؤساء ، وذلك ايضا لون من النزعة الانسانية .

ولكن مع ذلك تبقى جوانب كثيرة من النزعة الانسانية غير ممثلة في ادبنا الحديث . واولها : الانسان منصوبا في وجه الطبيعة يتحداها ليسخرها بعلمه وعمله . فان الحياة العربية لتتحمل مثلاً رواية عظيمة ينشئها كاتب موهوب في موضوع احياء الصحراء ، ولو كان تأليفه مضطراً ان يأتي اليوم تخيلاً كتخيل «جول فرن» ...والجوانب التي نجد فيها نزعة انسانية في الادب العربي الحديث ، كالقصائد والفصول في المناداة بالتحرر القومي والاصلاح والعدل الاجتماعي ، ما زالت تتحمل التعميق والتوسيع . ومرد ذلك في رأيي الى كسل ادبائنا عن معالجة الفنون الادبية التي يشهد التاريخ بانها هي دون غيرها مطيعة لان تتجلى فيها النزعة الانسانية قوية تامة . فلم يجد ادباؤنا من هذه الفنون الا القصيدة الغنائية القصيرة ، فاما الرواية والمسرحية والملحمة فمازالت تنتظر ادباء العرب الذين يبدعون فيها . ان النزعه الانسانية في ادب كاتب عالمي مثل تولستوي او بلزاك لم تظهر في مقالة كتبها بل في رواية طويلة صبر على إخراجها ، ممثلة لعصر وموجهة لعصر .

مرة اخرى اقول ان الكسل والسرعة وايثار السهولة هي الآفات المسؤولة عن ضعف النزعة الانسانية في ادبنا الحديث ، بل عن ضعف ادبنا الحديث بجملته . ولا علاج لهذه الآفات الا بان ينشأ لنا جيل ادبي جديد ، شرط ان يهتم هذا الجيل بايجاد ادب فعلاً اكثر من اهتمامه بالتحدث عن ضرورة ايجاد الادب ، وكيف ينبغي للادب ان يكون ، الى آخر المعزوفة المعروفة ! .

جواب الآنسة نازك الملائكة !!!

يفترض هذا السؤال ان ثمة شيئا منفصلاً يمكن ان نسميه بالنزعة الانسانية في الادب ، ثم يشغل نفسه بالبحث عن هذه النزعة في آدابنا الحديثة اقوية هي ام ضعيفة . وهو يجنح ايضا الى تقرير جواب من لون معين عندما يفترض ان الجواب سينتهي الى ان النزعة ضعيفة، ولذلك يحتاط ويلقي سؤالين حول اسباب هذا الضعف والسبيل الى « معالجته » . وهذا الاسلوب في صياغة السؤال ان لم يخط طريق الجواب خطا صارما فهو ولا شك يتطلب جوابا مقصوداً .

وعلى ذلك فلا بد للجواب ان يكون حذراً فلا يستسلم للفرض الذي بني

عليه السؤال . فما المقصود بالنزعة الانسانية قبل كل شيء ؟ او ليس الادب كله محصولاً انسانياً يعالج احاسيس الانسان وافكاره وانفعالاته واحداث حياته ؟ وهل كان محض صدفة ان الاوربيين يطلقون لفظ الانسانيات [Humanities] على الآداب اجمالاً تمييزاً لها عن الدراسات العلمية ؟ هذه اسئلة يتغافل السؤال عنها حين يتضمن معناه العام ان الانسانية نزعة صغيرة تقوى وتضعف ونستطيع نحن التدخل في تقويتها واضعافها .

وانا لنرجو الا يكون المقصود بالنزعة الانسانية هنا التعبير عن المشاكل والاحزان والمتاعب التي يعانيها افراد الجنس الانساني . فليس الشقاء بمجموعه الا جانبا صغيراً من المعاني الواسعة التي تتضمنها لفظة « الانسانية » ومن الغبن لهذه الكلمة العظيمة ان تتقلص وتتآكل حتى يقتصر محتواها على معنى (الالم). ولو كان المقصود بالنزعة هذا المعنى الصغير لما كان للاستفتاء داع ، فالادب العربي اليوم مصاب بحمى من صور الشقاء والتعاسة والاحزان ، وكأن حياتنا الانسانية الفذة بكل ما فيها من انطلاق وخصب وجمال قد انهارت وفقدت روحها وعزيمتها وسموها . وقد يكون هذا احد نتائج الدعوة الى اجتماعية الادب وهي دعوة اريد بها شيء فانتهت الى أشياء واشياء اخرى .

ولو سلمنا جدلاً بوجود نزعة انسانية ، وبان هذه النزعة ضعيفة في آدابنا الحديثة ، لما كان في وسعنا ، على كل ، ان نصنع شيئاً في معالجة الاشكال ، وذلك لان ضعف نزعة ما في الادب قضية معقدة تنشأ غالباً عن عوامل تاريخية وبيئية تجعل اقتراحاتنا ، حلولنا لا تزيد الأمر الا اشكالاً . والآداب لا تغير نزعاتها وفقا لآراء النقاد والصحف الأدبية وانما تستجيب الى قوى خفية تتغلغل جذورها حتى تتصل بالذهنية العامة للامة ، والقوى المجهولة التي تكون نفسيتها وتاريخها الطويل . الا ينتهي بنا هذا الى التسليم بان ضعف الاتجاه الانساني – ان وجد – انما ينبع مباشرة من حياتنا الانسانية ؟ فاذا اردنا علاجاً فلنبحث في حياتنا نفسها عن السبب ، فليس الادب إلا مرآة تعكس الحياة ، وضعف النزعة الانسانية لا بد ان يكون نتيجة لضعف مقابل في انسانية الناس.

هذا فضلا عن ان الحديث عن« معالجة الضعف » الذي يفترضه السؤال ، يستطيع ان يتحول الى باب خفي ينتهي بنا الى مواجهة البلية التي يسمونها « توجيه الادب » ، ولا شيء يقتل الادب مثل ان يجد طريقه محفوفا بالموجهين والناصحين ومقترحي الحلول . يضاف الى هذا ما نشهده في التاريخ الادبي من ان الادباء الحقيقيين لا يتقبلون التوجيه الخارجي الذي لا تبرره عوامل داخلية تنبع من حياتهم نفسها .

جواب الدكتور جورج حنا

الجواب على هذا السؤال يختلف باختلاف نظرة الادب الى النزعة الانسانية في الادب ومفهومه للانسانية نفسها. فاذا كان من ابناء مدرسة الادب التبشيري، جاء حكمه الى حد ما بصالح الادب العربي الحديث ، اما اذا كان من ابناء مدرسة الادب الواقعي والعلمي والتحليلي ، فلا شك ان حكمه يكون قاسياً على الادب العربي الحديث لافتقار هذا الادب الى النزعة الانسانية الصحيحة التي لا يتبذلها ما اسميته الادب التبشيري .

ولست اقصد بالادب التبشيري الادب الذي يبشر بالدين وحسب، انما اقصد به كل نوع من الادب الذي يشغل الاديب بالوعظ والارشاد في اية ناحية من نواحي ادبه سواء كانت الناحية الدينية ام الاجتماعية ام الاقتصادية ام السياسية هذا الادب الذي يكثر فيه تسجيل قواعد التوجيه الديني والاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، دونما اهتمام بتحليل هذه القواعد وانطباقها على العلم والواقع الانساني، الادب الذي تتكرر فيه كلمات « يجب ولا يجب » و «بديهي» «ولا جدال » وما على شاكل هذه الكلمات الفرضية ، الادب الذي يعظ الاغنياء بالاحسان الى الفقراء ولا يعنى بدرس مشكلة الفقر والغنى ، ويعظ الحكام بالاصلاح ولا يعنى بتتبع مستلزمات الاصلاح ، الادب الذي يشيد بالعدل الاجتماعي والحق والحرية ولا يجرؤ على الكشف عن اسباب فقدان العدل الاجتماعي والحق والحرية ، الادب الذي يتحدث كثيراً عن مشاكل الحياة والمعيشة ولا يغوص في اعماق الحياة ويشرح مشاكلها واسباب مشاكلها خشية ان يؤذي بتشريحه معقدي مشاكل الحياة والمعيشة . هذا النوع من الادب الذي ما زال شاغلا اكثر ادباء العرب بفضل التوجيه السياسي في العالم العربي وباشراف حلفاء اقوياء هم الاستعمار والرجعية والدين قد يعتقد حاملو لوائه انهم ينزعون نزعة انسانية في ما يكتبونه عن الاحسان والمحتاجين وعن العدل الاجتماعي وانصاف العامل والتضحية في سبيل النفع العام. ولكن نزعتهم هذه نزعة هوسية لانسانية خادعة وشوهاء لا تفيد النوع الانساني لا بقليل ولا بكثير .

النزعة الانسانية لا تكون الا في ادب متمرد على كل ما يمت الى الرجعية بصلة سياسة وثقافة واقتصاداً . فالرجعية كحليفها الطبيعي الاستعمار ، من شأنها تزييف الانسانية. الادب الانساني لا يستوحي الا من صميم الحياة وظروفها ومشاكلها هو الادب الذي يلهب حماسة العامة المضطهدة والمستعبدة ضد مستعمريها ومستثمريها ومجوعيها ،هو الادب الثائر على الخنوع والتواكل والصبر على الكلام ،هو الادب الذي يحمل مع كل عبارة من عباراته ثورة الذات الانسانية على كل ما يحط من قدر هذه الذات كالاحسان المذل او استثمار الانسان للانسان اوتصنيف الانسان الى انسان سيد وانسان عبد .

على ان في الادب العربي الحديث تباشير آخذة بالانقشاع اكثر فاكثر على الرغم من محاولات السياسة الرجعية لطمسها . هذه تباشير تؤذن بفجر عهد جديد للادب العربي ، عهد تتجلى فيه النزعة الانسانية الحقة التي لا تشوبها شائبة ولا يشوهها زيف ولا نفاق ولا تدجيل .

جواب الاستاذ نهاد التكرلي

ان تعبير « النزعة الانسانية » قد حمل، منذ ان اوجده « الانسانيون » في عصر النهضة الاوربية حتى العصر الحاضر ، معاني مختلفة .ولذلك فمن الواجب تحديد معناه قبل الاجابة عن اي سؤال بصدده . ولا شك أن تحديد هذا المعنى سيحيل الى ميتافيزيقا الكاتب لانه سيظهر لنا الفكرة العامة التي كونها هذا الكاتب عن نفسه وعن الانسانية بصورة عامة والموقف الذي يقفه من الكون ومصير الانسان . وفي نظري ان « الذاتية الفردية » هي النقطة التي يبدأ منها الانسان عندما يستيقظ من سباته العقلي ويشعر بنفسه وبالعالم الذي حوله . وهذه الذاتية ليست سوى مرحلة ابتدائية فحسب ، لان الانسان ما يلبث بعد شعوره بذاته ان يكتشف بأنه يعيش بين افراد من بني قومه تربطه بهم مشاعر ومصالح واهداف مشتركة. فهم لا بد ان يكافحوا من اجل تحقيق غايات معينة وان عليهم ان يتألموا معاً ويفرحوا معاً وينتصروا معاً . غير ان هذا الانسان المتيقظ لا يمكن ان يرضى بهذه المشاعر والغايات الوطنية الضيقة لانه ما يلبث ان يشعر بأن هنالك حالات وغايات اخرى تربط الجنس البشري باسره . فهنالك مواقف اساسية في الكون لا تحدد حالته المخصوصة ولا حالة بني قومه فقط بل تحدد حالة « الانسان » بصورة عامة . وهنالك غايات عامة لا تهيب به فقط ان يحققها ويكافح في سبيلها ، بل تهيب بكل انسان ان يكافح من اجلها لكي يحقق بتحقيقها الكرامة الانسانية . فالانسان الذي يكتشف انه حر مثلا وان من الواجب ان يناضل ضد عبوديته ، لا يكتفي بهذا الاكتشاف فقط بل يدرك ان افراد الجنس البشري كلهم احرار ،وان من الواجب عليه ان يؤيد كل نضال للحرية ضد العبودية في كل زمان ومكان.

(التتمة على الصفحة ٧٣)

طريق العودة

مسرحية واقعية بمشهدين

بقلم : خليل هنداوي

[الى الذين يحاولون ان يعودوا مرة ثانية]

الأشخاص :

الأم وابنتها سلوى

طبيب الملجأ

أصوات ثانوية متداخلة

●

— ١ —

في زاوية منعزلة من زوايا الملجأ الرحيب كوخ حقير ليس فيه إلا ام وفتاة مسلولة طالت بها أيام علتهـــا ... وهي بقية أسرة كانت قوية، غنية من فلسطين —الفردوس المفقود— فقدت الوالد ، والشقيق ، والقريب ، والارض ، والبيت . فهما الآن لاجئتان منسيتان .

(الوقت ليل)

سلوى — (بسعال ابح) أماه ! كأن شبحاً يطيف بأطراف الملجأ ، أماه ! إني أراه . إني أسمع خطاه .

الأم — كفى يا سلوى ! إنك غريبة النفس هذه الليلة ، من اين تأتي الأشباح ، وقد تركناها في ارض الدماء ؟

سلوى — إذاً ، ما هـذا الذي أرى ؟ ألا تبرز الأشباح الا في أرض الدم ؟

الأم — نامي! لقد مرّت عليّ ليال دون ان اذوق النوم بجانبك .

سلوى — حقاً ، .. لم يترك لي المرض سبيلًا الى النوم والراحة .

الأم — هل تشكين شيئاً الآن ؟

سلوى — هذا السعال الذي يجرح صدري . كأن عـــلى رئتيّ شوكاً مسنوناً . (سعال) الشمعة ، ! أضيئي المكان! الظلام يروّعني .. لا ادري لماذا يخيفني الظلام .

الأم — (تضيء الشمعة) ماذا تجدين ؟

سلوى — الدم دائماً على منديلي.. قربي النور ! ما للشمعة ترتجف!

الام — لا خوف عليك ..

سلوى — لست بخائفة على نفسي . ولكن أنبئيني هل نعود ؟

الام — سنعود من كل بد ..

سلوى — أقريباً ؟

الام — قد يكون موعدنا غداً ، أو بعد غد ، أو بعده .

سلوى — ما أقرب ميعادنا ! ولكن كم طال هذا الميعاد! الى متى ننتظر ؟ مع أية كتيبة ندخل ؟

الام — لن يكون لنا مستقر في أية أرض حتى نعود . وهذه الخيام الهزيلة توحي الينا بأننا سنعود !

سلوى — أجل سنعود . وربما نرى طريق العودة بأعيننا.

الام — بل نطأه بأرجلنا !

سلوى — ذلك الامل وحده يدعوني الى التشبث بالحياة بينما أراها تهرب مني مسرعة . هل يغلبني الموت ؟

الام — لن تموتي قبل ان تعودي ، وتري أرضك الهاربة .

سلوى — كل شيء يهرب مني حتى أنفاسي . (سعال)

الام — الدواء !

سلوى — لقد مللت الدواء . (تشرب منه)

الام — نامي قليلًا ! سأطفىء الشمعة .

سلوى — سأحاول ان اغمض عيني .. انني لا ارى شيئاً .

(صمت . بينما الام تطفىء الشمعة ، تهب سلوى مذعورة) .

الشبح نفسه .. شبح أخي مسربلًا بسلاحه .

الام — آه يا سلوى ! ما اكثر هذيانك هذه الليلة ! كأنك تريدين ألا أنام . فأيّ شبح هذا ؟ كيف يطرقنـــا شبح اخيك وهو لا يزال يقاتل ؟

سلوى — حقاً انه لا يزال يقاتل . هل تذكرين الليلة الاخيرة التي ودعنا فيها ؟ ثم لم نعد نراه ...

الام — وكيف انسى تلك الليلة الاخيرة التي لم ينقطع فيهـا الرصاص ؟

سلوى — لقد استطاع المجاهدون ان يردّوا اليهود على اعقابهم .

الام — ولكنه لم يعد كما وعدنا .

سلوى — لا شك اننا لم نحسن ميعاد تلاقينا . فهو على طريق ، ونحن رحنا على طريق .

الام — شأن اللاجئين واللاجئات . هل يمكننا ان نتلاقى ؟

سلوى — على منعطف طريق القرية شاهدنا مجاهدين يرفعون جثة مشوّهة .

الام — أتلك التي بتر اليهود اعضاءها ، ومثّلوا بها ؟

سلوى — انهم لم يعرفوا صاحبها ، لكنه ، وحده ، ردّ جمعـــاً يهودياً عن القرية . انهم لم يقتلوه الا بعد نفاد ذخيرته .

الام — وحين رأوه وحده تكالبوا عليه .

سلوى — كانوا يظنون انهم امام كتيبة تشغل مسالك الوادي..

لكنه كان وحده يتنقل من صخرة الى صخرة ليوهم الاعداء بالكثرة . يا لخيبة الامل ! إنهم كانوا امام رجل واحد .

الام — لذلك شوّهوه ، وقطعوه تشفياً .

سلوى — ومع ذلك ، لم يعرفه حتى رفاقه .

الام — كثيرون من الابطال ماتوا دون ان يُعرفوا .

سلوى — لقد توسمت وجهه ، ليس فيه ما يدل على ان له وجهاً .

الام — واخيراً لفوه بثوبه ليدفنوه .

سلوى — في تلك اللحظة وقعت عيني على مزقة من قميصه المخطط .. انه اخي ! (مجهشة بالبكاء) .

الام — عرفته إذاً مثلي ! أتظنين اني لم اعرفه حين شاهدته ؟ إن ريحه كانت تملأ المكان ، ولكني خشيت عليك الصدمة .

سلوى — كما خشيتها انا عليكِ . (باكية)

الام — كفّي البكاء ! لا شيء يحرق المجاهد كالدموع .

سلوى — ذلك هو الشبح الذي لا يزال يطرقني .

الام — انه لا يطرقك وحده . يقول رفاقه عنه إنهم دفنوه ، ولكنهم لا يعتقدون بانه ميت . لا يزال طائفه حياً على الربوة . واليهود لا يستطيعون العبور منفردين بدون سلاح . إنه حي دائماً ، يحسبون ان سينقض عليهم كل لحظة .

سلوى — بل ان شبحه يطوف في كل مكان، كما اراه عن يميني .. عن شمالي ، حيثما التفتُّ . كأني واياه على ميعاد .

الام — هذا الشبح يُطيف بكل بيت ، ويهيب بكل عربي .. إنه شبح العودة .

سلوى — أماه ! انه هناك يرمقني !

الام — هو الفجر .. لن يعود الشبح بعد الفجر .. نامي اذاً ! عند الفجر تنام الاشباح وتطمئن في مراقدها .

— ٢ —

مرت ايام عليها ، وحالة الفتاة لا تزداد إلا سوءاً ، فباتت لا يأتيها النوم في الليل والنهار . اما الام فقد اخذها اشفاق غريب على ابنتها يوحي اليها بان تضع حداً لهذه الحياة المتألمة . ففي صباح يوم ، وقد استغرقت الفتاة في نوم عميق .

الام — أفٍّ لهذه الشمس التي لا نجد ستارةً تمنعها . لقد هتكتِ الأستار والستائر . انها لا تزال نائمة ..

(قرع على الباب)

لعله طبيب الملجأ ! هذا يومه .. من ؟

الطبيب — كيف حال سلوى ؟ هل تنام نوماً مطمئناً ؟

الام — انها لا تنام إلا بعد ان يعجز منها النوم . لقد نفثت الليلة دماً نقياً .

الطبيب — لعلها نائمة .

الام — كما تراها . حمرة متوهجة في خديها . وشحوب في في بقية اعضائها ، وذبحة في صدرها .

الطبيب — الدواء .. هل تثابر عليه ؟

الام — دون ان يُغيّر لها حالاً . لعلنا نخدعها ونخدع انفسنا ونزيد في تعذيبها . والآن ، هل — هنالك — امل في شفائها ؟ بربك اصدقني ! انها لا تسمع .

الطبيب — ان من حقي كانسان ان اقول : لا .. وكطبيب : لننتظر !

الام — ما أصدقك كانسان !

(يذهب الطبيب)

ويحَ نفسي ! الى متى اتركها تنتظر ؟ لأي امل تحيا ؟ إنها تتعذب . لقد عرفتُ مصرع اخيها كما عرفتُ مصرع ابيها من قبل . لم يبقَ لها جذور حية في الحياة . هي توهمني ، وانا اوهمها . فيا للبطولة الجريح ! انها تحيا لأنها تريد العودة الى ارض الميعاد ، الى تلك السهول الحالمة ، الى وطنها المغصوب . والآن ، لماذا تريد الحياة؟ ان حياتها ان تموت . ألا يحقُّ لي ان أُخفف عنها بتعجيل الموت لها ؟

سلوى — أماه ! يا لَلحلم الجميل ! لماذا أيقظني صوتكِ ؟ لأول مرة يسالمني الشبح المخيف . رأيته على الربوة نفسها بسلاحه نفسه يفتح لي الطريق .. طريق العودة ، وهو يبتسم . لقد رأيت مرابعنا الخضر .. سهولنا الحالمة مخضبةً بالدماء . (سعال متقطع)

الام — اشربي الدواء قبل اشتداد نوبة السعال .

سلوى — صدري يكاد يتمزق .. أسفاه ! ان صدري هو الذي يتخضب دماً .. الدواءَ ! (تشرب منه) إن له اليوم طعماً غريباً ، إنه يُلهب فمي .. حلقي .. جوفي ..

الام — لكنه دواء جديد أعدّه الطبيب لكِ .

سلوى — هل يضمن لي الحياة ؟

الام — اشربي ! اشربيه كله !

سلوى – سأشربه ، لأنني أريد ان أحيا ، أريد ان اعود ثانية
الام – القطرة الاخيرة ايضاً !
سلوى – كأنها آلامي كلها سكنت . أي علاج سحري هذا
لكن عينيّ تتثاقلان . ما للنور يمشي عليهما باهتاً !
كأن ما حولي اشباح ترقص . أهذه علامة الحياة ؟
أمسيتُ لا ارى إلا طريق العـودة . أراه – كما
خلمتُ به الليلةَ – وذلك الشبح يناديني ضاحكا ..
سأتبعه الى تلك الأرض .. أين انت يا اماه ؟ تعالي
معي ! ليتك تنظرين الآن ما انظر ! مرابع فلسطين
الخضراء .. سهولها الحالمة ، وامواجها الزرقاء ،
والمقاتلة الذين عادوا الى الحياة ..
إنني وصلتُ .. وصلتُ الى ارضنا !
(تموت الفتاة والام في نشيج وبكاء)

الام – رباه ! ماذا جنيتُ عليها ؟ أعطيتها السُّم بيدي ...
هل ماتت حقاً ؟ ماذا صنعتُ ؟ لماذا لم أتركها بجانبي
حتى تعود كما اعود ؟ لكنها عادت قبلي .. يا للعين
التي لا تزال تلتمع !
ماتت سلوى .. لم تمت .. لكنها عادت حية ..
سلوى ! سلوى !
(تخرج هائمة على وجهها كمجنونة ، وهي تردد اسم ابنتها)

من اهل الملجأ – : لعل ابنتها الجميلة ماتت .
: ان عليها ظواهر الجنون .
: لا لوم عليها . لقد فقدت اعز شيء في الحياة .
: انها لا تقف . فالى اين تعدو ؟
: لعلها مجنونة ..
: أليس الجنون احياناً خيراً من العقل ؟
: امسكوا عليها طريقها ! الى اين ؟ الى اين ؟

الام – ويح لكم ! الملجأ كله يتحرك ، يريد العودة .
الى متى تظلون ضيوف الملاجيء ؟ سأعود وحدي
إن لم تعودوا انتم . لقد عادت سلوى . لا بد لي
من العودة وإن لم اصل .
ان من يريد طريق العودة فليتبعني !.

خليل الهنداوي

مسابقة « الآداب » للقصة

•

كانت « الآداب » قد اعلنت في اعداد سابقة عن اقامة مسابقة للقصة يحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها، وقد كان مقرراً ان ينتهي اجـل قبول القصص في اول الشهر الماضي آب (اغسطس) من العام الحالي .

ولكن ظهر لهيئة التحرير ان عـدد القصص التي وردت المجلة حتى الآن اقل بكثير ممـا كان منتظراً ، ولذلك رأت «الآداب» ان تمدد اجل المسابقة حتى آخر تشرين الاول من العام الحالي ، على ان تنشر القصص الفائزة في العـدد الثالث عشر وهو العدد الضخم الذي ستصدره « الآداب » خاصـاً بالقصة في مطلع العام القادم (كانون الثاني ١٩٥٤) .

وعلى ذلك تمدد «الآداب» أجل مسابقة القصـة حتى آخر تشرين الاول القادم بالشروط نفسها وهي :

١ – ان تكون القصة موضوعة غير مترجمـة ولا مقتبسة ولا منشورة .

٢ – ان تعالج موضوعاً يهم الجماعات العربية او الفرد العربي .

٣ – ان تكتب كلها باللغة العربية الفصحى .

٤ – ألا تتجاوز ثماني صفحات من «الآداب» .

اما الجوائز فثلاث :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها
الثانية : ١٥٠ 〃 〃 〃 〃
الثالثة : ٥٠ 〃 〃 〃 〃

وستتألف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد .

الحريم

•

« شفتاكِ جرح ، لا يزال ، دماً يسيل
على وسادتنا طوال الليل ، يا عصفورتي ! جرح يسيل »
ويظل فارسها يغني ، تحت شرفتها «طوال الليل» آلاف الحريم
يولدن ثم يمتن عند الفجر ، إلا أنتِ ، يا حلمي الجميل !
على وسادتنا ، طوال الليل ، يا حلمي الجميل ! »

★

وعمائم خضرٌ ، وصيادو الذباب
يخمّسون « قصيدة عصماء ! » في ذم الزمان
وقبور موتاهم ، وحانات المدينة ، والقباب
وسحائب الافيون ، والشرق القديم
ما زال يلعب بالحصى والرمل ، ما زال التنابلة العبيد
يستنزفون دم المساكين ، الحزانى ، الكادحين
على وسائد من عبير
ويزاولون تجارة القول المزيف ، والرقيق
ما زال « هولاكو » و « هارون الرشيد »
ولم يزل « فقراء مكةَ » في الطريق ...
وقوافل التجار والفرسان والدم والحريم
يولدن ثم يمتن عند الفجر في احضان « هارون الرشيد »

★

ويعود فارسها ، يغني : « لم تعودي ، شهرزاد !
— زاد المعادِ —
جسداً باسواق المدينة ، في المزاد
جسداً يباع
يا انتِ ، يا عصفورتي ، يا شهرزاد ! »

★

ومنابع البترول ، والكهان ، والشرق القديم
ومحطّم الاغلال ، يبصق ، في الظلام ، على القبور :
« ما زال اعداء الحياة يزاولون
تجارة القول المزيف ، والرقيق
ما زال « هولاكو » و « هارون الرشيد »
ولم تزل « أهرام خوفو » ساخرات
من الحزانى الكادحين
وعلى هشيم صخورها ، لمّا تزل ، حمراء
آثار السياط
وأدمع البؤساء ، والمستضعفين
ولم يزل في السفح، صيادو الذباب
وثورة الجيل الجديد على القديم

★

ويعود فارسها ، يغني ، تحت شرفتها : « حياتي ، شهرزاد !
كحياة باقي الناس كانت ، كالفقاعة في الهواء
حتى حملتِ معي السلاح
سلاح ثورتنا على الشرق القديم
وهدمتِ أسوار الحريم . »

بحمدون (لبنان)

عبدالوهاب البياتي

الى الدعاة ...

حديث في الأدب

بقلم الدكتور بهي الدين زيان

حاولت جاهداً ان اباعد بيني وبين الكتابة في هذا الموضوع، فلم استطع وتملكني احساس قوي بان الكلمة لا بد ان توجه الى هؤلاء الدعاة الآن .. وفي الميدان الذي نهتم به وهو ميدان الادب .. وانا انظر من الامس واليوم، شرقاً وغرباً في حقول مترامية الاطراف، ينبت فيها كثير من الاشجار المورقة، ويظهر فيها كثير من الافراد حول هذه الاشجار، ليصنعوا فيها ما يشتهون او ما يريدون.. وكل يجد في نفسه قدرة، وينشر من حوله مذهباً او يجد في بعض ما يقال ما يوافق في نفسه هوى .. والكل يصيح، والحقول ما تزال ممتدة تأخذ بالبصر وتملأ الفؤاد ..

ان هذا الحديث الذي نجول فيه اليوم، لا ندعى اننا سوف نأتي فيه بجديد، ولكني اجد ان النظر الى ميدان الادب طويلا، والتطلع الى ما فيه طويلا، والوقوف عند ما قيل فيه كثيراً، كل هذا يوضح بعض ما يخفى علينا او على الكثيرين ويضع بعض الامور في وضعها الصحيح .. فهو حقل فسيح، والرأي فيه كثير، والعناية به دأب كثير من اصحاب الاقلام في هذه الايام، ومجلة (الآداب) قد قامت تعلن انها تسعى الى غاية وتهدف الى غرض وتخدم مذهباً في الادب، تناوله اكثر من قلم في اعدادها المتوالية منذ صدورها الى اليوم. ولا علينا الآن من الوقوف عند مذاهب القوم في الأدب ولا عند مدارسه التي ترتقي اليها الاقلام بالبحث او الدراسة — ولكنني أود ان اخطط هذا الحقل في سرعة .. فهو ادب عربي نسج بلغة واحدة هي اللغة العربية منذ ان هيء لبعض هؤلاء العرب ان ينشئوا ادباً في عصور ماضية وقبل الاسلام. وما زال هذا الحقل يتسع حتى عصرنا الحديث، وقد عرفت هذه الآماد الطويلة دعوات في هذا الميدان تتجه الى تقويمه وتقديره وشرحه وبيانه او الى نقده والحديث عن رواده اورجاله في كل عصر، حتى توزع هذا الحقل في بلاد اللغة العربية وفي بلاد تعيش فيها هذه اللغة في الشرق وفي الغرب، في العالم القديم وفي العالم الحديث ..

وكل دعوة وجهت الى هذا الادب في عصوره الطويلة هذه قد ارتبطت بدعوات اخرى ظهرت في الحياة، اجتماعية او ثقافية او فكرية، وعلى قدر ما تعطي الحياة للاحياء من نفاثاتها على قدر ما اصاب الدعوات التي ظهرت في هذا الميدان — فمن الفلسفة نشأت في ميدان الادب اكثر من فكرة او نظرية او مسألة، ومن الاجتماع ظهر كثير من الافكار والآراء، ومن الفن عامة وجدنا اكثر من حديث عن الصلة بين هذا الادب وذاك الفن .. وهكذا ألقت الحياة من بذورها في ميدان الادب آراء وافكاراً ومسائل شغلت اكثر من اديب وملأت نفس اكثر من دارس، ولا تزال تعمل وتؤثر علينا نحن في هذا الجيل وتجد من الدعاة اعواناً على النشر ومن الدعاة اهتماماً بالاشارة .. ومن الدعاة اكثر من نداء ..

فامتلأ الحقل بضروب من الاشجار وبكثير من الافراد، وغدا حقل الادب من الحقول التي نجد فيها اكثر من شجرة، ولكل شجرة ظل، وحول كل ظل اناس ! ودعك من هذا الادب جملة، وانظر الى رجاله والى دعاته اليوم.. وانت تستطيع ان تجد فيهم صاحب الوراثة السلفية وصاحب الوراثة الحاضرة، وصاحب الفكرة المستقبلة، وتجد بين هؤلاء كثيراً من المخدوعين بهذا الرأي او ذاك، الذاهبين في كل مجال .. وهل نعرض عليك اهم مسألة في الموضوع .. قالوا : الأدب فن وهذا حق، وهو فن يقوم في بيئة، وهذا صحيح، ويقوم به فرد، وهذا صحيح وينتج اثراً وهذا صحيح — واظن

يناقش الدكتور بهي الدين زيان في هذا المقال آراء الدعاة الى مذاهب معينة في الادب، ويتناول بصورة خاصة دعوة الدكتور عبد الحميد يونس الى الادب الديموقراطي، واعتناق مجلة « الآداب » الالتزام في الادب.

ويسر هذه المجلة ان تنشر مقال الدكتور زيان لتفسح مجال النقاش في هذه الموضوعات التي هي من حياتنا الادبية في الصميم. وستتولى الرد على الكاتب الكريم، فيما يخص دعوة المجلة، في العدد القادم تاركين الرد، في غير هذه الناحية، لمن يعنيهم الامر.

ان هذه هي اوليات الموضوع ، والاسس التي يقوم عليها كل رأي في هذا الادب سواء عند القدماء ام عند المحدثين ، ولن يختلف انسان في فنية الادب كما انه لن يختلف انسان في اثر الادب .. غير اننا نقدر ان هذه الاوليات كانت معروفه عند المنشئين في كل عصر .. ولن يطمس من معرفتنا بها الا شيء واحد ، هو غلبة النقد الادبي او بعبارة اخرى كثرة الحديث عن الادب . ويخيل الي هنا ان كثرة الآراء حول الشيء قد تأخذ منه بعض حقائقه ، او تضيف اليه كثيراً مما ليس فيه .. فاذا فهم هذا الامر ووضحت هذه الاوليات ، فانك تستطيع ان ترجع بكثير مما يقال عن الادب او اتجاه الادب او ماتريده من الادب الى اساسه الاول الذي يقوم عليه ، وكل حديث يخرج عن هذا الاساس لا فائدة منه في الادب او في تاريخ الادب وإن افاد في غير هذا الميدان ..

قال الدعاة : ان الادب قديم وحديث وعلى القديم العفاء ، فقد كان لقوم مضوا ولعصر انقضى ، ولنا عصر وحياة فيجب ان يكون لنا ادب يحمل اسمنا .. وهذه دعوى. وقال الدعاة : ان الحياة قد تطورت وغدا للادب مدلول آخر غير ما كان لدى القدماء فيجب ان يكون لأدبنا اتجاه آخر .. وهذه دعوى اخرى . وقالوا : ان الادب كان له مفهوم خاص في العصور الماضية ونحن في عصر حديث فيجب ان يكون لادبنا مفهوم آخر ، وهذه دعوى ثالثة . وقال الدعاة : لنترك ادب الطبقات او ادب الارستقراطية لنكتب ادباً ديموقراطياً وهذه دعوى اخرى .. وقالوا كثيراً . وكل داعية تجده في اغلب الامر لا يقوم بدعوته الا على انقاض دعوات اخرى يهدمها ما ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، يهاجم ما يسمى الكلاسيكية ليبني كما يقول واقعية !. ويهاجم المدرسة القديمة لينشيء ادباً لمدرسة جديدة .. ويجرد الماضي من كثير من الصفات ليظهر بصفة جديدة او يخيل انها صفة جديدة ..

ان اكثر هؤلاء الدعاة يفتنون بالدعوة نفسها اكثر من افتتانهم بما تحدثه أو تنتجه ؛ ولهذا وجدنا حولنا في الأدب العربي كثيراً من الدعوات وقليلاً من الطاقات الانتاجية الجديدة ، ولسوء الحظ ان هؤلاء الدعاة قد مثلوا دور المنتجين ووجدنا هذا منذ اكثر من نصف قرن — حين كان النقاد يمثلون دور الادباء في الانتاج . ومعنى هذا واحد من امرين — اما رغبة في النقد واظهار اتجاهات جديدة تخالف ماهو حاصل، واما قصور في التطبيق. وكلا الامرين له نتيجة عكسية في فهم الأدب الموجود حيث يجد المنتجون ان طلبات المشترين اكثر من طاقاتهم أو يجد المشترون ان طبيعة المنتجين لا تفي بما يريدون .

ان كل محاولة لفهم هذا الحقل الادبي يجب في رأيي ان تقدر الفرق بين التاريخ والواقع ، وان ما حسب للتاريخ يجب ألا يحسب على الحاضر .. وإلا لسرنا دائماً ونحن في حاجة الى نقد جديد أو انتاج جديد ، وذلك لأن التطور الأدبي الذي يخضع لناموس الحياة العامة لا يمكن ان يربط في عجلة الماضي حين نقرن بين حاضرنا وماضينا في تقدير هذا التطور — اللهم إلا إذا كان الغرض هو مجرد العرض لبيان مقدار هذا التطور .. ونحن في هذا لا نغالي إذا قلنا ان هذا النقد لا يأتي بشيء جديد حيث نعود فنقول: واين الجديد فيهذا الانتاج الأدبي ؟

ودعاة الأدب يهدفون دائماً الىبيان شيء واحد فيجوهره، وهو ان الادب الذي وجد في العصور الماضية ليس بشيء أو هو قد أنشيء ليخدم شيئاً مضى زمنه وتغير عصره — وهذه هي الجناية الخطيرة على الماضي وعلى الحاضر ؛ وإذا كانت الجناية على الماضي ظاهرة فان هذا الحاضر الذي نهتف له دائماً لا يقوم بنفسه أو من نفسه في هذا الحقل الكبير — وبحسبك ان تعرف ان أداة المعرفة الادبية هي اللغة الادبية التي تحمل هذه المعرفة ثم تصبح أداة للادب بعد ذلك .. والدعاة اليوم ينسون ان ميراث هذه اللغة كلغة لا يمكن التخلي عنه ، وان امكن ان نضع حداً فاصلاً بين تراثنا الادبي في الماضي وتراثنا الادبي في الحاضر ؛ ومن ثمة فان كل دعوة تقوم على اطراح هذا الميراث اللغوي إنما هي دعوة يُغالط فيها وان احيطت بمحسنات أو مرغبات كثيرة .. ومن ذا الذي ينشيء اليوم قصة أو قصيدة أو ملحمة أو قطعة نثرية أو رسالة الى صديق دون ان تكون هذه اللغة بميراثها الخاص اداة ؟ قد ينشئها بلغة اخرى ولكنه في هذه الحالة يستخدم ميراث تلك اللغة ايضاً .. وآفة هذه الدعوة انما تنبع من اصل ظاهر وهو نسيان الاساس الاول فيالأدب باعتبار انه فن يقوم بلغة هي أداته ووسيلته الى البقاء ..

ولك ان تعرض هذا الادب على انه فن في كل عصر من عصوره فستجد ان هناك اسساً اصيلة ثابتة على مر العصور يقوم بها ، وتكون هي عماده الذي يبرز عليه في هذا الحقل الكبير؛ ومهما انحرفت هذه اللغة أو دخلتها عوامل تحويل أو تغيير فهي

تحفظ من اللغة الاصيلة مادتها ومكنونها وطعمها ولونها ان صح هذا التعبير . والادب الذي نما في هذا الحقل الكبير قد مثل كل لون فيه عصره وحمل ما يستطيع ان يحمل من حياة اهل هذا العصر مهما بالغ الدعاة في المحافظة التي يجدونها في صفات هذا الادب ، وأظن انه ما كانت توجد في عصر من العصور مثل هذه المثل المحفوظة التي يعرض فيها هذا الأدب إذا كانت الدراسة المفردة قد اظهرت هؤلاء على خصائص كل ادب أو كل عصر.. فهل وجد الأدب مانعاً يمنعه من التطور في اي عصر نعرفه ؟؟ ان كان قد وجد هذا المانع فقد وجد الطريق الآخر الذي سلكه هذا الأدب ليعبر عن حياة اهله . وفي تاريخنا الطويل نجد هذه الدروب التي تسرب منها الأدب الى منافذ العالم أو الحياة . فأي جناية تكون على أدب هذه اللغة العربية إذا قلنا انه ادب قد جمد أو انه ادب قد تكرر أو انه ادب طبقة خاصة أو انه صار في اتجاه واحد ..

وهل يصح في عرف الدارسين ان يقاس الأدب في خط واحد ؟ وهل فرضت الحياة على الأدب رسما واحداً ؟ وهل يصح ان نصف عصراً من العصور بوصف واحد ؟ ونقف لنعلن ان هذا الأدب قد جمد أو حافظ أو خمل ؟ مع ان منافذ الحياة كثيرة وهي عند الادباء اكثر ، وكيف نعلل قيام الالوان الاخرى أو ظهورها في وسط هذه الأجواء الجامدة أو المحافظة ؟ أليس في ظهور هذه الألوان تأييد لما نقول من ان حياة الأدب في أي عصر من عصوره لم تخمد أو تحافظ أو تنقطع ؟.

قال الدعاة : ان هذا الأدب القديم قد جمد فيجب ان ينطلق ، مع ان هذا الانطلاق كان في القديم اساساً في بعض العصور ومذهباً لدى بعض الادباء ! وقالوا : ان حياتنا قد تغيرت اوضاعها من حيث منزلة اللغة.. وجرَوا في هذه الدعوى اشواطاً بعيدة مع ان هذا الأدب الذي يقال عنه انه قديم قد وجد بجانبه وضع آخر للغة التي استخدمها أداة له ، ومع ذلك سارت الحياة الادبية عامة في انطلاقها وفي تحررها منذ اول الامر وما تزال تسير ومن ذا الذي منح الأدباء في العصور الحديثة من الانطلاق ؟.. او هم لم ينطلقوا فعلا ؟ وهل منع القدماء من هذا الانطلاق؟ ومن الذي يقرر هذا او ينفي ذلك؟ ان التاريخ كثيراً ما يظلم بعض جوانب الحياة، والزمن كثير الغبن للماضي .. فهل تحررنا ما يؤيد دعوانا او ينفي ما ندعي انه لم يكن له وجود ؟!

وقال الدعاة: كان الادب في الماضي ارستقراطياً ونحن في عصر الديموقراطية فيجب ان يكون ديموقراطياً.. وانا شخصياً لو كنت من دعاة الديموقراطية الادبية لما ناديت بهذا النداء لان الادب ليس مطلباً يقرره حزب الاغلبية او الحكومة القائمة بقانون ! ولكني كنت اقول دعوا الطبقات الشعبية تنشىء ما تريد بجانب ما تنشئه الطبقات التي تزعمون انها عليا، ثم دعوا الزمن يحكم بين القديم والحديث او بين الارستقراطية والديموقراطية.

وتسأل بجانب هذا عن الارستقراطية فيقولون انها هي التي فرضت الادب حول الحكام والولاة في كل العصور حتى كان الأديب يعيش عالة على هؤلاء .. وفي هذا اعتراف كبير بان الادباء كانوا هم الطبقات الفقيرة الشعبية التي تخدم رزقها او حياتها عن طريق الادب، ولكنهم يصرون على ان الادب الذي انشأته هذه الطبقات الفقيرة إنما هو أدب رسمي لأنه قد تناول ميادين رسمية او نشأ في جو رسمي .. وتقف هذه الكلمة في نفسي : اي ادب ذلك الذي يوصف بانه رسمي . ادب الفقراء الذين غنوا للاغنياء او الولاة فمدحوهم او وصفوهم او اشادوا باعمالهم ؟ أم هو ادب الدواوين الذي كان يُكتب عن لسان الامراء والولاة؟ اما الاولون فما وجدنا لهم في هذا التاريخ الطويل ما يدل على انهم قد مثلوا الارستقراطية الادبية المزعومة ولم يكن لهم في نشأتهم واظهرهم من غير العرب ، او في حياتهم وقد كانوا اجراء او محترفي اجر ـ ما يتيح لهم هذه الارستقراطية الادبية . ومَن من الشعراء الذين نعرفهم كان في فنه ارستقراطياً او مثل هذا الدور الارستقراطي في فنه ؟ والرسميون الذين ينعتون بهذا الوصف هل كان هذا ميزة لهم ام هو امر قد فرضه الموضوع الذي يتحدثون فيه ؟ ومن منع الادباء في القديم والحديث ان يتحدثوا للرؤساء او الولاة ؟ وفي القديم والحديث يوجد هؤلاء الادباء لأن الحياة هي التي توجدهم وتحتم ظروفها على هؤلاء وهؤلاء ان ينشأ لهم ادب... ادب له لون وصورة وموضوع؛ ومع هذا فانه لون من الادب ومن الفن لن تبخل به الانسانية، كما انها لن تبخل بالادب الذي يتناول هؤلاء الولاة او هؤلاء الحكام !

ألم أقل ان ميدان الادب حقل واسع فيه كثير من الاشجار التي انبتتها الطبيعة وعاش على كل شجرة اناس من الناس ؟... من الذي يمنع المدح فناً او أدبا في أي مجتمع وجد او يوجد

ـ البقية على الصفحة ٧٧ ـ

هنيهة ...

« هدية الى (رفيديا) قرية الظلال الخضراء »

•

من اي ينبوع خفيّ بعيد
يدفق هذا السلام
يدفق في نفسي كلحن سعيد
مفضّض الانغام
هذا السلام المستفيض الطليق
من اين يُفضي إلي ؟
من اين يهمي علي ؟
يحيل روحي جوهراً من نور
معتصراً غبطة كل الدهور

★

هذا الصفاء العذب، هذا الفتون
يغفو بحضن الجبال
هذا المدى يحلو حلم السكون
زمرديّ الظلال
هذا الهدوء الشاعريّ العميق
يغرق روح المكان
يشيع فيه الحنان
ماذا ؟ تُرى الطبيعة الساحره
قد أُلهِمت ان هنا شاعره ؟

★

ناي على البعد خلال السفوح
مسلسلٌ حُلمَـهْ
تردني اصداؤه محض روح
تسمو بـه نغمهْ
تربطه باللاتناهي السحيق
بالعالم الأجملِ
بالمطلق الاكمل
فينتشي من خمرة المبهمْ
مغتبطاً مستغرقاً مفعم

★

هنيهة السلام لا تخطفي
ظلك من حولي
انتظري؛ لا، لا تطيري، قفي
ساكنة الظل
قفي، دعيني وشعوري غريق
في نعسة السكر
ادمجك في شعري

. . . .

مضيتِ ؟
امضي واغرقي في البعيد
فأنت انت الآن هذا النشيد

نابلس

فدوى طوقان

الطريق

قصة جديدة

بقلم الدكتور سهيل إدريس

هل تراها ستأتي ؟ انه يرجو ألا تفعل ، حتى لا تنكأ جراحه . لقد التأمت هذه الجراح منذ اشهر ؛ وهو يحسب ان آثارها قد امّحت الآن ؛ فينبغي ألا تأتي لمياء ، وهو في هذه الحالة من العياء والخور . سيكون مجيئها استغلالاً لضعفه ، سيكون هزيمة له .

ومع ذلك ، فهو يتساءل : لماذا كانت صورتها في ذهنه قبل ان يحدث ما حدث ؟ كانت عيناها آخر ما وعى من مرئيات قبل ان تهوي الهراوة على رأسه . وكان ذلك أقوى منه ؛ لقد اراد ان ينسى حبها ، ولا يشك في انه بلغ من ذلك ما يريد ، ولكنّ عينيها .. لا ، لن ينساهما ، على الرغم من كل شيء ؛ كان لهما بريق عذب يتذوقه بعينيه ، كما يتذوق ظامىء بشفتيه جرعة ماء مثلوج ؛ بريق يستصفي عينيها فتشفان ، ثم إذا هما توشكان ، لفرط شفافيتهما ، ان تمتلئا كل لحظة بالدموع .

ولكن لماذا ؟ لماذا تعود اليه الآن دنيا لمياء بكل الوانها ، بعد ان غارت في نفسه وقلبه ؟ سبعة اشهر مضت على آخر لقاء أيقن إثرها انه قد بريء من ذلك الحب الذي تكشّف له عن خيبة مريرة أترعت نفسه جراحات ؛ وهو واثق من ان عاطفته ليست وهماً او خداعاً ، وليست هي بعد نزوة عابرة : لقد كان حبه اول الامر يقيناً ، ثم طغى عليه الشك وتفاقم حتى قتله . ان لمياء لم تكن الفتاة التي خلقت له .

منذ ثلاثة اعوام ، كانت همّه الاول في الحياة ، كانت غايته منها ، او هكذا كان يخيل اليه . لقد بدأت جذور الحب تمتد في قلبه وتنمو ، منذ ان نجحا في شهادة البكالوريا ، فحسب ان الحياة شاءت ان تدمغها بطابع واحد ؛ ولكن سرعان ما تقلصت هذه الجذور حتى ذابت لتخلق في نفسه يقيناً بان عاطفته إن هي الا حصيلة العشرة الطويلة ، تلك التي تتيحها القربى بين ابناء الاعمام . كانت لمياء ابنة عمه ، وكانت بهذا اقرب الفتيات اليه ، واكثرهن وقوعاً في مدار عينيه ، فلا غرو ان يتفتح للحياة على مرآها ، وان تكون اول من يدخل وجوده .

كان هذا منذ ثلاثة اعوام ؛ ولكن ما أطولها حقبة في حساب شعوره ووجدانه ! اي طفل كان ، واي انسان هو الآن ! وهي ، لمياء ، ما كانت وما اصبحت ؟ انه ليشفق من الجواب ويؤثر ان يظل على صمته . منذ ردح من الزمان طويل وهو يشعر انه خلّفها وراءه في اول الطريق . كذلك كان يتمثل حاله معها منذ نجحا في تلك الشهادة ، كائنان يبدأان السير . ولكن ما اسرع ما تجاوزها في طريق الحياة ! وكان يتجه له ان يلتفت خلفه بين آن وآخر ، فيومىء لها متلهفاً ان تلحق به ، فاذا هي تظل حيث كانت ، كأنما سمرت الى الارض ، أو كأن قوة غير بشرية كانت تدفعه في الطريق فينهبها نهباً . وكان يدرك كل يوم ، اعمق فأعمق ، انه حب يخفق في توسيع افقه ، فيزداد إحساسه ابداً بالاختناق في داخل حدوده ، كان يريد لهذا الحب الامتداد والطموح حتى ليعانق إطاره كل شيء في الحياة . ولكنه كان يرى لمياء أعجز من ان تدفع هذا الحب الى أبعد من الظل الذي كان جسمها يخلّفه على حافة الطريق .

– يجب ان اغير ضماداتك ..

ويقطع عليه صوت الممرضة سلسلة افكاره ، فيعود الى واقعه ، ويحس بألم شديد في رأسه ، كأن نسيانه كان كافياً لعدم الشعور به . وتسأله الممرضة إن كان يشعر بتحسن . فيومىء بعينيه ايجاباً ، وهو مدرك انه يخدعها ويخدع نفسه ، ثم يسألها عن حال رفيقيه في الغرفة المجاورة ، وعما اذا كان بوسعه ان يراهما ، فتجيبه بالنفي وتدعوه إلى التزام الهدوء التام .

ويغمض عينيه ، فتمتلئان بصورة ذلك الحشد الزاخر من رفاقه ، من طلاب وعمال ، متجهين الى دار تلك المفوضية الاجنبية . كانوا قد وقفوا يهتفون بسقوط وزير الخارجية ، ذلك الذي تمثل هذه المفوضية حكومته ، من اجل تصريح حمّله لهجة عداء صريحة للعرب وتودد مكشوف لأعدائهم ، فاذا هم يفاجأون

برجال الشرطة يحيطون بهم ، ثم يقتحمون صفوفهم ، ويعملون هراواتهم فيهم ، فيصاب منهم قليلون ويفر الباقون . وحاول هو ان يقاوم ، فتضافر عليه ثلاثة من رجال الشرطة ، واذا العصي تهوي على مواضع من رأسه وجسمه ؛ ولم يستطع ان يصمد لها طويلاً ، فأغمض عينيه . وقبل ان يتهاوى ، طافت بمخيلته طوفة سريعة صورتها هي ، لمياء ، ثم فقد كل احساس .

وسمع طرقاً خفيفاً على الباب ، فخفق قلبه ، لعلها هي . وظل مسبلاً جفنيه . واقترب وقع الخطى من سريره . وشاء ان يمضي في اغماض عينيه ، ولكنه لم يستطع . ولم تكن هي ، كان شقيقها ، ابن عمه سامي. وبعد ان حياه ، انحنى فوق جبينه فقبّله . وارتعش للمس شفتيه . ان في حضوره نفحة من لمياء . ولكنه سارع فخنق هذه الخاطرة . لم يكن يحب سامي لانه شقيق لمياء . كانت تربطه به رابطة اعمق وأقوى، رابطة تتغلغل في احساسه وتجري في دمه ، رابطة الاحساس القومي الواعي. ومع ذلك ، فان سامي هو الذي ابتعث في نفسه دنيا لمياء من جديد ، ولكن كما تبتعث ذكرى السعادة ذكرى الشقاء . كان سامي عالـماً ، وكانت لمياء عالماً غيره .

إنه ليذكر الآن يوم دعاه سامي الى منزلهم ليحدثه في امر تنظيم مظاهرة عامة بمناسبة ذكرى « وعد بلفور »، وكانت الغاية من هذا اللقاء ان يتعهد كل منهما بتنظيم صفوف رفاقه من الطلاب، فقد كانا ملتحقين بمدرستين مختلفتين. وإذ هما يتحاوران دخلت عليهما لمياء ، فأخذت تستمع الى ما يقولان ، حتى إذا ادركت موضوع حديثهما ، انصرفت عنهما وعلى شفتيها بسمة ساخرة ، وإذ بلغت الباب التفتت اليهما وقالت :

— الا تعتقدان ان هذا سخف تضيعان به وقتكما ؟

فانتفض سامي غضباً ، ونفر اليها وفي عينيه الشر . ولكنه سارع هو فقبض على ذراعه ، ورجاه ان يهدّىء اعصابه ، وحين غادر منزلهم يومـذاك ، لم يدر سبب حركته : أهي عاطفته تجاه لمياء شاءت ان تحول دون ان يصيبها اخوها باذى، ام هو شعورٌ غامض بان لمياء لا تستحق ان يؤبه لها في مثل هذا المضمار ؟ لقد كان يؤذيه دائماً ان يراها لا تكترث بما كانوا يكترثون به من شؤون البلاد ، وتعبّر عن كرهها للسياسة ، وتتبرم بالمجتمع الذي يتحدث عنها . وكثيراً ما كانت تغادر مجلسها إذا خاض القوم في امرٍ يتعلق بسياسة الحكومة تجاه الشعب ، أو بالنفوذ الاجنبي على البلاد ، كأنها لم تكن تدرك معنى ذلك ، او لم يكن هذا يعنيها في شيء .

وكان ما يُمعن في إيذائه انها فتاة تقبل على العلم ، وتنهل من منابع الثقافة ، وانها بعد ان نجحت في شهادة الفلسفة ، التحقت بكلية الحقوق ، بينا اضطر هو الى وقف دراسته والالتحاق بمتجر والده ليعينه في تصريف شؤونه . وكان يسيراً عليه ان يدرك ان صراعاً عنيفاً كان يقوم في نفسه بين حبّه وحسّه القومي . كان يؤلمه ان يرى الفتاة التي يحب عاطلة من هذا الحس . ذلك ما كان يباعد بينه وبينها اكثر فاكثر ، ويخلّي عاطفته من الحميّا التي لا تعيش عاطفةٌ بدونها . كأن في قرارة نفسه املٌ مبهم بان تكون لمياء شريكة حياته يوماً ؛ ولكن هذا الامل كان يبدو له مستحيل التحقيق ما مرت الايام . . كان موقناً بانه محكوم عليه بان ينذر حياته للكفاح من اجل وطنه وبلاده وامته . وما كان ليفهم ان ترافقه في هذه الطريق روحٌ مغلقة لا تهتزّ لما يهتز له ولا تستجيب لشواغله وهمومه . على انه كان شديد الاهتمام بالا ينبّه لمياء الى شيء من ذلك ، لايمانه بانه لا خير في روح لا تستيقظ من تلقاء نفسها على مثل هذا الحسّ . ولكنه خلا يوماً بلمياء في شرفة منزلهم ، فشعر بان حبّه لها يومذاك كان مستدقاً رهيفاً ؛ وبدلاً من ان يكون في ذلك تبرير لاغفال ما كان يشكوه من لمياء ، كان فيه دعوة ملحة لاثارته . كأنّ مشاعره وَحدةٌ لا يضعف منها جانب على حساب جانب ، ولا يقوم إحساس منها مقام إحساس . وإذن، فانه لم يجد يومذاك بداً من ان ينبهها بطريقة خفية الى هذه الثغرة في حياتها . وما اشدّ ما آلمه رَجْعُ ذلك في نفسها ! لقد استخفّ بها الغضب سريعاً ، فاذا هي تنفر منه ، وتبدأ في الادلال بدرجتها من الثقافة ، وتشعره بانه في ذلك دونها . ثم انتهت الى القول بهزؤ :

— لقد تركنا لكم انتم الرجال امر الاهتمام بالبلاد وانقاذها !

وحاول كثيراً ان يُلجم ثورته ويضبط اعصابه ، ولكنها امعنت فى السخرية وظلّت تُدلّ بعلمها عليه ، فلم يتمالك نفسه طويلاً ، وإذا هو ينفجر فيؤنبها وينعى عليها موت وجدانها ، ثم ينقلب فيسخر بها وبالفتيات اللواتى يقضين وقتهنّ كله فى قراءة الروايات الغرامية وارتياد دور السينما والاهتمام بشؤون التجمّل امام المرايا . . ورآها بعد ذلك تغادر الشرفة الى داخل المنزل وتخلفه وحده ، فنهض والارتعاش يهزّ جسده وخرج من البيت يكاد لا يتبيّن طريقه . . وادرك ذلك اليوم انه قد فقد

لمياء ، وانه لا خير له في ان يلقاها بعد ، فان سبيله في الحياة تجانب سبيلها ابداً .

— كنت اودّ ان اجلب لك معي صحف اليوم ، فكلها قد استنكرت تدخل رجال الشرطة في المظاهرة ، ولابدّ ان ..

لقد كاد ينسى حقاً وجود سامي الى قربه ، والتفت اليه يستمع الى حديثه. وظل ينظر الى عيني سامي وشفتيه . ما أشد شبهه بها ؛ هي لمياء ! إنه كاد ينسى قسمات وجهها . سبعة اشهر مضت . بلى ، لقد قصد بيت عمه مرات عديدة ، ولكنه كان ينتهز الفرصة التي تقصد فيها لمياء كليتها ليتفادى من لقائها . وما كان ذووها يدركون من امر خصامها شيئاً . ومرة واحدة فقط ، سأله سامي لماذا انقطع عن زيارتهم، وقال ان لمياء ابدت استغرابها ، فتصنّع عدم الاهتمام وتعلل بكثرة الأعمال . سبعة اشهر يشعر الآن في نهايتها ان جراح قلبه قد التأمت ، وهو من اجل هذا يرجو ...

— ارى انك متعب يا عزيزي ، ولن اطيل مكوثي بعد . سآتيك غداً وارجو ان تكون صحتك قد تحسنت .

ونهض ابن عمه يصافحه ، فاحتفظ بيده وهمّ ان يقول له شيئاً لم يكن يدري ما هو، ولكن سامي اومأ اليه ان يظلّ صامتاً ، وغادره وهو يبتسم له بحنان .

ونام ليلته الاولى تلك وهو يشعر بضيق شديد ، لا يدري أهو من المٍ في رأسه ، ام من احساسٍ بالفراغ في قلب جفّت فيه العروق .

★

وأفاق صباح اليوم التالي على المٍ ثقيل في رأسه ، فكأنه يحمل اعباء مرهقة . كان الوخز يشتدّ في جميع انحاء رأسه ؛ وحتى عيناه غشيتهما غشاوة رقيقة لم يكن يتبيّن معها اشكال الاشياء بوضوح . وحاول ان يتحرك في سريره ، فأعجزه ذلك وثقل رأسه وثقل ، ثم ادركته الغيبوبة .

وحين فتح عينيه مرة اخرى ، رأى الطبيب والممرضة إزاءه ، تطل من خلفهما عينان جازعتان . عينان صافيتان يعرفهما . واسبل جفنيه . انها هي . كان يودّ لو انها لم تأت . ومع ذلك ، فكان موقناً انها ستأتي . وظلّ مغمضاً عينيه لحظة طويلة ، وسمع وقع اقدام تبتعد ، فخشي ان تكون على وشك الخروج ، ونظر ، فاذا هي منحنية فوقه ، وقد خرج الطبيب والممرضة ، وفي عينيها سؤال لهفة وخوف . وتمتمت باسمه مرتعشاً . وسمعها تقول بعد هنيهة :

— اوصاني الطبيب ألا امكث طويلاً عندك . انت بأشد الحاجة الى الراحة . اسمح لي الآن ان اخرج .

وامسكت بيده ، فشد على يدها ، وسرعان ما انحنت ولامست بشفتيها ظاهر كفه ؛ وحين واجهته بعينيها من جديد لم يدر أكانت فيهما حقاً دموع ، ام انه فرط الشفافية . وشعر بحرارة يدها تسري في كفه ، ثم سمعها تتمتم « سامحني .. سامحني .. » وانفلتت على عجل ، فخرجت من الغرفة .

★

وحين خرج من المستشفى ، بعد ثلاثة عشر يوماً ، كان في ضميره سؤال واحد : ماذا دهى لمياء ؟ لقد حالت دنيا من غموض ، وعبثاً حاول ان يستكنه سرّها او يسبر غورها . ولقد زارته اربع مرات ، وكانت تحمل معها كل مرة باقة من الزهور ، فتضعها في الوعاء ، وتجلس على مقربة من سريره ، وعلى شفتيها بسمة حزينة ، وفي عينيها صمت مبهم ؛ بل كانت كثيراً ما تصرف بصرها عنه حين تلحظ انه يرنو اليها . كأنها كانت تشعر بالخجل من النظر اليه . وسألها أسئلة كثيرة عن شؤون حياتها ودراستها ، فاجتزأت باجوبة يسيرة موجزة ، وكانت ترجوه ألا يكثر من الكلام نزولاً عند رغبة الطبيب . ولكنها انقطعت عن زيارته يوم أعلمه الطبيب ان بوسعه ان يغادر المستشفى متى شاء ، فآثر ان يبقى ثلاثة ايام أخرى يستجمع فيها قواه الضائعة .

وكان اول ما طرحه على سامي ، حين اقبل يزوره في البيت ، سؤال عن لمياء . فاذا بسمة غامضة تجول على شفتي ابن عمه ، وإذا هو يقول ان لمياء بخير وانها سألته عنه غير مرة . ولم يقنع بهذا الكلام ، فألحّ على سامي يسأله سبب بسمته . ومال عليه ابن عمه يقول :

— انها منذ ثلاثة ايام منهمكة بعمل رجتني ألا أُطلعك عليه !

وادرك من هذه العبارة ان بودّ سامي ان يكشف له ما كانت لمياء تحرص على اخفائه . وعلم ان ابنة عمه انصرفت بعد آخر زيارة له في المستشفى الى تنظيم حملة مع عدد من رفاقها ورفيقاتها لجمع الملابس من البيوت من اجل توزيعها على اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب .

★

قال له سامي وهو يومىء بيده الى خيمة كبيرة تجمّع عندها حشدٌ من الناس :

— اعتقد انهم هناك .



ربما مسّحت جرحي ، وجراح الاصدقاء
في غدٍ كالحلم ، ملتف المنى
ربما صفقت الشمس ، غـدأ ، للسعداء
ونشيدٌ ، لفّ ارجاء الدنى

قد أراني ، في غد ، أجري على صدر الحقول
انشد الشعر ، لشعبي ، ورفاقي
آه ، لو يكحل اجفاني غدي ، آهٌ تطولْ
لو أغني غدنا ، آن التلاقي

ربما قهقهتُ ، في رأد النهار المستنيرْ
معْ رفاقي ، في الغد الحلو البديع
ساخراً ملء فمي ، من أمسنا الوغد النكّير
من ضريح ، طيّه الماضي الوجيع

*

ربما فتّحت عينيّ ، عـلى ذاك النهارْ
وعلى طفل خلي الصدر ، بكرْ
في غد ، قد يكشف الحب ، لعيني الستار
عن جباه كرفيف الدفء سمْرِ

*

قد أراني ، في غد ، ما زلت أحيا ، وأغني
فوق ارض ، دفنت احزان شعبي ،
فوق ارض ، كالهوى ، كالهدب سمحاً ، كالتمني
ربما عشتُ ، واخواني ، وحبي

*

هل أراني ، وأخي الانسان ، في صبح الحياة ؟
هل نشمّ الورد ، والخبز ، غدا ؟
ربما نفّضتُ ، عن قلبي ، جراحاً داميات
لو يسير الشوط بي ، حتى المدى

حمص **نصوح فاخوري**

ومضيا يهبطان المنحدر بسرعة . وشعر هو ببعض التعب ، ولكنه لم يشأ ان يشكو امره الى سامي . فقد نصحه ابن عمه ان يعدل عن هذا السفر خشيةً على جروح رأسه التي لم يمض على التئامها الا ايام قليلة ، ولكنه اصرّ ، فكست شفتي سامي بسمةٌ لا تخلو من خبث ، واستقلا السيارة في الصباح الباكر .

واقتربا من الخيمة الصاخبة ، وسمعا اصوات النساء تطلب نصيبها من الملابس . ورأى بعض الشبان من رفاق ابن عمه ينظرون اليهما قادميْن نحوهم ، فيصيح احدهم مرحباً بهما . ويبحث هو بين هذا الحشد الزاخر حتى رآها ، هي .

كانت منحنية على كيس كبير تخرج منه بعض الملابس ، وتسلمها الى امرأة عجوز كانت واقفة الى قربها .

ودنا منها دون ان ينبس بحرف ؛ ورآها تلتفت اليه التفاتة سريعة ، ثم تعود الى عملها كأنها لم تعرفه ، وما تلبث ان تلتفت مرة اخرى ، على مهل ، والاحمرار يصبغ وجنتيها ، ثم تتمتم :

— أهذا انت ؟.. كدت لا اعرفك بهذه القبعة !

قال لها وهو يبتسم : — وانا ايضاً .. كدت لا اعرفك .. بين هؤلاء المساكين !

فرأى وجهها يزداد احمراراً ، ورأى عينيها ترنوان اليه ، وفيها ذلك البريق العذب الذي كان يتذوّقه بعينيه كما يتذوق ظامىء بشفتيه جرعة ماء مثلوج . ولكن هاتين العينين امتلأتا بالدموع حقاً ؛ وانطبعت على شفتي لمياء بسمة حزينة ، وقالت له وهي تحزم الكيس الكبير الذي كان بين يديها :

— ارجوك الا تزيدني خجلاً بنفسي . لقد شعرت بأني فتاة لا قيمة لها حين رأيتك تتألم في سريرك من الجراح التي اصبت بها ..

فجعل يربت على كتفها ويدعوها للصمت ، ولكنها قالت :

— أحمد الله على ان هـذه الجراح علمتني الدرس الذي لم تعلمني اياه الكتب .

وأمسك بذراعها فأنهضها ، فراعه جمال وجهها وقد سال عليه العرق ولحقه الغبار وتشعّث شعرها فبدا عليها الاجهاد . وقالت له وهي تشفق من ان ترفع بصرها اليه :

— اتعاهدني على الا تتخلى عني بعد الآن ؟ ألاّ تتركني وحدي في الطريق ؟

— لم اتركك يا لمياء ، وانما انت التي تخلفت .. أما الآن فسنسير معاً ، جنباً الى جنب .

وصمت هنيهة ثم ردد ، وهو ينظر الى البعيد ، كأنما يستشرف وطناً حبيباً يعي حدوده الكبرى :

— نعم .. يجب ان نسير معاً ، جنباً الى جنب .

وتأبط ذراعها ومضى بها يبحث عن سامي .

سهيل ادريس


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجموع الحيز والفضاء واسع وبسيط سعة وبساطة لا شبيه لهما ، مناقضاً بذلك ضجة عمل الريشة وادنى التفاصيل ، خالقاً عالماً تاماً في حيزه الاوليّ من الطبقات المتراكمة . إن اوسع مساحة واثبتها هي أبعدها : السماء المستطيلة ذات الزرقة الداكنة التي تجتاز اللوحة كلها . وليس ثمة من زرقة إلا هنا ، وحتى الاشباع التام . ويأتي بعد ذلك ، من حيث الكمية : اصفر حقل القمح الذي هو مؤلف من مثلثين مقلوبين ، ثم احمر الطرق القاني – ثلاث مرات ، ثم أخضر العشب على هذه الطرق – اربع مرات (او خمسا اذا حسبنا الرقعة الدقيقة الى اليمين) . واخيراً في تجمّع كثيف ، اسود الغربان التي تقترب . وان كل لون من الوان اللوحة مستعمل عدداً من المرات متناسبا عكسيا مع مدى المساحات وثباتها . فكأن الفنان يعد : اولاً : الوحدة والسعة والقرار الاخير والسماء الصافية ؛ ثانيا الاصفر المكمل للكتل التوائم المنقسمة وغير الثابتة وللقمح الذي ينمو ؛ ثالثا احمر الطرق المفترقة التي لا تفضي الى اي مكان ، رابعا الاخضر المكمل لحفافي هذه الطرق المغطاة بالعشب ، واما النموّ اللامتناهي للغربان المتعرجة فيمثل صورة الموت البعيد .

إن شأن الفنان في هذا العد شأن رجل مصاب بآلام مرض عصبي يعدّ ويحسب ليتعلق تعلقا شديداً بالاشياء وليجابه العنف ، وهكذا يكتشف ڤان غوغ ، وهو في ذروة ضيقه ، نسقاً حسابياً للالوان والاشكال يتيح له ان يقاوم التفسخ والانحلال .

جاء في الرسالة التي اشرت اليها منذ حين ، والتي كتبها ڤان غوغ الى اخيه يتحدث فيها عن آخر لوحاته « إنها مسافات شاسعة من القمح تحت سماوات مدلهمة بالغيوم .. ولم يصعب علي ان اعبر فيها عن الحزن والوحدة العميقة . »

ولكن مما يثير دهشتنا العظيمة انه يردف قائلًا : « آمل ان ترىَ ذلك عما قليل .. ان هذه اللوحات ستقول لك ما لا استطيع ان اعبر عنه بالكلام ، ما وجدته شافياً ومؤاسياً في القرية » .

فكيف يمكن للوحة كبيرة من التبرّم والحزن والوحدة العميقة ان تبدو له « شافية ومؤاسية » ؟

وفي رسالة ثانية يصف فيها لوحة تمثل حقلاً آخر من القمح مع شمس وخطوط متلاقية ، يؤكد ان هذه اللوحة تعبّر عن « سكون وأمن كبير » ، ومع ذلك فان هذه اللوحة ، على ما يقول هو نفسه ، مرسومة « بخطوط هاربة ، وأثلام صاعدة الى اعلى على القماش » وتمثل ايضاً مراكز تتنافس فيما بينها وتتطلب توتراً للعين عظيماً . فان مثل هذه الخطوط تعني ، في نظر فنان آخر القلق وشدة الاهتياج .

إن في هذا التناقض بين اللوحة والانفعال الذي يستولي على ڤان غوغ وهو يشاهد المشهد او الشيء ، ظاهرتين مختلفتين : الاولى تكثيف الالوان والخطوط الذي يجبر عليه ، اياً كان موضوعه ، فاذا العناصر التي تبدو له في الطبيعة هادئة ساكنة منظمة تصبح غير ثابتة حين يرسمها ، وتغدو ضحية اهتياج عنيف ومن جهة اخرى ، يبدو ان هذا العنف العاطفي غير موجود بعد في الأثر الناجز ، حتى ولو اعترف به في المنظر .

واياً ما كان ، فان رسائل ڤان غوغ تكشف عن ان وصفه المتناقض لـ « حقل القمح » ليس هو اثراً من ضعف طارىء أو اختلاط ؛ وانما تكشف في الواقع عن ردّ فعل يتكرر غير مرة . فإن ڤان غوغ حين يرسم موضوعاً مقلقاً او محزناً قويّ الانفعال ، يشعر بالتفريج والراحة . واذ ينتهي من عمله يستشعر امنا وسلاما وصحة ، وهكذا يكون الرسم تطهيراً حقيقياً . فبعد زوابع العاطفة يأتي الاحساس بالنظام والاطمئنان .

اجل ! ان في منتهى الانفعال هذا الذي يبلغه ڤان غوغ حين يرسم حقل القمح والسماء ، شيئاً قوياً وشافياً . فان لعمل الرسام في نظره مهمة البناء من جديد ، وهو يعي هذه المهمة . وهو يعتقد منذ ردح من الزمن ، ان الرسم وحده هو الذي يحول بينه وبين الجنون . وقد شعر مرة بان ازمة تقترب . فكتب يقول « انني ماض كالمحرّك السريع الى الرسم » وكان يسمي فنّه « شارياً* ضد المرض » ويوصف ڤان غوغ إجمالاً بانه كمجنون ملهم تعزى طاقته الخلاّقة الى حالة نفسية شقية ؛ والواقع انه كان هو نفسه يقرّ هذا الوصف . ولكنه كان يرى في الوقت نفسه انه ليس مجنوناً بالرغم من انه معرّض للازمات « بوسعي ان احكم باني لست مجنوناً بكل معنى الكلمة . فسترون ان لوحاتي التي رسمتها في اوقات الصفاء هي كسائر اللوحات بساطة » . ومهما قيل عن العلاقة بين موهبته الفنية ونزاعاته النفسية ، فمما لا شك فيه ان الرسم في نظره عمل فكري رفيع يتيح له اتّقاء الانهيار الذي كان يدنو . فقد كان يعرف ، على حدّ قوله ، « ما كان يريد معرفة جيدة » . ويلاحظ الفيلسوف والطبيب النفسي جاسبر في كتاب وضعه عن كبار الفنانين

(*) الشاري : حربة توضع في اعلى البناء وقاء له من الصواعق

المصابين بالشيزوفرانيا (جنون العظمة) ان مما يميّز ڤان غوغ « موقفه المتكبّر تجاه المرض » والملاحظة الدائمة التي يخضع لها نفسه ، وجهده في المراقبة . وكان الرسام يتمنى اكثر من سواه ان يفهم حالته النفسية، وكان يراقب بوعي نادر تصرفاته ومسلكه ليتنبأ بالازمات ويتخذ لها الحيطة ، الى ان يذهب به يأسه .

ولئن كان ڤان غوغ ينتزع من صراعه النفسي الطاقة والعاطفة القوية التي تطبع آثاره ، فان من مزاياه كذلك تلك المقاومة التي عرف ان يواجه بها الانحلال. ومن اعظم مزاياه تعلقه بالشيء الذي يرسمه وواقعيته الشخصية . ولا اقصد بذلك «الواقعية» في المعنى المحدود وغير المرغوب فيه الذي يتلبسها اليوم ، حيث يُوصف ڤان غوغ بانه « مصور » — وإنما الشعور بان الحقيقة الخارجية هي موضوع رغبة او ضرورة قديرة ؛ فان هذه الحقيقة الخارجية وسيلة امتلاك وطريقة للرجل الذي يصارع لأن يتمم نفسه ، فهي تشكل اذن الاساس الضروري للفن . لقد كان « الشيء » في نظر ڤان غوغ رمز الصحة الفكرية وضمانتها . وهو يتحدث في احدى رسائله عن «المظهر العائلي والمألوف والمطمئن للاشياء»، وفي رسالة اخرى : « احب شخصيا الاشياء التي هي واقعية ، الاشياء التي هي ممكنة » ، والشخصية هي نفسها شيء ، لأن ڤان غوغ ممتليء حباً للكائن الانساني الذي هو مادة منفصلة عنه ولكنه نسخة اخرى عن نفسه ، فهو قادر اذن على ان يرسم نفسه وان يرسم الآخرين ، كأشياء كاملة تؤكد نفسها ، وان يستشعر بهذه اللوحات صلابة هذه الاشياء وحضورها الاكيد ، وان يمتلكها بكلمة واحدة . ومن اجل هذا نراه قادراً، في وجه السماء الكئيبة وحقل القمح ، وبينما تقترب الغربان ، على ان يرسم فضلاً عن هذه الكآبة وتلك الوحدة الصحة والقوة اللتين يمكن للواقع وحده ان يمنحه اياهما .

إن واقع زماننا وحده هو القادر على منح فن الانسان ورضاه ارضهما . ولكن ڤان غوغ نفسه لا يستطيع ان يقيم على هذه الارض التي تقتضي الايمان بنظام اجتماعي كان يلمس ظلمه وقسوته وتشويشه المتزايد . والحق ان « الواقع » كان يعني في نظر فناني ذلك العهد، الضغط والهدم ولا شيء سواهما . ولكن ڤان غوغ كان يرفض ان يتحول الى عالم داخلي من الرؤى العجيبة كان يمكن ان يعزّيه ، لأنه كان مدركاً ان هذا الحل يعني بالنسبة له الجنون حتما. وقد انجذب في بعض الأحيان الى الرؤى الدينية ، ولكنه جعل يحاربها على انها مفسدة وفاسدة ؛ وكان اخلاصه الذي يقتضيه دائماً ان يكون اميناً للتجربة المباشرة يمنعه من ان يخترع اللوحات الدينية .

ان في فن ڤان غوغ امتداداً داخلياً وثيق الاتصال لحالته النفسية ولحل مشاكله الذاتية حتى يبدو أنه يستمد « الرمزية » ، و « التعبيرية » من اعماق شخصه ، مستقلاً كل الاستقلال عن كل ما يحدث حوله . ومع ذلك ، فقد ظل حتى النهاية شديد الامانة لعالم الاشياء ، وفقاً لقسم اقسمه في بدء دروسه . وان اللوحات الاخيرة التي رسمها في اخريات ايامه ، بالرغم مما تظهر عليه من غرابة، هي من اعمق لوحاته،من حيث رؤيتها للأشياء ولواقعها.

وحين يتعلق الـ « أنا » الذي يلامس الانهيار ، هذا التعلق الشديد بالاشياء ، فاننا نلاحظ ان حرص ڤان غوغ على الاشياء — في رد فعله الدفاعي — ليس حرصاً جامداً او حرصاً يحركه فقط هم التصوير الفوتوغرافي ، وانما هو يمثل رسالة بناءة ويتصل بجذور انفعالية عميقة جداً . لقد كان الفنان ، اذا ما حلّ في بلد ما ، يرسم كل شيء يراه لينفذ نفاذاً كاملاً الى وسطه وبيئته ، بعكس الانطباعيين الذين لا يعطوننا إلا حساً هزيلاً جداً بالاشياء والاشخاص . كان بحاجة الى الموضوعية ، كما كان سواه بحاجة الى الله او الملائكة او الاشكال الصافية . فان الوجوه الصديقة ، والاشياء التي لا قضايا لها والتي كان يراها حوله ، والزهور والطرق ، وأحذيته وكرسيه وغليونه وأوائل طاولته، كلها اشياؤه الخاصة التي تأتي امامه وتحدثه . انها امتدادات لشخصه . وهي تمثل القيم والشروط الضرورية لصحته الفكرية . وهو يقول في ذلك « إن الحس بالاشياء نفسها هو اهم من الحس التصويري ، او هو على الاقل اخصب منه واشد حيوية . »

ولا يصعب بعدُ على الفهم لماذا كان ڤان غوغ يسمي الرسم التصوّري « تجريداً » بالرغم من ان هذا الرسم يمثّل اشكال الحياة ، ولماذا كان « حقل القمح » من جهة اخرى ، بالرغم من كل ما في تأليفه من تجريد ، يمثّل بصدق مليء بالتبرّم، منظراً عرفه الفنان بالتجربة المباشرة . ولكن هذه اللوحة تسجّل فترة ازمة تتأكد فيها دفعات متعارضة غريبة عن الواقع وتعبّر عن حمّى العاطفة العنيفة. وإن السماء التي لا نهاية لها لتبدو لنا كصورة عن « الكل » الكبير وتستجيب لرغبة هستيرية في الغرق وفي فقدان « الأنا » في المدى . والواقع ان في مساحة هذه اللوحة غير الطبيعية انهياراً للارادة ، كما ان العمق الذي لا نهاية له تحوّل الى مساحة محض تتجاوز نظر الفرد وتنتهي بابتلاعه واستغراقه .

ايتها العروبة ...

رددي نغمة العلى والخلود   في ديار الاسراء ارض الجدود
رددي في ذرى الفخار نشيداً   ان لحن الفخار فخر النشيد
رددي للبقاء لحن الاماني   انت أولى الشادين بالتغريد
جددي نغمة لقد طالما سر   نا على وقعها لفتح جديد
وانثري اجمل الزهور على تر   ب فلسطين ساحة التوحيد
وافخري إذ بنوك فيها تواصوا   ان يضنوا بعزك المعهود
اقسموا لا ترى فلسطين ذلاً   او تكونَ الاشلاء ملءَ البيد
ايه يا راية العروبة ضمي   شملنا تنقذيه من تبديد
قد سئمنا مهازلاً موحشات   كم اقرت سهامها في الوريد
ويئسنا وربما أعقب اليأ   سَ رجاءٌ يزيل حر الكبود

★

هز يا شعر بالنداء شعوباً   رضيت بارتداء ثوب الجمود
وانتعش يا حماس فينا دواماً   وأعد تالداً زهاً كالورود
من هم تلكم الجموع التي سا   لت دماها وانتم في ركود ؟
وهمُ قلة دعتهم الى المج   د دواعي الايمان والتمجيد
عزمات تنيل اسنى الاماني   وثبات يفلّ صلب الحديد
قلة في الهدى تفوق لدى الحـ   رب جيوشاً تعج ملء النجود
فئة الحق شأنها السبق دوماً   وفئات الضلال في تبديد

★

يارسول الهدى أجر قدسك السا   مي وأنقذ مسراك من تهديدِ
آذنا الغم فاغتدينا حيارى   ورمانا الأسى بيأس كؤود
فلكم في ديار مسراك بؤس   وشهيد يروح اثر شهيد
خرقت حرمة البراق وريعت   بجيوش من كل عات مريد
واستحالت ارض السلام مياد   ين حروب بين الهدى واليهود
ايه صبراً ارض السلام فلا بدّ   لصرح الفخار من تشييد
لن تكوني ضحية الظلم الا   ان ترى العرب غيبت في اللحود
اهدئي فالاسود حولك تشتدّ   زئيراً، ظمآنة للورود
ان غيظ النفوس يزداد يوماً   بعد يوم ينبي بهولٍ شديد

★

امنحينا يا روح احمد عوناً   واكلأينا بنصرك الموعودِ
امنحينا صبراً جميلاً فقد كد   نا نرى اليأس في الخطوب السود
ارسلي من شعاع نصرك برقاً   نيراً في طريقنا للنجود
بشريات يلوح لمع سناها   باتحاد العرب الاباة الصيد
املٌ افعم الفؤاد بقرب النصر   يزهو بخافقات البنود

ام نزار الملائكة

ما يقرره علم النفس

مكانة المرأة في المجتمع

بقلم يوسف الشاروني

ما تزال المرأة* – في منتصف القرن العشرين بعد الميلاد – تعاني من آثار تاريخ استعبادها الطويل أهم شيء يتعلق بجوهر انوثتها ، وهو حق التصرف في جسدها . فبعض نساء الغرب وأكثرية نساء الشرق تتحكم فيهن ظروف المجتمع الاقتصادية او العقليات الاقطاعية . فمن المسموح به للمرأة في مجتمعنا ان تعتبر –او يعتبر ذووها– جسدها رأس مال يمكنها ان تستغله عن طريق بغاء او زواج طيب او في حياتها الاجتماعية العامة . وبذلك لا يكون الفرق بين البغاء والزواج في كثير من الاحيان سوى ان البغي تأخذ اجرها من عدة رجال وعلى عدة مرات ، والمتزوجة تأخذه مرة واحدة من رجل واحد ، ولو ان مسألتها لا تقف عند هذا الحد لأنها كثيراً ما تلجأ الى الزنا لاشباع رغباتها التي أبى ان يحققها لها ما يحيطها من ظروف. وبهذا يصبح الزواج في كثير من الأحيان عملية تجارية كالبغاء سواء بسواء . ذلك لأن الحب وحده هو الذي يقرر اخلاقية العلاقة بين المرأة والرجل ، الحب القائم على اسس من التفاهم العقلي والعاطفي والجسدي . ولا يتم هذا إلا باستقلال المرأة اقتصادياً .

أما البغاء نفسه فقد تطور في مجتمعنا حتى اصبح احدى وسائل كسب العيش، شأنه في ذلك شأن بيع البيض والدجاج والسيارات. وسببه وجود الفقر بين كلا الجنسين ، ولهذا تضطر بعض الفتيات الى ان يلجأن الى هذه الحرفة ليأكلن بعرق أجسادهن ، ويلجأ اليهن الشباب من الجنس الآخر لأنها وسيلة للاشباع الجنسي اقل نفقة من الزواج وما يستتبعه الزواج من تكاليف . وتقف الطبقة الوسطى في مجتمعنا موقف الغاضب المتباكي على الأخلاق لأن هذه الحرفة تعطل فرص الزواج على فتياتها العانسات .

ورغم إننا –فيما يبدو– قد أتحنا الفرص لكثير من النساء في العصر الحاضر، فأصبحن يتعلمن مثلما يتعلم الرجل ، واصبحن يشتغلن في كثير من البلاد مثلما يشتغل الرجل ، بل ان بعضهن قد تفوقن فعلاً في بعض ميادين العلوم والسياسة والأدب ، فان ظهور هؤلاء كان ظهوراً محدوداً لا يتفق وهذه الفرص الواسعة التي حصلت عليها المرأة . وهنا نقول ان مجرد تصورنا بان المشاركة في العلوم والمخترعات والآداب هو وحده العبقرية إنما هو تصور خلقه الرجل لأن هذه هي ميادينه ، ولو تأملنا مهمة المرأة الرئيسية في الحياة والتي اعدتها لها الطبيعة لوجدنا ان عملية حمل الطفل وولادته ورضاعته وتربيته وتنشئته تنشئة صالحة والعناية به وحمايته من اخطار الموت التي يتعرض لها في هذه الطفولة المبكرة ، لا تقل ابداً في العبقرية عن اي عمل علمي او ادبي . ولكن امور الولادة والطفولة ليست من مهام الرجل فهي لا تدخل إذن في قاموس العبقرية الذي ألّفه الرجل . والواقع ان المرأة التي تستطيع ان تكون اليوم زوجاً وأماً وطبيبة وعضواً في البرلمان في وقت واحد لتستدعي انتباهنا اكثر مما يستدعيه عالم او اديب كبير . ودليلنا على ذلك اننا كثيراً ما نجد امثال هؤلاء العلماء او الادباء يمتنعون عن الزواج بدعوى التفرغ لأعمالهم ، ويعلنون انهم يكتفون بما يتبنونه من اعمال علمية او ادبية ، فما بالنا إذا كنا امام امرأة متزوجة ذات اطفال ورغم ذلك فهي تتفوق في عالم الادب والعلم ؟ إذن فلنترك التصور الذي خلقه الرجل عن العبقرية ولنعترف بان في مهمة المرأة من العبقرية ما في مهمة الرجل تماماً .

ومن ناحية اخرى نجد ان الحرية المعطاة للمرأة اليوم ما تزال ناقصة، ان لم تكن مصطنعة في كثير من الاحيان، لان مجتمعنا ما يزال في اساسه مجتمعاً يقوده ويوجهه الرجال. والمرأة العانس في حضارتنا تظل شبه خادمة في منزل والدها أو اخيها أو اختها المتزوجة ولا تصبح سيدة بيتها إلا إذا قبلت سيادة رجل عليها . ورغم فتح ابواب العمل المختلفة امام المرأة ، فلا تزال تعتبر الزواج – كوظيفة رئيسية – هو « أشرف » وضع لها . ويملأ الوالدان رأس ابنتها بفكرة الزواج حتى لترى

(*) راجع « الآداب » العدد الثامن ، تاريخ اول آب .

ان كل شيء في حياتها - فيما عدا الزواج - شيء عرض ، فلا تحاول التخصص والتفوق في دراساتها ، وان التحقت بعمل اعتبرته شيئاً موقوتاً في حياتها بل نظرت اليه احياناً نظرتها الى سخرة منكرة تتطلع الى يوم الخلاص منه وهو يوم الزواج ؛ فالعصر الحاضر يجبر النساء على العمل ثم يلوح لهن بجنة يرين فيها فقط التعبير عن دورهن النسائي الذي لم يمارسن غيره لعصور طويلة خلت . ان الحماية الاقتصادية التي يشمل بها الرجل المرأة ومركزه الاجتماعي ، ومركز المرأة المتزوجة المحترم، والاجور القليلة التي تأخذها ووضعها المحتقر كعانس ، كل ذلك يدفعها الى البحث عن الزوج كسيد لا كزميل ، ولا يستثنى من ذلك إلا عدد قليل قاوم بعبقريتهن تقاليد البيئة . ولهذا فهناك الآن نضال مستمر من جانب الرجل للاحتفاظ بما كان له من سلطان، يقابله تمرد من جانب المرأة لتشبث الرجل بهذه السيطرة ولما كان الجنسان مختلطين ببعضهما اشد الاختلاط فمن السهل ان ندرك كيف ان هذه المشادة الدائمة تؤدي الى شذوذ نفسي بل واضطراب جنسي مما يزعج الجميع .

وليس من الضروري ان يكون فهم الطفل لهذه العلاقات فهماً عميقاً ، ولكن لا بد لنا من الاعتراف بان حياته العاطفية تتأثر بذلك الى حد بعيد . فالطفل يغضب إذا طلبت منه ان يرتدي ملابس فتاة ، بينما العكس لا يُحدث نفس هذا الاثر . ودخول الوالد وخروجه الغامضان يثيران اهتمام الطفل اكثر مما يثيره مكوث الام الدائم في البيت ، وسرعان ما يدرك الطفل الدور الرئيسي الذي يقوم به الوالد ، وهو دور يبدو فيه دائماً بمظهر القائد . فالجميع يطيعون اوامره وأمه تسأله النصيحة ، وحتى في حالة عدم وجود هذا الوضع فان الاطفال تتكون لديهم فكرة عن سيطرة الوالد لان حمل الاسرة يبدو ملقى على عاتقه . وكثيراً ما تهدد الام طفلها قائلة « حين يأتي ابوك سأخبره بما فعلت » فمثل هذه المرأة تعطي طفلها فكرة عن ضعفها هي وسيطرة رجلها . وتسمع الفتاة دائماً انها أقل من الأولاد ، فليس من العجيب اذن ان تؤمن ايماناً خالصاً بنقصها بل العجيب ألا تفعل ذلك ، وهكذا تفقد الثقة من نفسها ولا يعود لديها امل في القيام بعمل له اهمية في الحياة .

وقد برهنت اختبارات الذكاء على ان فريقاً معيناً من الفتيات تختلف اعمارهن مابين الرابعة عشرة والثامنة عشرة كانت موهبتهن ومقدرتهن أوضح مما لدى الفريق الاخرى ، ومن بينها فرق الاولاد . ودلّت البحوث فيما بعد على ان هؤلاء الفتيات كن من اسر فيها الام هي التي تكتسب وحدها العيش أو تشارك على الاقل بنصيب كبير فيه . ومعنى هذا ان هؤلاء الفتيات كن في وضع منزلي خال من الاعتقاد بعجز المرأة . فقد كان باستطاعتهن ان يرين كيف ان عمل الام له جزاؤه المادي الواضح ، ونتيجة لهذا نشأن انفسهن في حرية اكثر واستقلال اكثر . وفي اختبارات اخرى تبيّن ان الاولاد يظهرون مواهبهم في دروس معينة كالحساب ، بينما اظهرت الفتيات موهبة اكثر في دروس اخرى كاللغات . وتفسير ذلك ان كلا الفريقين يُظهر موهبة اعظم في الدروس التي يعلم افراده انها ستؤهلهم للحياة فيما بعد .

ومعنى ذلك اننا يجب ان لا نأخذ النتائج الحالية لنستدل على ضعف أحد الجنسين عقلياً عن الآخر ، فاذا اتينا بطفل وظللنا نوحي له بانه كسلان وغبي ولا يستطيع ان يفعل شيئاً ثم امتحناه فوجدناه راسباً ، فان السبب لا يرجع اليه بل الينا نحن الذين أوحينا بضعفه ونقصه . وما اسهل ان تفقد الفتاة ثقتها في نفسها في مجتمعنا . إنما علينا ان ننشىء الجميع تنشئة صالحة واحدة منذ الطفولة ، ثم نراقب النتائج فيما بعد ، وهذا ما لم يحدث في كثير من بقاع الارض إلا في نطاق ضيق .

تقول السيدة « اديث سمر سكيل » وزيرة التأمين البريطانية في وزارة العمال البريطانية السابقة في حديث لها لمندوبة إحدى المجلات المصرية اثناء زيارتها لمصر : « ان الرجال ليسوا انانيين بحال من الاحوال ، ولكنكن تدللوهم كثيراً ، فاعتادوا ان يكونوا « المحور » الوحيد لحياتكن . ولست ألومهم ، فالرجل يميل بطبعه الى التدليل ، وواجب المرأة ان توفيه حقه من هذه الناحية ، لكن هذا لا يمنعها من خدمة بلادها . ولا ننس ان المجتمعات القوية لا تتأتى ما لم تشترك المرأة في كل جهود الرجل . وفي عنق المرأة امانة اخرى تضمن صلاحية الاجيال القادمة ، وهي ان تربي اولادها ذكوراً وإناثاً على العدالة التامة ، والمساواة المطلقة ، فلا يصح مثلًا ان تقوم الفتاة بعمل بيتي ولا يقوم الصبي بنفس العمل لان اشتراكهما في الواجبات المنزلية والاجتماعية يعلمها ألا فارق بين الرجل والمرأة . . اذا كان لكن اولاد ذكور فافعلن معهم هكذا تخدمن قضية بلادكن خدمة جليلة . وقد حققتُ ذلك ولمستُ بالتجربة فوائده الجمة ، فقد عوّدتُ ابني من الصغر على القيام بكل

فصول..

كان ذا ليلة صيف ..

*

ليس غير الليل يدري سِرَّنا ..
يدري أننا ...
ها هنا ..
سَبَّحَ الكونُ باسمنا ..
ومشى الليلُ بنا ..
موهنا ..
موهنا ..
وافترقنا .. كي أراها بعد حين ..
ها هنا ..

*

ومضى الليل .. وجاء ..
وتوالى .. في ابتداءٍ .. وانتهاء ..
لَمْ تعُدْ .. مَنْ هَمَسَتْ ذات مساء ..
« إلى اللقاء » ..
وخبَتْ شُعلةُ المصيف ..
وآذَنَ الصيفُ بالخسوف ..
قلتُ : قد تأتي ..
إذا يأتي الخريف ..

*

وأتى الخريف ..
قلتُ : ألقاها .. وفي الصدر لهيف ..
إنْ تَكُنْ تَذْبُلُ أوراقُ الخريف ..
فلَها مِنْ خفْقِهِ .. خيْرُ رفيف ..
ولَها مِنْ حُبِّهِ .. ظلٌّ وريف ..
ومضى الخريفُ ..
بلا رجاءْ ..
قلتُ : قد تأتي ..
إذا يأتيَ الشتاءْ ..

*

وأتى الشتاءْ ..
قلتُ : ألقاها .. على مَتْنِ الضّياءْ ..
عندما تَخْطُرُ في الأفقِ .. ذُكاء ..
زَفّها الصُّبْحُ لاحْضانِ الفضاء ..
مُعْلِناً .. في رَكْبِها عُرْسَ السّماء ..
ومضى الشتاءُ ..
بلا رجوعْ ..
قلتُ : قد تأتي ..
إذا يأتي الربيع ..

*

وأتى الربيع ..
قلتُ : ألقاها .. على دربٍ خليعْ ..
تتعانقُ الأزهارُ فيه .. والفروع ..
في الربيع ..
تَصحو المشاعر .. في الضلوع ..
وتفرح الشمس بالطلوع ..
وتصدح الطير في الربوع ..
ويحلم العطر بالذبوع ..
ويرفل النّبل في القلوع ..
ويسهر الليلُ .. في الشموع ..
في الربيع ..
ما أحوج القلب الولوع ..
للسميع ..
في الربيع ..
ومضى الربيع ..

*

كان ذا ليلة صيف ..

القاهرة **محمد محمود عماد**

الاعمال التي تقوم بها اخته ، وعندما كنا في بعض الظروف نفتقر الى الخدم ، كان يغسل ثيابه وصحونه بنفسه ، وكان ينظف غرفته ويرتب فراشه . ولم تسيء تربيتي الى رجولته ، بل علمته الاعتماد على النفس وزادت شخصيته قوة » .

ولما سألتها المندوبة عن اقوى العوامل في تحرير المرأة ، اجابت باسمة : « انه الاستقلال الاقتصادي ، فاعتماد النساء على الرجال في طعامهن وكسائهن يحرمهن الاحساس بالمساواة ، ويعطي الرجل سلطات واسعة على المرأة ، ولا يصح ان تعيش النساء عالة على ازواجهن او آبائهن او اهلهن وإلا اصبحن عبئاً ثقيلاً في مثل هذه الظروف الاقتصادية العسرة التي تسود العالم .. يجب ان يكون للمرأة دخل خاص يحميها شر تقلبات الزمن ، ويمكنها من المساهمة في رفاهية الاسرة ، ويُشعرها انها انسان كريم له مكانته واستقلاله ، ولا تنسى ان هناك عاملاً نفسياً آخر ، فالرجل إذا عرف بقدرة زوجه على إعالة نفسها والاستغناء عنه ازداد قرباً منها وتشبثاً بها » . ونحن نضيف قائلين : ويكف عن معاملتها معاملة السيد لخادمه ليعاملها معاملة الزميل لزميله حيث ستساويه ثقافة واهتماماً بنفس الامور التي تستتبع كل من يقوم بعمل خارجي .

ويقول الاستاذ ابراهيم المصري في كتابه « مدرسة الحب

والزواج » بان الزعم بان تحرر الفتاة بواسطة العمل وزوال الفوارق الاجتماعية بين الجنسين واختلاطهما في شتى ميادين الحياة إنما يجرد الفتاة من جمالها ويخمد عاطفة الحب ويقضي في النهاية على نظام الزواج هو زعم ينكره الواقع . فاتصال الفتاة بالرجل في محيط العمل يولد بينهما ضرباً من الصداقة الصريحة ، ويتيح للفتاة فهم الشاب وتقديره إذا استحق التقدير كما يدفع الشاب الى احترامها . ثم ان العمل يُكسب الفتاة إحساساً عميقاً بالكرامة والعزة ، فتُقبل على الزواج مختارة لا مكرهة ، وتحاول ان تبني حياتها الزوجية على الحب لا على المصلحة وعلى التفاهم المشترك لا على المال ، ما دامت تشعر انها لم تضطر الى الزواج اضطراراً ، وانها اختارته بمحض إرادتها ، وانها ليست عبدة للرجل او سلعة ، وفي مقدورها — اذا تركت العمل — ان تعود اليه إذا حلت بها كارثة او اذا قدِّر لها ألا تحقق في الاسرة ذلك التفاهم الخلقي والعاطفي المنشود فلا تصبح عالة على ابيها او اخيها او اهل زوجها هي واطفالها. ان الفتاة التي تعمل تشعر بغريزتها انها يجب آخر الامر ان تتزوج ، وانها لو تهاونت في الحرص على اخلاقها وحيائها وعفافها فقد يكون من المستحيل عليها ان تجد رجلاً يحبها ويقدرها ويرضى الزواج بها .

ان هؤلاء الذين يقسمون الناس الى قسمين : عالم المرأة وعالم الرجل ، ويجعلون السيطرة للواحد على الآخر ، هم بعينهم الذين يقسمون الناس الى اجناس ويجعلون السيطرة لاحدها ، وهم الذين يقسمون الناس الى طبقات ويجعلون السيطرة لاحدها ، فهي عقلية تفكر بنفس النمط في جميع الحالات .

يقول رفاعه بك الطهطاوي « وليمكن للمرأة عند اقتضاء الضرورة ان تقوم بالاشغال والاعمال التي يقوم بها الرجال . فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء وافتعال الاقاويل . فالعمل يصون المرأة مما لا يليق ويقرّبها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء . »

ان تحرير المرأة يهم الرجل بقدر ما يهم المرأة ، لان الرجل الذي يطالب بهذه الحرية يحس ان سعادته لا تتحقق إلا مع المرأة المحررة ، شأنه في ذلك شأن الرجعي الذي يحس ان سعادته لا تتحقق إلا مع المرأة المستعبدة . نعم ان الرجل الذي يطالب بتحرير المرأة يحس ان سعادته لا تتحقق إلا بهذه الحرية، سعادته العقلية والعاطفية بل والجنسية . وإذا كان يختار اصدقاءه على اساس الاتفاق في المشارب والاتجاهات فأولى به ان يحقق ذلك مع الانسان الذي سيشاركه ليله ونهاره ، رغم ما يكلفه ذلك من مشقة في مجتمعنا الشرقي حيث للنساء توجيه منفصل عن توجيه الرجال ، وحيث ما تزال الهوة قائمة بين الجنسين ، وحيث ثمة اغراء شديد بان يظل الرجل الرأس وان تظل المرأة الجسد .

ونحن لا نأمل من وراء هذه الكلمات ان تتحرر المرأة أو ان تكون لها فرص متكافئة مع الرجل ، بل اننا نعلم ان طبيعة الاشياء ستؤدي حتما الى ذلك ، إنما نحن لا نعكس إلا تطوراً حادثاً بالفعل ، ولا نحاول إلا ان نقوم بعملية وعي دافعة مبيّنين طبائع الاشياء وضروراتها لان الحرية هي معرفة الضرورة والخضوع لها * .

القاهرة **يوسف الشاروني**

(*) هذا البحث والبحث الذي سبقه مجرد توجيه للمشكلة، اما من شاء الاطلاع والتوسع في الموضوع فهناك مراجع كثيرة نثبت هنا تلك التي اطلعنا عليها مع العلم بأن كل مرجع من هذه المراجع به مجموعة اخرى من الكتب التي يشير اليها وهكذا .

John Langdon Davis : A short history of Women

ويعرض للمشكلة من الوجهة التاريخية ، العامة ، وهو موجود في مجموعة Thinker's Library

J. Engels : The origin of the family and the individual property

ويعرض للمشكلة من وجهة النظر الاشتراكية وهو عن اصل الماني وله ترجمات الى مختلف اللغات .

Simone de Beauvoir : Le deuxième sexe

وهو في جزئين : الاول يعرض المشكلة موضوعياً ، والثاني يعرضها من وجهة النظر الوجودية ، فمؤلفته زوجة جان بول سارتر .

اما من ناحية علم النفس فهناك كتب كثيرة اهمها :

Helene Deutsch : Psychology of woman

وهو في جزئين : الاول يتعلق بالفتاة ، والثاني بالمرأة . وقد وعدت المؤلفة في المقدمة انها تنوي اخراج جزء ثالث تخصصه لوضع المرأة الاجتماعي ولكنه حتى الآن لم يظهر على ما أعلم .

كما يمكن قراءة فصل في كتاب لألفرد أدلر بعنوان Sex من كتابه Understanding human nature وفصل آخر بعنوان المرأة في كتاب Introductory lectures on Psycho - Analysis لسيجموند فرويد وقد ترجم هذا الفصل الى العربية مع مقدمة في كتاب مستقل بعنوان « سيكولوجية المرأة » الدكتور محمد مختار صدقي .

كذلك يمكن قراءة الفصل الثامن من كتاب : Oswald Schwarz The psychology of sex وهو في مجموعة Pellican رقم A. 194

اما في عالم الادب فقد خصصت فرجينيا وولف كتابين من امتع كتبها لهذا الموضوع وهما : Virginia Woolfe : Arrom of one's own و Three Guineas والكتاب الاخير يبحث في علاقة مشكلة المرأة بمشكلة السلام العالمي .

الاشياء الصغيرة

قصة جديدة

بقلم سميرة عزام

هل ذهبت بعيداً ؟؟

لا تدري ، ولا تريد أن تدري بالضبط ! كل ما تريده هو ان تعيش في هذا الاحساس ، وان تستبقي طويلاً هذه المشاعر الحلوة ، ان تأخذ معها إلى محارتها شيئاً جديداً مختلفاً ! فكل شيء في وجودها يبدو قزماً امام هذا الاحساس حتى ابوها وامها وعمتها ومعلماتها !

ليذهبوا الى ابليس جميعاً !

ما ازهدها في ساعتها بمواعظهم ! ستسمعها بعد الآن في صبح ومساء وكلما اختلفت الى مكان او تخطرت في درب ، فتبتسم برثاء وتتفلسف بهزة رأس وتنكر اذناها وقلبها ونفسها ما تسمع حتى لتسخر من قيمها القديمة .

هؤلاء لا يفهمون ، اما هي فقد بدأت تفهم ! ولن تتأذى بعد من مزاح تنالها به الرفيقات اذ يقلن ، انت يا هذه حمقاء تعيش بعقلية ابيها وامها وعمتها العانس !

حقاً لقد كانتهم ، ثلاثتهم ، ولكنها الآن انسانة متجددة الاحساس ، وستبني وجودها بعد اليوم ، بحسها ، بارادتها ، لا بقولهم — ابيها وامها وعمتها العانس — لا تكوني كالأخريات الرعناوات فأنت غير اولئك اصلاً ونبتاً ، انت ، وانت ..

في الغد ستجتمع رفيقات الدرس عند السنديانة المنخوبة ، ويتحدثن في اشياء كثيرة وستمتد الايدي في حذر إلى الجيوب فتخرج بالرسائل المعطرة فتتفتح لها عيون الصبايا وقبلها قلوبهن .. وللمرة الاولى سيكون لها ما تقوله اذا شاءت ان تقول ، فلديها منه حكايا حكايا . وحتى لو صمتت — ولا يبعد ان يقعد بها الخجل فتصمت — فلن يكون صمتها صمت المقصر بل صمت الضنين ،وهي — لنفسها — ستحكي الحكاية بدقائقها الصغيرة التي تعيها جيداً ، فلطالما استعادتها كلما القت الى مخدتها رأساً او قبعت تحلم في زاوية الحافلة او سرحت في الدرس فلا تسمع منه إلا صوت الجرس .. وتلك صورته قريبة ، تستدعيها كلما أرخت جفناً فتوافيها مختلطة اولاً ثم تتضح وتتميز ، وتتبين جيداً الجبهة الملوحة السمراء والعين البنية الداكنة والابتسامة التي هي أحلى ما في الوجه .

بودها لو يمر بها ساعة تكون معهن في حلقة الشجون فتصيح ولا حرج « إنه » !

ما اكبره في وجودها ! ولكن ما يعني رفيقاتها منه الا فضولهن في ان يعرفن هذا الواحد الذي جعل من العنيدة المكابرة التي كانتها انثى سخيفة مثلهن !

وما عساهن قائلات لو عرفن ان عنادها قد تزحزح منذ طالعها الوجه الاسمر للمرة الاولى في السيارة العامة ؟

سيضحكن منها بلا شك ، وسيدركن انها مثلهن انسانة تحس ، وتتدله ! ألم يسمينها اللوح ؟ وكانت تشيح بكبرياء وتتعزى بقول امها وابيها وعمتها بانها ليست كالأخريات لانها نسيج مختلف وعنصر احسن صفاء ، ومثلها تكون الفتيات .

ما كان أحمقها !!

كانت المرة الاولى في سيارة الاجرة .

دخل وجلس الى جانبها ولم يلتفت اليها ، ولكنها رأت صورته في المرآة المثبتة امام السائق ، فأحبت لون شعره وشكل شفته السفلى ! ونزل هو من السيارة قبلها وذهبت هي الى الكلية ونسيت وجهه ..

وكانت الثانية في احد محال بيع المرطبات .. ظمئت مرة فدخلت بكتبها تطلب شيئاً ، وكان هناك ، ولم تلتفت اليه . وشربت شرابها ودفعت للبائع بالثمن يقتطعه من ورقة نقد كبيرة ، فاعتذر بعدم وجود «الفكة» ، فاتجهت للفتى تستبدل الورقة ثم دفعت ثمن الشراب ! واعجبها انه لم يتطوع ليدفع الثمن عنها كما يفعل غيره من الرقعاء !

والمرة الثالثة كانت في دار الكتب قصدتها لتقرأ فصولاً مقررة من العقد الفريد فوجدته مكباً على كتاب (لعله مثلها من طلبة الآداب) وانصرفت الى كتابها ولما رفعت رأسها ضبطته يحدق الى وجهها . فلم تبتسم له .. ولكن سرها ذلك منه .

وكانت الرابعة والخامسة والعاشرة في دار الكتب ايضاً ، على غير موعد . وكانت قد انتهت من العقد الفريد .. ولكنها ظلت تذهب لتقرأ في العقد الفريد . وكانت تذهب في كل مرة وفي نفسها شوق لأن تراه هناك ! فما ان تدخل وتطمئن الى وجود رأسه فوق الكتاب حتى تتنفس بارتياح وتخف خطوتها

وهي تأخذ سبيلها الى مكانها المختار .

ولم تنس مرة انها ليست كالأخريات وانها كما تقول امهـا وابوها وعمتها العانس ، نسيج خاص ، فكانت تحييه تحية رزينة ثم تنصرف الى الكتاب انصرافاً قلقاً ، وتقرأ فلا تفهم في يسر وتنتفض بعصبية ثم تنظر إلى الوجـه الاسمر القريب نظرة مسروقة .

ورأته مرة يتململ ويغلق كتابه فنهضت وسارعت تسلم الكتاب الى قيّم المكتبة لتسبقه إلى الدرج ، ثم سمعت خطوه وراءهـا واحست به قربها وابتسم لها ونزلا السلم معاً واتجها معاً ايضاً الى الحافلة واستأذنها في الجلوس إلى جوارها وأصر على ان يدفع ثمن تذكرتها فعارضت ،ثم اسكتتها ابتسامة منه فيهابعض سخرية .. وفي الطريق عرف منها اسمها واسم المعهد الذي تنتسب اليه كما عرفت منه اسمه، وعرفت ايضاً انه لم يكن طالباً كما توقعت ..

ولقد احبت اسمه ..

كما سرّها ألا يكون طالباً .. غراً ..

ولما افترقا .. احست ببعض قلق .. شعرت بانها جاملته اكثر من اللازم ، وخشيت ان تكون بعض عيون فضولية قد رأتها معه ولكنها في اعماقها استكانت إلى شعور غريب ..

وكثيراً ما رأته بعدها على غير موعد .. وكانت مؤمنة بان الصدفة وحدها هي صاحبة الدور .. فما هي بالخفيفة ، ولا هو من الطائشين .. فالتعمدُ هنا شيء تستبعده من الحساب..

وقفت مرة الى كوة التذاكر في إحـدى دور العرض وابتاعت تذكرة ولما استدارت رأته خلفها ينتظر دوره فخفض لها رأسه في تحية ، وسارعت هي بالدخول واخذت مكانها قلقة مضطربة بعض الشيء ، وما لبث ان جاء وجلس في المقعـد المجاور .. وراحت تفكر في هذه الحركة .. هل تعمّدها امهي الصدفة .. الصدفة المحض التي باتت من جانبها تؤمن انها احكمُ من ان تكون صدفاً وقد تكررت .. إذن لم يحاول هـذا الانسان ان يلاحقها ويهتم بها ؟ ان كان يفعل هـذا عن قصد وتدبر ،فستصده في حزم وتلزمه حدوده،فهي ليست كالاخريات.. وهي غيرهن نبتاً ونشأة . . وهي ذات مبادىء ما ارخصتهـا قط .. وهذه امور تنكرها عليها تربيتها وابوها وامها وعمتها..

وهي .. وهي،وتجاهلته فلم ترفع له عيناً ولكنها لم تملك إلا ان يغوصَ قلبها حين نهض الى بعض امره،وما لبث ان عاد ببعض الحلوى وقدّم لها فاعتذرت ولم يقل لها شيئاً.. وابتسم ابتسامة تشرق على قسماته السمراء ، واكلها — اللئيم — وحده !!

وبدأ العرض وتزاحمت الصور فأعطتها عيناً بـلا فكر إذ شُغلت عنها بهذا الذي الى جانبها .. لم جاء..وما يريد منها.. لم لا يحاول ان يبدأها بالحديث .. تراها كانت فظة قليلة حظ من الذوق حين اعتذرت عن حلواه ؟ . ما اسخفها ! وماذا لو اكلت وقد قبلت منه مرة ان يدفع ثمن تذكرة الحافلة ؟ . انهما متعارفان تماماً.او لاتعتبر تلك الجلسات في جو رزين تعبق منه رائحة الكتب كافية لان تطمئن الى صحبة هـذا الفنى المهذب اللطيف ؟ .

اي شعور يثار فيها كلما كان منها قريباً . . اهو قلق . . اهو اضطراب .. اهو انتشاء..اهو سرور او غضب..او هي كلها .. مجتمعة ؟ ؟

واحست بعينيه رغم العتمة تحملقان في وجهها،فخفق قلبها في عنف وماعادت تتبين من الشاشة إلا ظلالاً..اي وقح هذا! . لو تمادى فستصرخ فيه « و . . احست بيده تقترب من يدها ، واصابعه تسعى مشتاقة الى اصابعها.. فلم تسحبها. احست بها

تتسمر الى المتكأ .. ومسح ببطن يده ظاهر يدها مسحاً رفيقاً ثم اخذ يدها بقبضته وشدّ عليها شداً عنيفاً، ولبثا هكذا الى ان أضيئت القاعة .. وغاظها ان تأتي النهاية سريعـــة هكذا .. فتخجل من نفسها وتزدري ضعفها .. وتنصرف دون ان تنظر الى وجهه ..

وفي تلك الليلة انكرت مخدتُها رأسها القلق ..

هل احبته ؟ ؟

لم يسبق لها ان احبت فأنى لمثلها ان تعرف إذا كانت هذه الهواجس حباً ؟ لو سألت إحدى صديقاتها المجربات فستحسن التشخيصَ وتستمرىء الافاضة .. ولكن لا .. ان الضعف لم يُؤثر عنها ولا تريد ان يفهم الناس أنها كالاخريات .. ذاتُ حماقات .. لو صدقت روايات الحب فهو ذا بحلاوته وقلقه يلم بها ليلا ونهاراً ، ويستأثر بتفكيرها فتنسى مَن حولها إلا حين تطالعها الوجوه .. وتدعى الى الطعام فلا تصيب منه إلا القليل اليسير .. وتخلو الى الكتاب فلا ترى غير صورته .. وتزهد في شؤونها المختلفة وكانت قبلا بها حفيّة .. فهي إذن كالبطلات .. بطلات الافلام والروايات، ولو اختلف بطلها عن اولئك الذين تظهرنا السينما على حكاياتهم ، فلهؤلاء فراهةٌ في اجسامهم ودقةٌ في ملامحهم ليست لفتاها .. فلو جلست قبلا ، فلحياتها بعد ان عرفته حدّان قبلُ وبعد — لو جلست قبلا واطلقت خيالها كما تفعل كل فتاة وتمثلت صورة لفتى احلامها لتمنت له عينين اكثر سعة وانفاً احسن دقة ولاختارت له ذقناً ذات ثنية ولما شاءته ممعناً في سمرة وجهه هكذا ..

ولكن باي حق تعتبره فتاها .. أقال هو ذلك لهـــا . ؟ أتراه ينظر الى هذه الاشياء الصغيرة بنفس العين التي تبصرهـا بها ؟ ؟ ولو تعقلت واطرحت اوهامها لما بدا من ذلك كله شيء ذو خطر. اي غرابة في ان يحادثها فتى أو يشتري لها مرة تذكرة وكثيرون غيره يفعلون هذا راضين لو سمحت ؟ . ومـــاذا لو مست يده يدها في لحظة ضعف ؟ . لا ، هذا وهم سمحت له بان يأخذ من نفسها اكثر ممـا يستحق فتضخم وضاقت به وضاق قلبها الصغير وأسمت المارد الذي خلقته .. حبا .

وعزمت بينها وبين نفسها ألا تفسح له في قلبها ونفسها، وان تشيح عنه شأن الفاضلات من الفتيات .. وإلا فأي فرق بينها وبين اية رعناء ؟

واستراحت الى عزم ما لبث ان تهاوى .. حين رأته بعد ايامٍ .. في الشارع وثار فيها احساسها العنيف حين اقبل وعلى شفتيه احلى ابتساماته يحييها ويدعوها حفيا الى فنجان شاي .. فارتبكت وحارت فيما تقول ولكنها وجدت نفسها مسوقـــة بارادته تأخذ مكانها في المقهى الهادىء الجميل لتجد امامها فنجان شاي لم تعرف له طعماً .. ولا شك انها ما فتحت فمها في تلك الجلسة إلا لتقول اشياء سخيفة تقطع بها حبل الصمت وتصرفُ بها عيني الفتى عن عينيها !

وانتهيـا من شرب الشاي وقاما .. لا الى الشارع الذي يؤدي بهما الى دنيا الناس ، بل الى آخر يستقيم وينعطف حتى ينتهي بهما الى فضاء وسارا .. لا صوت ولا نأمة إلا وقـــع اقدامهما على الحشائش، يده في يدها وفي قلبها احاسيس تضطرم وودت لو يعود بها ولكنها لم تطاب اليه ذلك .. وكأنما قرأ ما يجول في فكرها وأحس بما يصطرع في قلبها فجذبها اليه وقال لا تخافيني فأنا احبك ..

ولم تقل شيئاً .. ما كان بوسعها ان تقول شيئاً . كانت شفتاه على شفتيها دافئتين .. رفيقتين .

هل ذهبت بعيداً ؟ .

لا تدري ، ولا تريد ان تدري .. كل ما تعقله وتعيـــه وتشعره ، احساسٌ بالحياة جديد .. قد ولد فيها الساعة ...

سميره عزام

البعث الافريقي

افريقيا .. افريقيا .. استيقظي .. استيقظي من حلمك الاسود !
قد طالما نمت .. ألم تسأمي ؟ ألم تملي قدم السيد ؟
قد طالما استلقيت تحت الدجى مجهدة .. في كوخك المجهد
مصفرة الاشواق .. معتوهة تبني بكفيها ظلام الغد ..
جوعانة تمضغ ايامها كحارس المقبرة المقعد ..
عريانة الماضي بلا عزة تتوج الآتي .. ولا سؤدد

★

افريقيا .. افريقيا .. استيقظي استيقظي من ذاتك المظلمه
كم دارت الارض حواليك كم دارت شموس الفلك المضرمه
وشيد الناقم ما هدمه وحقر العابد ما عظمه
وأنت لا زلت كما انت .. كالجمجمة الملقاة .. كالجمجمه ..
وانت لا زلت كما انت تصغين لاقدارك مستسلمه ..
واعجبا .. ألم تفجر شرايينك سخرياتهم يا أمه ؟؟

★

افريقيا .. افريقيا .. استيقظي استيقظي من ذاتك القابعه
أكل ما عندك ان تصبحي مزرعة للأرجل الزارعه ؟
أكل ما عندك ان ترقدي خاملة .. خائرة .. خانعه ؟
أكل ما عندك ان تلعقي أحذية المستعمر اللامعه ؟
أكل ما عندك أن تضحكي هازئة بالقيم الرائعه ؟
أكل ما عندك ان تصدري قوافل الرقيق .. يا ضائعه !

★

افريقيا .. افريقيا النائيه يا وطني .. يا ارض اجداديه
إني اناديك .. ألم تسمعي صراخ آلامي واحقاديه
إني اناديك انادي دمي فيك .. انادي امتي العاريه
إني انادي الأوجه الباليه والأعين الراكدة الكابيه
فويك ان لم تحضني صرختي زاحفة من ظلمة الهاويه
عاصفة بالابيض المعتدي عليك .. يا افريقيا الغاليه

★

لتنتفض جثة تاريخنا ولينتصب تمثال احقادنا
آن لهذا الاسود المنزوي المتواري عن عيون السنا
آن له ان يتحدى الورى آن له ان يتحدى الفنا
فلتنحن الشمس لهاماتنا ولتخشع الارض لأصواتنا
إنا سنكسوها بأفراحنا كما كسوناها بأحزاننا
اجل .. فإنا قد اتى دورنا افريقيا .. إنا اتى دورنا

الاسكندرية

محمد مفتاح الفيتوري



[« نيسان » اسم فتاة عاشت في دمي، مدة من الزمن في تاريخ الزمن ، ودنيا لا تنتهي في دنيا الكلمة . وقد صنعت لها تمثالاً ، وحجري بعض حروف على فمي، وازميلي ريشتي تأكل من اصابعي ...]

مطحنة

تعالي ، لقد كان عندنا على النهر مطحنة ، فنجمع حجارتها العتيقة ، ونعمّرها بصخرتين ودولاب .

*

وندعس في الماء حافيين .

وندعو الينا الفلاحين والرعاة فيسهرون معنا . فالفلاح عندنا يساوي عشرة ملوك ، والراعي الف كاهن ، والسكة خير من التيجان ، والشبّابة أحلى من الناقوس .

*

وينير علينا شمعدان من قصب . وتعطيني شعرك فيكون مخدّتي ! وننام وشفتاي على شفتيك ، وينام معنا فراشتان او ثلاث ، ويدخل علينا من النافذة ضوء القمر .

*

نيسان ، هيّا معي في ضوء القمر .

وبساقية من لجين ، وبزنّار زمرّد ، وبحجرين عتيقين ، وبدرج اخضر ، تعالي نعمّر مطحنة .

رسالة

كلمتان او ثلاث من العطر ، تحملها فراشة بجراب مقصّب على ظهرها الملوّن .

*

انها امل يذيع في بيتنا : فغداً أزرار الورد ، تمزّق أكمامها وتمدّ ألسنتها بين شفاهها الخضراء .

*

ولقد جمعتُ حروفها من الأبراد المطرّزة عندنا ، ومن المزهريّة ، ومن علبة التبغ ذات الزنّار الذهبي والرائحة المسكرة ، ومن قناني النبيذ ، ومن دقدقة الأيدي اللطيفة على بابنا ، ومن شهقة اختي التي تعدو عارية وتقول : ها قد أتانا زوّار ، بعض البنات الحمراوات الشفاه .

ولن يعرف بها احد ، غير فتاة لها اصابع معوجّة ، وشفة سمراء .

وانها قبضة حروف من عطر ، جمعتها من عينيّ ، ومن شفتيّ ، ومن شعري ، ومن قميصي الحرير .

أغنيـــة

يا بنات القرية ، يا بنات القرية ، سأعطي أحلاكنّ فسطاني الأحمر ، وسأخرج في الليل عارية . اما اذا رآني القمر الذي يراقب من شبّاكه بنات الليل ، فاني سأنشر شعري حول جسدي ، واختبي خلف جُبّ سنديان .

*

يا بنات النهر ، يا بنات النهر ، سأخلع على احلاكنّ خواتمي واساوري ، وسأمضي على الضفّة عارية ، فقد أحبني حبيبي عارية . اما اذا رآني احد الفتيان ، فاني سأركض الى المطحنة ، واختبي خلف دولابها ، فتأتي الفراشات وتقف خلسة على صدري المرتجف .

*

يا بنات الغابة ، يا بنات الغابة ، سأهب أحلاكن صندلي الأخضر ، وسأشرد بين العمدان حافية . امـا اذا رآني الناطور الأسمر ، فاني سأطلع الى شجرة واختبي فيها ، فتمدّ الأغصان اصابعها الى لحمي .

*

يا بنات الريف ، يا بنات الريف، سأهدي الى احلاكنّ شالي المدعوك . وسأدور تحت اشجاركن ، فيأتي حبيبي حافياً ، وينثر الأزهار على شعري ، ويغمرني ، ويقصّ لي حكاية الراعي الذي لفّ عروسه بعباءته ، وخطفها من بيت ابيها عند ولوج السحر .

في سقفي القصب

تنظرين إليّ بمقلتيك العميقتين ، فتكاد تحترق عيناي وأشمّ رائحة النور والبخور .

*

وتصنع عيناكِ سلالَ القصب ، وآنية الحبق ! وتحملان السماء ، وتزرعان البيادر ، عيناكِ .

ما اجملها سراجين معلقين في سقفي القصب ! وشبّاكين نُجّرا بالخشب العطري !

*

يا للضحكتين من الفضة ! ! وترويان على الدرب قصة

آفاق الشعر

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

ألوان الشعر هي اصلاً ألوان الشعور، سواء أكان بسيطاً ام مركّباً . وكما ان ألوان الشعور لا اعداد لها ولا حدود ، فكذلك ألوان الشعر . والشعر المطبوع في لفظه ومعناه وموسيقاه وفيما يخلقه حوله من أخيلة وخواطر وحدة منسجمة . انه كائن فني حي ، والكائن الفني الحي لا يشرَّح . يُقرأ او يُسمع ويُستوعب فتحس النفس اثره وبقدر هذا الاحساس تكون استجابتها لذلك الشعر ولصاحبه. ومن ثمّ كان تنوع الاذواق وتنوع الاحكام . فالشعر كفن جميل ليس مسألة علمية مقررة ثابتة لا تحتمل الا رأياً واحداً في حدود المعرفة الميسورة ، وانما هو امواج أثيرية كامواج التلفجن Telvision قد يلتقطها الجهاز المستقبِل القوي المتقن كما لا يلتقطها سواه . ودرجات الالتقاط تختلف لا باختلاف الاجهزة فحسب ، بل باختلاف المحيط والجو ايضاً . وهكذا نشأت آراء ومذاهب شتى في الشعر تبعاً للاحساس به . وعلينا ان نفترض الاخلاص في كل من هذه الآراء والمذاهب ، وان نعذر اصحابها على تباين آرائهم واحكامهم . اما الذي لا عذر له فهو الانتقاص الذي يزجيه حب الهدم ، واما الذي لا يقدَّر فهو التشريح الذي يعبث بالأثر الفني كأنما هو جيفة تحت المبضع !

الاثر الفني إذن يقدر بمجموعه ولا يشرَّح . انه يحلق كالطائرة وما يعاب على الطائرة تحليقها وان عيبت عليها سقطاتها خلال طيرانها في جيوب الهواء اي في المحيط الذي تمخر فيه ، ولعل الأولى بالعيب واللوم المحيط ذاته . وهكذا شأن الناقد الأدبي وهو يمتطي طائرة الشاعر ، فقد يزعج احياناً بمهابط الهواء تلك ، ولكنه لا ينتقص مجهود الطائرة الموفق اجمالاً ، والشاعر المحلق لا يستأهل الطعن الجارح لمجرد هبوط بعض أبياته عن المستوى الشعري لبقية قصيده ، فقد تحوجه الى ذلك اعتبارات وصفية خلال تجربته الشعرية كأنها جيوب الهواء التي تعترض سير الطائرة ، فهي من صنع الهواء اي المحيط لا من صنعه هو .

وليس الشعر وحده الذي يتمثل ألواناً شتى، بل قد يكون الشاعر نفسه كذلك . فهذا الشاعر المهجري عبد المسيح حداد الذي اشتهر بفكاهته الذكية اللامعة نظماً ونثراً كما سجلتها صفحات جريدته « السائح » النيويوركية والذي سمعناه يقول في سنة الف وتسعمائة وخمسين عن ديمقراطية الدستور الخالصة :

شال خيّطته اصابعكِ من اوراق الورد .

*

واشتهيتُ ان تكونا قطعتين من حجر ، فأضعهما فوق سريري ، ونسهر ونسمر معاً .

*

عيناكِ شمعتان في كنيسة ، وأغنيتان في خمارة ، وكأنهما ملطختان بالنبيذ المعتّق .

نهد . . .

عندما جاء الصيف ، وطلعت الشمس ، قلتِ لي خذ كوباً واملأه من الضياء ، واسقِ منه نهدي ، ولتشرب منه شفتاك ؛ فيخضرّ نهدي ، وتحمرّ شفتاك ، ويكون لنا بذلك اتحاد الى الأبد .

*

وعندما دعكنا عناقيدنا على المعصرة ، بعد ان رحل تشرين من الكرم ، قلتِ لي إصنع بيديك إبريقاً من التراب واقتلِ الفراشات التي تمر ، ولوّنه بدمها ، ثمّ اترعه بالنبيذ ، وأفرغ منه على نهدي ، وأفرغ منه على فمك ، فنتّحد بذلك الى الأبد .

*

وعندما هطل المطر ، وكسا الثلج شبّاكنا ، وسدّ بابنا ، قلتِ لي خذ راحةً من الصقيع ، وامرغ بها نهدي ، وامرغ بها شفتيك ، فيرتجف جسدانا ، ونتحد بذلك الى الأبد.

*

وعندما مرّ الربيع على بستاننا ، صنعتُ حبلاً من النرجس الأصفر ، وحملته اليكِ ؛ فأومأتِ إليّ ان اعقدهُ حول نهدي ، واربطهُ خلف عنقك ، وأطبق فمك على صدري ، فنتحد بذلك الى الأبد .

*

ولمّا عبرت الفصول ، كنّا متّحدين مع الشمس والتراب والماء ، وكان يجري في عروقنا دم الزهور .

نقولا قربان

إياكِ يا «جمعية التأسيس» ان تُؤخذي بالشيخ والقسيس
لا خير في الدستور يوضع رأسُه بعمامة بيضاء أو قلنوس!

هو بعينه الشاعر المتفلسف في الحب سنة ١٩٤٩ :

يقول الناس : ذا امر عسير وليس على الهوى امر عسير
إذا رغب الهوى في ربط قلب فلا بَرٌّ يرد ولا بحور
وذا سر الحياة ، وكل فرد لسر حياته اعمى أسيرُ!

وهو ذاته الشاعر الحكيم المتأمل الذي قال سنة ١٩١٥ غير ملتزم الاسلوب المدرسي في نظمه :

ماذا الخلود ، وما الوجودُ مَن مُخبري ؟
الحب بينهما نشيد للأدهر
لولاه ما مر الخلودُ بتصوُّري
الحب واسطة التعارف بيننا والآخرة
لولاه ما عذب الجهاد بذي الحياة الحاضره

ماذا نكون ، وما المصيرُ يا ابنَ العبر
الفكرُ للأثنين نورٌ مثل القمرْ
والكون لولاه ضرير رغم البصر
نور يضاء به الطريق ومَن يسير بدونه
يبقى بعيداً عن حقيقة حاله وشؤونه

الموتُ لا يُنْهي أواني في ذي الحياهْ
الموتُ تغييرُ الزمانِ لا مُنتهاه
فكري وحبي خالدان مثلَ الالهْ
انا بعضٌ من نَفَخَ الخلودَ بهيكلي الحياتي
انا بعضه ـ وهو الاله ـ فمن اكون بذاتي؟ ـ إله!

وكما يوجد التعدّد يوجد التخصص ، دون ان يكون في هذا التخصص اي مساس بالمقدرة الشعرية ، وهذا مثلاً مشهودٌ بين الشيوخ في وطنيات رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) الرائعة ، وبين الشباب في الشعر الوصفي الواقعي الشجي لمحمد مفتاح الفيتوري كما نرى في ابياته المعنونة «تحت الامطار» :

«ايها السائق ... رفقاً بالخيول المُتْعَبهْ
قفْ! فقد أدمى حديدُ السرج لحمَ الرَّقبهْ
قفْ! فإن الدّرب في ناظرةِ الخيل اشتبهْ»
هكذا كان يغنّي الموتُ حول العَرَبهْ
وهي تَهوي تحت امطار الدجى مضطربهْ!

غير ان السائقَ الأسودَ ذا الوجهِ النحيلْ
جذب المعطفَ في يأسٍ على الجسم العليل
ورمى الدربَ بما يشبهُ انوارَ الأفول
ثم غنّى سوطُه الباكي على ظهر الخيول

فتلوّتْ وتهاوتْ ثم سارت في ذهول!

وفي الشعر الوجداني المتحرر الوثاب لرضوان ابراهيم مصطفى كما نرى في قصيدته «غَضْبى»[1]

غضبى عليّ ؟ * تُرى أجانٍ قلبيَ الحرُّ الوفيْ * إن تغضبي ماذا لديّ ؟ * ألديَّ شيٌّ ؟ * سوى مدامعِ مُقلتَيّ * تنبيكِ عن روحٍ وفيّ ؟ * غضبى عَليّ ؟ * ماذا جنيتُ * وأنتِ ملءُ غدي ويومي ؟ * حيرانُ! * تسبقني خطايَ على خضمٍ مدلهمٍّ * وتضجُّ فيه عواصفي * وتذوبُ فيه عواطفي! * إن تغضبي ما في يديّ ؟ * لو قلتُ شيّ * ماذا عليّ ؟

★

لكنني اخشى تُمزّقَ حُجُبَ قلبي وحدتي * وتذوبَ آمالي وتمضي في طوايا ظلمتي * غضبى عـليْ ؟ * غضبى ؟... * أناشدكِ الوفاءَ * وأتقي منك الجفاءَ * غضبى ؟... * مؤرقة جفوني ، لن تنامْ * لا صلحَ عندي للحياة ولا سلامْ * غضبى عليّ ؟ * إن كنت غاضبةً عليْ * فدعي هوايَ على طريقك ينتحرْ * وإذا الجنازُ يضجُّ باللحن الحزين المحتضرْ * وإذا يمرُّ النعش من تحت المقاصير الخضُرْ * وإذا سمعتِ نُواحَ انغام الرعاةْ * وإذا شهدتِ مواكبَ تجفو الحياةْ * فهناكِ ألقي نظرةً * حيرى على هذا الجسدْ * وهناكِ كفي دمعةً * كي لا تفيضَ الى الأبدْ * غضبى عليْ * ما تبتغين ؟ * قد غامَ صفوُ زماننا تحت القتامْ * ماتنقمين * من ذلك الجسدِ المسجّى في الرغام ؟

والأمثلة على التخصص وعلى التنوع في الموضوعات والاساليب وكيفية التناول أكثر من ان تعد اصولاً وفروعاً ومذاهب . وسعيدٌ سعيدٌ ذلك الأديب أو المتأدب الذي لا يتقيد ذوقه ولا تضيق آفاقه ، فيستمتع بكثير من ضروب الشعر إن لم نقل بجميع ألوانها ، متمثلاً دائماً عواطفَ الشاعر كما يحسّ بأحاسيسه ويستجيب اليه ، فتصبح نفثات الشاعر كأنها من فؤاد القارىء أو السامع ومن صميم وجدانه وخاطره .

إن الانفعالات الشعرية يجب ان تكون الراح التي تذوب فيها الفلسفة والخواطر والتأملات والعواطف ، وكلما عكست هذه الانفعالات بقوة تأثّرَ المشاعر ، وكلما عظمت طاقتُها على الاستيعاب للمرائي والصور والافكار بدل رضوخها لما عداها ارتفعت منزلتها الفنية وطاقتها الشعرية في نظرنا . هذا هو المقياس الاصولي في اعتبارنا لتقدير الطاقة الشعرية بغضّ النظر عن ألوان الشعر التي ستتعدد دائماً ما تعددت الموحيات والمؤثرات من وجدانية وثقافية واجتماعية وغيرها . والأدب هو الغانم بهذا التعدد ما دام غير مفتعلٍ ، ومتى كان حليف الاتقان ، باراً بالفن ورسالته للحياة .

(١) مجلة (الاديب) البيروتية ، عدد نوفمبر سنة ١٩٥٢

موت شريد

[الى أخي الفلسطيني ، الذي مات بعيداً عن مهد طفولته مشرداً . اليه والى كل عربي يحيا ويموت مشرداً الى ان يلوح فجر البعث ! .]

•

ناءٍ ! فلا مهد الطفولة لونته رؤى الشبابْ
كلا ، ولا النعمى كتابك ، والمنى ام الكتاب
ناءٍ ! ونسأل عنك دارك والمسارح والرحاب
ونكاد نصغي للجواب ، فيرسل الصمت الجواب ! . .

☆

ناء عن الاوطان لاحرق ، ولا دمعٌ سكيبْ
ولقد دهتك النائبات ، وطوّحت ريح الجنوب
و بعدتَ ، فالشوق الشعيل ، يمد قلبك باللهيب
للدار ، للأمجاد ، للاحباب ، للوطن السليب ! .

☆

ناءٍ ! ومن حوليك صحبك ، والمدى نَهِمٌ أكولْ
تمضي ، وهجرتك الشريفة ، لم تكن دعوى ذليل
وكأننا في قبضة الماضي ، نرى ركب الرسول
ماضٍ ليثرب واليقين يُشع من غده الجميل

☆

وتموت انت وعاصف الثارات يعصف في الصدورْ
وجزيرة الأعراب لا تدري الى اين المصير
والغادر الجاني ينام على فراشٍ من حرير
لا حرمة الانسان توقظه ، ولا صوت الضمير

☆

لكننا سنثيرها ، هوجاء تلمع في السنانْ
سنثيرها عربية محمومة بفم الزمان
وسنبعث العزمات جامحةً على وهج الطعان
لن نستكين الى الصّغار ، ولن ننام على الهوان

☆

وتكون انت الفكرة السمحاء ، تحدو بالجنود
ويهيب صوتك بالنشيد الحر ، يدعو من بعيد
ويعود ذكرك في الخيول الدُهم يقتحم الحدود
ونموت باسم العودِ احراراً ، ولا نحيا عبيد

بالأمس كنت بها العطاء السمح يزهو في الربوعْ
والعطر ، والفن المنور يزدهي بيد الربيع
فاذا استراح الحق اشعلتَ المباخر والشموع
وإذا تمادى الباطل الغاوي لجأت الى الدروع

☆

واليوم ! ما دنياك ؟ كيف ذوت افانين الزهورْ
ومضيت عن ظل من الدنيا ، الى ظل القبور
وتركت في كل النفوس مجامر الفقد المرير
تلظى ، فيستضري الخفوق وتستحرُّ به الصدور !

☆

بالأمس كنت وملء برديك العزيمة والثباتْ
والنور يهدي المدلجين تضيع عن طرق الحياة
هل ضاع ذاك العهد في ليل من الماضي وفات
لا لا ، فعهدك قائمٌ يحيا على رغم الممات !

☆

ما ضاع عهدك فهو في كل الأحبة والبنينْ
يحيا شباباً ناعم اللفتات ، ريان الفتون
ويعيش في جهد الحقيقة ، في قلوب المؤمنين
ويمد في بعث الغد العربي ، رأي المخلصين

☆

ماذا اقول ؟ وملء شعري صورة الأمس الجميلْ
ماضيك ، والاحداث مطبقة على عرض « الجليل »
ورضيتَ ان تمسي ديارك في يد البؤس طلول
اولى من العيش الاثيم وفسحة العمر الذليل

☆

ننساك ؟ كيف ؟ وانت السنة يلجُّ بها المقالْ
فنراك في الثوار ، في خفق البنود ، وفي النضال
في المنتدى ، في الدار ، في المحراب ، في ساح القتال
في كل ما يُدعى الرجال له ، فتستَبِقُ الرجال ! .

☆

فارقد هنيئاً فالغد المأمول يلمع في الحرابْ
سنميت هذا الليل ، ليل التائهين عن الصواب
وسنسحق الطاغي الاثيم ولو تمسك بالسحاب
ونشيد بنيان الغد العربي ، من همم الشباب

بنت جبيل **ابراهيم شراره**

مُشكلة الحريَّة

بقلم الياس يعقوب

على الرغم من جميع الثورات التي نشبت ، فان مشكلة الحرية ما زالت قائمة يواجهها الانسان كل يوم . وتجتاز الحرية اليوم أزمة شديدة الخطورة . وقد شهد هذا العصر زوالها في بعض البلدان ، والتضييق عليها في البعض الآخر . ذلك انها ، من وجهة النظر الاستبدادية ، تأتي في عداد المظاهر الاجتماعية التي تنطوي على خطر وضرر ، ولهذا كان لا بد من تقنينها ومراقبتها بشدة كي لا تفلت ، وتحطم ، وتخرب الأوضاع والمفاهيم والتقاليد التي أورثها السلف للخلف : ومن هنا كان لا بد من تقييد لحرية القول ، وحدٌ من حرية الكتابة ، وحرية التجول ، وحرية العمل ، وحرية العبادة ... فكأن الحرية باتت عبئاً ثقيلاً على صاحبها ، تقلقه وتسبب له المتاعب والمصاعب ، وعبئاً اكثر ثقلاً على الفئة الحاكمة التي حارت في ضبطها وتنظيمها وحارت في سد المسام العديدة التي تنفذ منها . ومع هذا ، فانَ الانسان ما برح يطلق اصواتاً تشتد وتتعالى مطالبة بالحرية : بعضها يبغي المزيد ، لأن القسط الذي يتمتع به لم يعد يفي بغاياته ، ويتلاءم مع مرحلة تطوره ، وبعضها يحاول التحرر من القيود التي فرضت عليه قسراً ، فيصارع أو يعدّ نفسه للصراع الطويل الشاق . لأن كل حد من الحرية ، سواء جاء من الداخل أم من الخارج ، ليس مستساغاً . وقلما مرت عهود على الانسان بلغ بها شغفه بالحرية هذا المستوى العالي من الحرارة والشدة . وهو إذا لهج بها دائماً ، وحنّ اليها كما يحن الجائع الى الرغيف ويتمثله في اليقظة والنوم ، فليس ذلك لأنه محروم منها فقط ، بل لأنه بات يوقن انها إكسير الحياة ، ونطاق ضمان لسائر القيم السامية التي تحتضر في ظل العبودية والعسف والاستبداد .

وأية حرية ينشد الانسان ؟ هل ينشد الحرية الجسدية ؟ ان الجميع يتمتعون بها على أوسع نطاق ما خلا المجرمين والمرضى والذين اصيبوا بعاهات أقعدتهم عن حرية الحركة . وهذا الضرب من الحرية غاية الانسان العادي الذي يقف تفكيره عند تخوم الضرورة ، أم يروم الانعتاق الكلي من نواميس الطبيعة ؟ إنه لا ينفك يكافح قوى الطبيعة حيناً ، ويتلاءم معها احياناً . وهو في حالتي الكفاح والتلاؤم لا ينقم ، ولا يخرب ولا يفسد ، ولا تشوب نفسه مرارة رغم الكوارث التي تنزل به ، لا لأن الطبيعة تتحلى بالرحمة ، وتتصف بالعدل والمساواة ، ففي واقعها من التمايز ما لا يمكن ان يوصف : مناطق يتطرف فيها الحر ، واخرى يتطرف فيها البرد ، وثالثة يعتدل فيها البرد والحر ؛ هنا يغزر المطر ، وهناك ينحبس سنوات بعدها سنوات ، هنا يكمن الخصب ، وهناك يتجلى الجدب ، بعض المناطق تزخر احشاؤها بالمعادن المختلفة ، ومناطق اخرى تشكو العقم الأبدي . ومع ذلك فان الانسان لا يتذمر من هذه القسمة ، ولا يرمي الخالق بالتحيز والمحاباة . لا لأنه راض وقانع ، بل لأنه يؤمن ان الطبيعة لم تستهدفه بظلمها . ثم ان مكوثه فوق بقعة معينة من الأرض ليس اضطرارياً ابداً . إن الانسان في صراعه لا ينشد هذه ولا تلك بل يطلب الحرية في المجتمع . والمرارة التي تشوب حياته مصدرها الأوضاع السيئة التي جاء بها الانسان وتعمد بموجبها حرمانه نعمة الحرية ، والاكثار من الأغلال . ولهذا كانت معركة الحرية معركة انسانية ، قائمة في صميم المجتمعات ، لانها قيمة اجتماعية . وككل معركة يتمثل فيها فريقان : الفريق الذي يقبض على زمام السلطة ، وتتجمع لديه القوة والبأس ، والفريق المتألم ، الثائر ، الذي ينوء تحت ثقل الظلم . الحرية هي موضوع النزاع بين الحاكم والمحكوم ، بين الشعوب والحكومات . الحكومات تظاهرها الفئات التي تريد الاستمرار وتؤثر الكسل والطاعة بسائق من الخوف أو الجهل ، وتقبل لنفسها ولغيرها مصيراً لا يصح القول فيه انه صالح . واذا عرفنا ان هذه الفئة تكوّن الأكثرية زال عجبنا من قلة أنصار الحرية والمتحررين .

وليس فقط لان الصراع مهر الحرية ، والصراع لتحقيق الافضل مما هو كائن يتطلب جهداً وآلاماً وتضحيات متواصلة ، واكثر الناس يؤثرون العافية والسلامة، بل لان الحرية الفكرية، وهي اسمى ما تبلغه الحرية في صفائها ، لا تقوم الا على دعائم من الاخلاق والمعرفة . وهذان الركنان يجنبانها مواضع الفساد ومهاوي الضلال . وما اقل النفوس التي يتعانق فيها هذان الاقنومان !

ان الحكومات تدأب لضمان الاستقرار ، ولو كان فيه الجمود والاضمحلال . وتبدو مقترة الى أقصى درجات التقتير في منح الحقوق التي اغتصبتها ، وفي سيرها تكون بطيئة، متثاقلة، تكره الطفرة، وتخشى الوثبة، وترتعد إزاء كل جديد وجريء. ان قواعد سلوكها تحددت في أقنية تكونت من ركام التقاليد والقوانين التي تستمد منها مفاهيمها . ولهذا كانت ممثلة الماضي في صميم الحاضر . أما الفرد فرائده الابداع باستمرار. انه يتأثر بالتقاليد والقوانين، لكنه لا يحملها فوق منكبيه ويرزح تحتها، بل يتخذها وسيلة لمرحلة اخرى يشب اليها . انه يرى الحياة حركة وتطوراً دائمين . ويرى ان الحرية حق طبيعي وأساسي ولهذا لا يجوز سلبه او تعطيله بدافع أية ضرورة كانت . إن على الحكومات ان تصون الحرية وتوجهها صوب الخير ، ولكن لا يجوز لها ان تضعها في قمقم اسوة بالعفاريت وتضع الحراس على ابوابه . وترى الحكومات عكس ذلك : إنها صاحبة الحق في منح الحرية أو في حرمانها . ولهذا كان لا بد من التصادم بين قوتين متنافرتين تختلفان بطبيعتها وتختلفان بمقاصدهما . وعلى مسرح الثورات لا نرى إلا هذين البطلين : الشعب والحكومة .

لقد استقر في الاذهان ان الحرية تنافي مبدأ السلطة ، وهي لا تتحقق ما لم يزل آخر ظل للحكومات ، وما لم يتمكن الانسان من تحطيم قيود القانون. وبدون تحقيق هذين الشرطين لا يستطيع التمتع بنعمة الحرية . واذا حاولنا تعليل هذا النفور المتأصل في النفوس من السلطة ، وهذه الرغبة الكامنة للتحلل من قيود القانون، لوجدنا السبب البعيد في الاساليب الفظة التي اتصفت بها اعمال الحكومات والغطرسة التي تتميز بها. وان الخشية من القانون ليست حنيناً إلى زمن لم يكن فيه قانون ، بل من العبث بالقوانين، وتجاهلها في بعض الحالات ، والتلاعب في تأويلها وتطبيقها . لان الدولة في حقيقتها ليست الا مرحلة من مراحل تطور المجتمع . ولهذا نراها غير قائمة في المجتمعات الاولية ، متأخرة في المجتمعات المتأخرة ثقافياً . وان الحكومة والقوانين ليسا شيئين خارجيين عن الانسان فرضا عليه قسراً بل هما منبثقان من صميمه . وان الثورات التاريخية استهدفت ابدال نظام الحكم وتهذيب القوانين ولم تحلم بنسفها مبدئياً . فاذا كانت غاية الانسان الاخيرة التفلت من جميع القيود فانه لا يدرك الحرية التي ينشد ، بل يبلغ الفوضى المحققة التي تنعدم فيها الطمأنينة والراحة . ومن ثم فان الفوضى المستحكمة تتمخض عن العبودية ، وان الفئة الضعيفة المستسلمة تقع تحت سيطرة الجماعة التي تتسم أعمالها بطابع العنف والجرأة والتخلي عن معطيات العقل والمفاهيم الاخلاقية . وفي زمننا هذا بات تدخل السلطة أمراً ضرورياً قصد تنسيق العلاقات بين الافراد كي تصد أمواج الطغيان . وتفرض الكثير من التدابير كي يتحقق اليسير من العدالة بين الناس . وقبل ان نعلن ثورة طائشة على مبدأ الحكومات والقانون ، يجب ان نقيم الدليل ان نزعاتنا خالية من الشرور. وما لم تخل حياتنا من المساوىء فاننا نظل بحاجة الى ناظم لهذه النزعات لتقييدها وتهذيبها كي لا تنطلق جامحة مدمرة .

وإذا كان التطور التاريخي قد اقتضى تدخل الدولة في جميع المرافق ، فلا ينبغي ان تتخذ السلطة من هذا التدخل مبرراً لفرض آراء ونظريات لا يؤمن بها سائر الناس ، وتقسرهم على الايمان بها او السكوت عنها ، ولا وسيلة لسحق الشخصية . لان الفوضى ، مهما تطرفت ، لا تبرر فرض الاستبداد والكفر بالحرية . ليست الحرية اماً للفوضى ، وان القضاء على الفوضى لا يستوجب وأد الحرية . لان الفوضى مردّها إلى الفساد الذي استشرى . وما لم تكافح المفاسد التي كوّنت الفوضى ، فان الكبت والعنف لا يزيلان المساوىء . وان الذين يقيمون من انفسهم دعاة انظام استبدادي لا يرضاه الشعب دستوراً له في الحياة ، بحجة ان المصلحة العامة تتطلب مراقبة الحرية وتقنينها ، يعتبرون بحق ألد اعداء الشعب، وامعنهم في خصومته، واكثرهم

عوناً على وأد شجاعته . وليس اضر بالمصلحة العامة من سلب الحق بالحرية وجعل هذا الحق بيد الطبقة التي قدر لها ان تقبض على الحكم. وليس صحيحاً ان الثورات تقل بنسبة ازدياد الضغط بل العكس هو الصحيح . فما نشبت ثورة الا وكان وراءها نظام استبدادي فاسد ، وعهود قبلها عهود ، ساد فيها الظلم والطغيان .

ليست الحرية أربعاً او اكثر او اقل بل واحدة في الجوهر. وما الحريات التي كثر استعمالها خلال الحرب الأخيرة وبعدها الا مظاهر متعددة لحرية الانسان التي لا تقبل التجزؤ . لان الانسان لا يعد حراً ما لم يتمتع بالحرية على اختلاف وجوهها ، ويتحرر من كافة القيود المرهقة . فالتحرر من العوز لا يغني الانسان عن التحرر من الخوف ، ولا يغني ابداً عن حرية الكتابة والعبادة والخطابة والتصوير .. والمجتمع الحر هو الذي خلا تماماً من كل اثر لعبودية اقتصادية او سياسية او فكرية .

إن الذين عرّفوا الحرية ، وشاع استعمال هذا التعريف ، بان نفعل كل ما لا يحرمه القانون ، أرادوا ان يحددوا غير المحدود ، ويحصروا ما لا ينحصر ، ويضعوه ضمن سياج من اسلاك القانون الشائكة . وكل تجاوز لهذه التخوم المصطنعة تعد على المصلحة يوجب انزال العقاب بالمعتدي . والقانون ، كغيره ، يتبدل بتبدل الاحوال ، فيبيح اليوم اموراً كان يحرمها بالأمس . وتبعاً لذلك يتسع نطاق الحرية ويضيق . ففي زمن الحروب ، حيث تصبح الادارة عسكرية ، يجري تضييق شديد على الحريات العامة بحجة سلامة الدفاع والمصالح العليا . ثم ان القوانين خاصة وليست عامة ، إذ انها تختلف بين بلد وبلد . وهي من وضع رجل أو هيئة من الناس لا تتصف بالعصمة ولا تخلو من الغرض ، وقد لاتتجاوب تماماً مع الارادة العامة بمعناها الصحيح . وبموجب هذا التعريف تصبح الثورات اجراماً والثوار مجرمين ، لأنها ليست إلا خروجاً على القوانين السائدة والنظم المسيطرة . ومع ذلك فانها موضع اعتزاز الأمم ومواقف فاضلة في تاريخها . وكثيراً مايكون الاضطهاد نصيب اولئك الذين حاولوا تغيير الواقع أو توسيع آفاقه . ويرى البعض ان الاضطهاد الذي تلاقيه الحرية ليس شراً لأنه يذكي العزائم ، وهو ضروري لانتصار الآراء الجديدة . لان الامتحان القاسي الذي فرض عليها ان تجتازه يزيدها ثباتاً ويزيد إيمان الناس بها . فالاضطهاد ، مهما أمعن في الشدة والفتك، لا يمكن ان يستمر ، اما الحق فيبقى وإن توارى احياناً . إن العقائد لا تنتصر بسبب الاضطهاد بل لتوفر عنصر الحقيقة فيها . وإذا ما انتصرت على الاضطهاد ، وسخر اصحابها منه ، فلانها أصبح تعبيراً عن منطق التاريخ المتطور .

وعلى الرغم من كل ما لاقت الحرية في معركتها الدائرة من متاعب ، وأراقت من دماء ، فانها لا تزال ماضية ، تفعل في حياة الأفراد والشعوب. وقد ثبت من الثورات التي نشبت في العصور الحديثة ، ومن بيانات حقوق المواطن ، أو شرعة حقوق الانسان ، ان الناس لم يهتموا بالخبز والمأوى اكثر مما اهتموا بالحريات العامة . وقد تحمل البشر الفقر طويلاً ، على مضض منهم ، لكن صبرهم على الظلم لم يطل. فلماذا كان الاختيار نصيب الحرية ؟.

ان الحرية تمنح حق الاختيار . وفي الاختيار يحق الرفض أو القبول : ارفض ما لا يتفق مع المفاهيم التي وعاها وتبناها وجداني ، وأقبل ما ينسجم مع هذه المفاهيم . وفي الاختيار تتحقق الارادة الحرة التي تساعد على بروز الشخصية . والحرية اذ تتيح الاختيار ، وتتيح للارادة ان تثبت كينونتها ، ترتب مسؤولية على الانسان . وليس غير الانسان الحر الذي تلقى عليه اعباء المسؤولية . اما العبد والسجين والجبان فقد سلبت إرادتهم وأصبحوا رهن إرادة غريبة خارجية عنهم . وبتنازلهم ، طوعاً أو كرهاً ، عن إرادتهم تنازلوا عن حقهم الأصيل في الصراع للبناء . انهم لا يتمكنون من العطاء إلا بنسبة ما يتمتعون من حرية تتجلى فيها القوى والفعاليات .

وغير هذا ، فان الحرية تسمح لي بالشك فيما ارى واسمع وادرك . والشك لا شأن له البتة إذا ظل كامناً في الصدور دون ان يتجسد نقدا . وإذا تعذر على الشك ان يعبر عن ذاته انقلب ألما ممضا وحقدا . والعبودية التي ترحمني من الشك تئد في نفسي مزية التقدير ، وتمسخني مخلوقاً لا يفرح بنعمة العقل . وإذا حرصت الفئة الحاكمة على اجبار المواطنين كي يلزموا الصمت المبطن بالنقمة إزاء رأي من الآراء دون التمكن من اظهار شكوكهم ، تجرهم جراً لارتكاب الخطأ وممارسته ، وتثابر بعناد غريب على السير على الطريق المعوج ، دون ان تترك لمن يعرف ان يرشد الى الصراط المستقيم . وهذا الاستمرار في الضغط والارهاب يخلق انحرافاً في المفاهيم ، وتشويهاً للأخلاق يحطان من سوية مدارك الانسان . ان الفئة الحاكمة

بتدابيرها الاستبدادية لا تعتمد إلا على ثقافتها الخاصة التي سممتها الاجواء الضيقة ، ولا تجيز لها ان تتفاعل وتتأثر بثقافات اخرى حرة ، نشيطة ، جديدة . فهي من هذه الجهة الفكرية تشبه دولة تفهم الاكتفاء الذاتي في ميدان الاقتصاد بانه الانطراء على الذات ، والقناعة بما هو موجود ، ولا تفهم ان الاكتفاء لا يتحقق ما لم تعمد إلى التعاون مع بلدان اخرى فيها من القابليات الطبيعية غير ما فيها . وهذه الآراء التي فرض عليها ان تظل مكبوتة لا يمكن ان تكون شراً كلها ، ولا بد من ان تكون على نصيب من الصواب . ومما يحز في النفس هذا التفاوت في الاعتبار بين فريق وفريق : الفئة الحاكمة تستخدم القانون والقوة لضمان كيانها ونصرة آرائها ، وتسخر القانون والقوة للقضاء على آراء الخصم حيناً ، وعلى الخصم احياناً . انه لم يعط لها وجدها ان تقرر الخطأ والصواب . بل ان الشعب هو الحكم في هذه الامور ، فأما ان يعتنق المبادىء إذا آمن بها ، وإما ان ينبذها وهي في الاصل ما وضعت إلا له . وفي هذا الحد من الحرية تجرم بحق الشعب الذي فرض عليه ان ينحجر في قوقعة يمكث فيها مدى الحياة دون ان يحاول الخروج منها . والعقول ، إذا ما قضت زمناً طويلاً في هذا الجو الخانق تضمر وتهزل . وإذا ما سخرت القوة لخدمة مبدأ ما ، فلان هذا المبدأ لا يقوى على إحراز الغلبة على غيره إذا ما توفرت شروط الحرية لصراع العقائد .

وفي جو الحرية تتطهر الحياة الاجتماعية من العقائد الزائفة ، وتسقط في المعركة المبادىء الخاطئة . اما اذا عمدت هي الى تكبيل الفكر وتصفية العقائد التي لا ترضى عنها ، وذلك عن طريق التنكيل بالمواطنين لا تسلم من حكم التاريخ القاسي وتجلب على نفسها النقمة . ولئن كان اصطراع العقائد يحدث شيئاً من البلبلة والتوتر ، فلا بد من ان يقضي على الفاسد منها والزائف الذي يزيد في حدة البلبلة .

والحرية بعد كل هذا شرط لتفتح الشخصية وتكاملها . لانه يستحيل على الشخصية ان تبرز سجاياها الا في جو حر . ففي هذا الجو تنشط وتفعل وتحقق ذاتها . وفي هذا الانفتاح المطلق تتجسد امامنا المثل العليا في شخصيات حية عاملة ، وتتوفر لنا النماذج الرفيعة التي يصح اتخاذها قدوة لنا . ولا تستفيد الاخلاق وحدها من هذا الانفتاح بقدر ما تستفيد جميع نواحي النشاط الفكري من علوم وفنون وآداب . لان العبقريات تموت إذا ما حملت حملاً على ان تعمل ضمن نطاق محدود ولغاية واحدة معينة . واذا ما قدر للحرية ان تنهزم امام الاستبداد وقع الانسان في هاوية الحقارة والذل . وبهزيمة الحرية تتم هزيمة الشجاعة ويساور الخوف نفوسنا ويحول دون انطلاقها . اما من يجرؤ على قهر الاستبداد بالفكر والعمل فانه يعد من صانعي التاريخ ، وقادة الحركات التحريرية ، ورسل البطولة الواعية . وهذه الوثبة الرائعة لا تتأتى لأي كان . ولهذا لا تقع العين ، عبر التاريخ ، الا على القليل من المنارات القائمة ترسل الاضواء وتشع منها القيم . اما الكثرة الساحقة من الناس فانها تؤثر السلامة . ولكي تضمن السلامة لنفسها فانها تجنح الى النفاق والمهالأة . انها لا تحاول السمو فوق البيئة بل تكتفي بالتآلف معها .

وفي هذا التآلف تسيطر نفسية القطيع التي تصرف الاذهان عن القضايا الرئيسية الى القضايا التافهة .

فاذا ما أردنا لبلادنا جيلا يتحلى بالشجاعة الادبية ، فيقدس الحق ويحقر الباطل .

واذا ما أردنا جيلا يحدث ثورة جارفة في الاخلاق والفنون والاجتماع والاقتصاد .

واذا ما اردنا جيلا ينسف التقاليد الفاسدة ، ويغرف من معين قلبه وعقله بحرية .

إذا اردنا كل هذا ، فما علينا الا ان نطعم ابناء هذا الجيل الجديد خبز الحرية ، فبه وحده يحيون .

صافيتا **الياس يعقوب**

فلسفة من الصين

التاج الجديد

للفيلسوف الصيني لين يو تانغ

نقله للعربية الاستاذ منير البعلبكي

دار العلم للملايين – ١٤٤ ص



أول ما قيل في هذا الكتاب « انه اعظم ما اخرج للناس في السنوات الاخيرة » طبع سبع عشرة طبعةً في بضع سنين. وكثيراً ما كان الشهر الواحد يستنفد الطبعة الواحدة من الاسواق فيدفع الكتاب الى الطبع من جديد.

ما شأن هذا الكتاب؟ وما الحقيقة في امره، والسر الذي يكمن وراء انتشاره وإقبال الناس عليه هذا الاقبال المنقطع النظير؟

انه كتاب من الشرق، اياه، بلد الحكمة والضوء، يظهر في الغرب هناك، حيث الأناس باتوا يحنون الى برهة قصيرة من الوقت يريحون فيها اعصابهم، ويمتعون ارواحهم فيجيء ظهوره كالبلسم شفاء للناس، وتخفيفاً لحدة التوتر الذي جرّته عليهم هذه الحضارة، فلا يلبثون ان تخفق له قلوبهم ويجدوا فيه ضالتهم ولذيذ مشتهاهم، كما لا يلبث هو ان يخلق فيهم بمثل سحر الساحر اجواء وعوالم و « نشاطات » غريبة، حية، متحركة، تسكب في قلوبهم الهناءة، وتمسحهم بماء العافية، فيصحون على ارواحهم هانئين، منتشين مغردين ينشدون المحبة والامان والدعة ويستسلمون الى ضرب من الخدر لذيذ ماتع كسول ينجيهم من تعقد حياتهم وسأم نفوسهم، وحيرة ضمائرهم واستبداد آلاتهم، ويرد اليهم – ولو الى حين – إنسانيتهم السليبة الضائعة في مثل لمح البينا وحديث الغاشية.

هذا الكتاب ليس كتاباً في التفكير المجرد، او المنطق العقلاني، بل فلسفة منبثقة عن حياة كسول في جيل غير الذي نعيش فيه، فلسفة في الحياة تمثل وجهة نظر شعب بأسره كما عبر عنها في ادبه وحكمته الشعبية، تريك الفيلسوف الصيني « فيلسوفاً يحلم وإحدى عينيه غير مغمضة، ينظر الى الحياة في محبة وسخرية، ويمزج تهكمه بتسامح رفيق، ولا يكاد يفيق من حلم الحياة حتى يغلبه النعاس من جديد » هذه الفلسفة التي ليس لها بالمعنى الجيد او بالمعنى الرديء نظير في العالم كله، ذلك بانها نظرة تختلف عما نألف، صادرة عن ضرب من العقل غريب عما تعلمنا، هي بسبب كونها كذلك تخلب عقل القارىء، وتلك حواسه فتجعله يقبل على الكتاب في رغبة ملحة وحماس بالغ يمدانه بيقظة عجيبة مطردة تمكنه من العثور على اجوبة جديدة لمشكلات الحياة، وطرائق جديدة لفهمها، بل على طرح جديد لهذه المشكلات نفسها في منطق صبياني ولغوٍ نسوي بارع الى درجة يبهرك فيها هذا الفهم الغني للفلسفة عند الصينيين، والاحساس المباشر والحميم بالحياة والنظرة التي هي في جوهرها اقرب الى نظرة الشاعر منها الى نظرة الفيلسوف.

يقول لين يوتانغ: ان العالم جدي اكثر مما ينبغي، وهو بهذا الوصف بأمسّ الحاجة الى فلسفة حكيمة مستبشرة، فالفلسفة البهيجة هي وحدها الفلسفة العميقة. إذن فينبغي علينا ان نكون واقعيين، والمهمة الرئيسية لروح الواقعية هذه هي إقصاء كل ما هو غير اساسي عن فلسفة الحياة، والتعلق بتلابيب الحياة كما هي، خشية ان تحملها اجنحة الخيال الى عالم تصوري جميل ولكنه غير حقيقي. وليس من ريب في ان الحكمة في الحياة تقوم على تنحية النوافل والفضول، وتنخّل مشكلات الفلسفة وحصرها في شؤونٍ معدودات هي الاستمتاع بالحياة البيتية وبالعيش والطبيعة والثقافة كما تقوم على التخلص من كل سعي وراء المعرفة، وهكذا تصبح مشكلات الحياة عند الفيلسوف الصيني قليلة جداً ويسيرة جداً. وهي تعني ايضاً ضيقاً بما وراء الطبيعة وبالتماس المعرفة التي لا تترك آخر الامر أيما اثر عملي في الحياة نفسها، وتعني الى ذلك ان كل نشاط إنساني سواءٍ أكان اكتساباً للمعرفة او اكتساباً للأشياء يجب ان يخضع في الحال لامتحان الحياة نفسها ومدى ما يؤديه من خدمة لهدف العيش وغايته. ثم ان غاية العيش – وههنا نتيجة ذات خطر – ليست كائناً ميتا فيزيقياً ولكنها مجرد العيش نفسه. »

بهذه الواقعية وبضرب من الازدراء العميق للمنطق وللفكر نفسه يقرر الصيني فلسفته في الحياة فهو يحسها إحساساً لا دخل فيه للعقل ولا شأن للتفكير « فالصيني الناضج هو دائماً شخص يرفض ان يفكر كثيراً جداً، ويأبى ان يسجن نفسه في أيما نظام فلسفي صارم؛ إن المذاهب والاديان كلها نظم رائعة في ذاتها غير ان التابع لمذهب ما ليس غير طالب من طلاب الفلسفة، بينما الانسان هو تلميذ الحياة بل لعله سيدها.

وهكذا يمضي لين يوتانغ في كتابه فيعرض انواعاً من النظر الى الجنس البشري، فيحلل وجهة النظر المسيحية التقليدية في

خلق الانسان ووقوعه في الخطيئة ، ويفسر نشأة الشيطان و « اختراع الروح » والقول بالفداء » الذي يستمد اصوله من الفكرة الرائجة عن الحمل القربان التي ترجع بدورها الى الفكرة القائلة بوجود إله محب للحم المحمّر غير قادر على ان يغفر للناس ذنوبهم من غير مقابل » ثم ينتقل الى وجهة نظر العالم الاغريقي الوثني الى ان يصل بنا الى وجهة النظر الصينية التي تعتبر ان الانسان سيد الخليقة له في حياته — وهو لا يعدو ان يكون روحاً حلت في جسد — بعض العواطف والرغبات وفيض من الطاقة الحيوية او الطاقة العصبية، وليست هذه في ذاتها صالحة أو طالحة ولكنها مجرد شيء لا ينفصل عن الحياة الانسانية السوية، فلجميع الرجال والنساء شهوات ورغبات طبيعية وآمال نبيلة وضمير، وانما تقوم الثقافة على التوفيق بين ضروب التعبير عن هذه الشهوات والرغبات وإيقاع الانسجام فيما بينها .

وليس من ريب في ان ايما فلسفة عملية صالحة يجب ان تتخذ من الاعتراف بواقعية الجسد نقطة انطلاق لها. ان اوضح الحقائق التي يتعامى الفلاسفة عنها هي اننا نملك جسداً ويضيق مبشرونا ذرعاً بنقائصنا وغرائزنا الوحشية فيعبرون في بعض الاحيان عن اسفهم لأننا لم نخلق على شاكلة الملائكة، ومع ذلك فان مجرد التفكير في ما يمكن ان يكون عليه حياة الملائكة خليق به ان يربكنا ويذهلنا . فنحن بين امرين : إما ان نعطي الملائكة جسداً وشكلاً كجسدنا وشكلنا في ما عدا جناحين اثنين وإما ان لا نفعل . ومن الطريف ان تصوّر الناس العام للملاك لا يزال على صورة جسد بشري ذي جناحين . واني ليخامرني الظن في بعض الاحيان بان من مصلحة الملائكة انفسهم ان يكون لهم جسد وحواس . ولو قيض لي ان اكون ملاكاً اذن لرغبت في ان تكون لي بشرة كالتي لفتيات المدارس . ان فكرة الروح التي لا حس بها لا تستطيع ان تنهض على قدميها بعد إذ اخذنا نشعر اكثر فاكثر بان الكون نفسه كائن حساس ، ولعل الحركة لا الوقوف ستكون احدى خصائص الروح وستكون للملائكة ثمة اصبغة روحية تمكنهم من ان يتمتعوا بنوع من الخلق والابداع، والا فان الروح نفسها قمينة بان تفسد كما يفسد الماء في البالوعة .

وبعد ان يقرر لين يوتانغ اهمية هذا الجسد البشري يعود فيوضح ان ثمة نتائج خطيرة تلزم عن ملكيتنا لهذا الجسد. اولها اننا غير مخلدين على الارض، وثانيها ان لنا معدة، وثالثها ان لنا عضلات ، وآخرها ان لنا عقلاً طلعة كثير الفضول ، وهذه الحقائق عميقة الاثر في الحضارة الانسانية وهي لوضوحها البالغ قليلاً ما تكون محل تدبرنا وتفكيرنا ولكننا لن نفهم انفسنا وحضارتنا ما لم ننظر في هذه النتائج ونفهمها احسن الفهم .

ومن النتائج لكوننا حيوانات ان لكل منا ذلك التجويف الذي لا قعر له والذي ندعوه المعدة . فمن هذه المعدة الحسنة الامتلاء تشع على وجه الصيني سعادة روحية حقاً . ذلك ان الصيني يعتمد على الغريزة وان غريزته لتعلمه بانه حين تكون معدته في احسن احوالها سيكون كل شيء حسناً .

وعلى هذا النمط يجري لين يوتانغ فيبين نتيجة كوننا ذوي عضلات قوية وكوننا ذوي عقل وكوننا بشراً كما يفسر نشأة الحضارة الانسانية في فصل عميق رائع ينتهي منه الى القول بأن بساطة العيش والفكر اسمى واسلم مثل اعلى للحضارة والثقافة وان من شروط البساطة روح الدعابة ورشاقة الظرف التي تجعل المرء في نجوة من مختلف ضروب التمهل المصطنع والتمويه الكاذب واللغو الثقافي والبلاهة الاكاديمية والخداع الاجتماعي .. فانما يصبح الرجل حكيماً حين يغدو فطناً ظريفاً سريع الخاطر .

ومن ثم ينتقل لين يوتانغ الى البحث في من يستمتع بالحياة احسن الاستمتاع فيرسم خطة العيش التي يحسن بالمرء انتهاجها ليحيا حياة سعيدة قوامها الاعتدال الحلو والقول بحياة حسنة التوازن تقوم في مكان ما بين الحد الاقصى الايجابي والحد الاقصى السلبي : مذهب المناصفة او التساوي الذي يتمثل في رجل « ينشط في كسل ويكسل في نشاط ، رجل غير فقير الى درجة تجعل من المتعذر عليه ان يدفع اجر البيت في ميقاته وغير غني الى درجة تمنعه من العمل إطلاقاً » .

ويختم اخيراً لين يوتانغ كتابه الخطير هذا بفصل عنوانه «عيد الحياة» فيبحث مشكلة السعادة ويقرر انها سعادة بيولوجية حسية تتصل بالسمع والشم والبصر والذوق ، ثم يورد امثلة على ذلك منتزعة من محبي الحياة الكبار ، شرقيين وغربيين يصفون فيها اسعد لحظاتهم الخاصة ومبلغ اتصالها بالحواس ، كل ذلك في اسلوب يصب الرخاء في نفسك ويحشد العذوبة والمتعة واللذة المنبعثة عن تعرية الحياة وانسكاب الفتون ودفق الحرارة اللذيذة الذائبة في كلمات الكتاب وتصاويره القوية المشتعلة واشواقه الرطبة المثيرة بكل ما في كلمة اثارة من حيوية وانفعال ووهج

تجعلك تصفق لهذه الفلسفة وتأخذ بمنطقها بتنبه واستسلام ونشوة فريدة مسترخية لا تلبث بعدها ان تعيد النظر بحياتك وتبدأها من جديد حراً طليقاً مستبشراً، لا حزن فيها ولا كآبة بل فرح دائم مشبوب يعلمك فن العيش ويخلصك من هموم الحياة.

هذه واني لاشكر اخيراً الاستاذ منير البعلبكي على اتاحته لي فرصة الاطلاع على هذا الكتاب الجميل كما اهنئه على براعته العجيبة في نقل هذا الاثر الى الآداب العربية من اجل تعميم المعرفة واخصابها في كتب، ليست مقتصرة على مذهب معين او اتجاه فريد بل تمثل مختلف وجهات النظر، في الشرق والغرب من لين يوتانغ الى ماوتسي تونغ كيلا تنطبع الاذهان وتجمد ضمن اطار موحد بل تنفتح على العكس وتدرس وتستنير وتصوغ من ثم لها نمطاً من العيش واتجاهاً في دروب الحياة.

احمد ابو سعد

من اسرة الجيل الملهم

معالم الموسيقى العربية

للاستاذ نسيب الاختيار

المطبعة العصرية بصيدا — ١٢٢ ص

كثير من الناس يقرأون الأدب قراءة تقليد، وما كان بارزاً في اذهان اساتذتهم من المسائل يظل هو نفسه بارزاً في انفسهم واذهانهم، وهذا هو خطأ الجمود والوقوف عن التطور باستمرار النظرة ودوام الفكرة، ولكن القليل من الناس يعملون في التجديد إذ ينظرون الى الأدب من نواح لم يسبقوا اليها أو لم تكن هي النقط البارزة عند من سبقوهم، وهؤلاء هم الموهوبون الذين وكلت الحياة اليهم مهمة التطور والتجديد.

وفي كتاب «معالم الموسيقى العربية» يقرأ الانسان ادباً جديداً منبعه ذلك القديم الذي يقرأه الناس تقليداً ولا يميلون فيه كما مال فيه الاستاذ نسيب الاختيار على وعي وفهم وانصبّ على التاريخ الأدبي يستنبط منه عيوناً ثرّة فياضة كأنها لم تفض أو لم تنبع من قبل، فأضاف بجهده الموفق للادب العربي شيئاً جديداً.

وأخص ما وفّق فيه المؤلف كان في البحوث العامة والفصول الجامعة، وقد دلّ المؤلف فيها على سعة اطلاع ومقدرة على الاستنباط وقياس الأدلة، ثم دلّ على مقدرته في الشرح والتبيان في طراز من الاسلوب الحيّ المعبّر الدقيق.

وقد جارى المؤلف في كتابه النظرية المعروفة في نشأة الشعر والغناء معاً توأمين متلازمين أو مخلوقاً خليطاً، ولكنه اخذ ينفرد ويجيد حين صوّر تلبيس الموسيقى والغناء لطوائف الناس وعمالهم ومجدوديهم من غير المترفين، ثم اجاد في بيان اثر السبي والموالي في نقلة الغناء من مرحلة الى مراحل اعمّ وأشمل، ثم أحسن حين بيّن ان الشعر كان المقصود لذاته في مادة الغناء في جو الجزيرة العربية، وهي مرحلة من مراحل الانفصال التي تكلم عنها العلماء، فبيّن الاستاذ ان العرب كانوا قوماً وسطاء بين قديم الانسان وحديثه، وعلى ارض العرب اخذ الشعر والغناء ينفصلان ويلتقيان من حيث يحفظ كل منهما مميزاته ويبقي على طوابعه.

ومن اجود ما جاء به حين اخذ في التلويم على الأساطير التي جعلت التأوه اصل الحُداء، والحداء اصل الغناء وجعل يناقشها في قوة ووثوق فبيّن انها لم تكن كذلك في التطور واستند الى ادلة تسند وتنصر من تاريخ الأدب ونصوصه كانت تعمى عنها الأعين وانفتحت عليها عين المؤلف البصير.

وحين أوسع الاستاذ في البحث وراء من احترفوا الغناء وطوروه في العصور العربية والاسلامية المختلفة، وفي وصف المعارك التي نشبت بين القديم والجديد في غناء الشعر العربي عنّ لي ان أقترح على الاستاذ المؤلف ان يسمي كتابه معالم الغناء العربي فان القارىء لعنوان الكتاب يكاد يفهم ان البحث سينصبّ اكثر إلى بحث النغمات وآلات الموسيقى فيصير كتاباً خالصاً لنوع من الفنون، ولكنه جاء كتاباً ادبياً، فكان من حقه ان يكون اسمه كما سمّيت أو كما تمنّيت.

وشيء آخر عنّ لي في هذا الكتاب وهو انه لم يُرْجع المعلومات التي جاءت به الى اسانيدها ومراجعها، وحقاً ان الاستاذ المؤلف كان صادق النقل موثوقاً في الاسانيد ولكن ذلك لا يعرفه إلا المطلعون على تاريخ الأدب اطلاعه، وهذه غلطة وقعتُ انا فيها في بعض كتبي ثم رجعتُ عنها واتبعت الطريقة الجديدة، وحبذا لو عاد المؤلف في طبعاته التالية لهذا الكتاب فأرجع الاصول الى مواردها ليزيد الكتاب ثقة في نفوس الناس وليصير مرجعاً لمن لا يستطيع ان يرجع الى الموارد الاولى.

وأنا حين أعتب على حروف المطبعة التي تركت بعض

الاخطاء اهنىء الاستاذ المؤلف من قرارة نفسي على جهده الموفق واتمنّى له ان يكثر من هذا الانتاج الجيد كما اتمنى لنا – نحن القراء – ان نظفر بامثال المُمتع التي ظفرنا بها في اثناء هذا الكتاب . **عبد العزيز سيد الأهل**



من شعر ناظم حكمت

ترجمة الدكتور علي سعد

مطبعة الاستقلال – ١٧٥ ص

●

يقال في الحسن انه الشوق الى الحسن! ولا ادل، على ذلك، من القصيدة عند ناظم حكمت . فهي لا تري جمالاتها دفعة واحدة ، بحيث يسهل التخلي عنها بقدر ما يسهل امتلاكها ولكنها كالمرأة اللبقة ، كشهرزاد تحدّث الف ليلة وليلة ، قبل ان تطعم مما تطعمه الاخريات والذي يستجيل ، بعد هذا الاغراء الممتع ، شهداً ذا حلاوة مسكرة خاصة . ولها جوار انيس كجوار الحكايا ، فما تشعر معها بسأم او حرج . تقرأ ، فلا تسأل عن مقبل الطواف ، ما هم ان تخلد الى سكينة اللقيا ، او تبقى على اهبة للمفاجآت. فالنهاية ليست شوطاً في القصيدة.. انت في اللحظة ، في بهاء اللحظة ، سامر لا يبتني القصور او يأبه لما يشغل الآخرين ، بل يعيش في نعيم من ضوء القمر ، ونكهة الحبيبة ، وسكون الليل . نداء هنا ، ونداء هناك.. حنين هنا ، وحنين هناك.. اشياء كثيرة تفاجئك ،فتنسيك ما قبل ، وتذهلك عما بعد ، وتشعرك بانك ، ابداً ، في الطريق ؛ في روعة الطريق .

فقصيدة ناظم حكمت ، ما سعت مرة في ركاب فكرة جديدة تفلسف الاشياء ، وتقيم لها تفاسير جديدة ، وانما كانت ، دائماً ، حلم طفل بالدمى في ليالي الاعياد .. انها الحنين الى كل ما يخصب الذات الشاعرة : الحنين الى الحرية ، الحنين الى الحب، الى الشفاه العنابية الناضجة ، والخصور المستديرة ، والنظرات المختصرة ، الحنين الى الرفاق الذين يناضلون دفاعاً عن قضية من اجلها سُجن،ومن اجلها حمل المعركة في قلبه ، الحنين الى الشمس التي تخلع الضوء على الترابة ، والحشرة ، واللص ، وتمنعه عن ناظم حكمت .. فهذا الشاعر ، الشاعر دائماً وابداً ، الموقظ الفرح في كل قلب ، لم تمنعه قسوة الحياة ، من ان يفرح ، هو الآخر، وان يحلم ، في العتمة ، بجمالات الحياة . وكأن الحياة – هذا الدفق من الخير – ارادت ان ترد ، لهذا الرجل، بعض جميله ، فوهبته العزاء ، ومحبة الناس . ما يمنع ناظم حكمت ، بعد ، من ان يقول ، وهو يعلم بان ، لكل من كلماته ، رنيناً منشرحاً في اكثر من قلب،وبهجة تحاكي بهجة عبد نائم يحلم بحريته .

وهكذا خرجت الكلمة عنده من حدود الغناء في البرج العاجي لتصبح غناء في الدروب ، وفي اكواخ المساكين .. فكأنها قطعة من الضوء تشيع الرجاء في النفوس المفتقرة الى الضوء، وكأنها السلاح السحري الذي ينتصر به الفقير على فقره ، والبائس على بؤسه ، والافاق الملعون على عبث طوافه . والآية في ذلك ، ان هذه الكلمة لم تكتف مرة بان تكون المَنيهة التي يلتقي فيها الوجود بالعدم ، بل كل نقيض بنقيضه ، وكأنها مسميات لا تعني شيئاً ، وانما جاءت دائماً تعلن عن انها قضية وهكذا يتاح لها ، بيسر وبساطة ، ان تغمس القاريء في صميم الحركة الشعرية ، وتنتهي به الى ايجابية في الموقف ، بان تجعله شاعراً يعطي فيما هو يقرأ – انه لم يعد يتقبل وحسب .. بل يحرك القضية في نفسه ، ويحيا الحالة الشعرية التي عاشها الشاعر بكل خلجة وبكل انخطاف .

وفي صحبة الكلمة هذه ، انت ناظم حكمت.. انت الشاعر الذي اضطهد وسجن وتغرب بين اهله واصدقائه ، وأريد على ان يطفيء الضوء المشع في ضميره .. انتَ الكريم الذي اعطى وما بخل ، في سبيل ان تحتفظ البقاع التركية باجمل ما تملك ، « الامل ، والحنين ، والحرية ، والاولاد » .

ذلك ان ناظم حكمت اقتنع اخيراً بانه انسان عادي ، عادي جداً كهذا المتشرد الذي يجوس خلال الشوارع والطرقات، فلم يقم من غروره حاجزاً بينه وبين الواقع المر الذي يرهقه ، ويرهق الملايين امثاله . فلا الثقافة الغنية ، ولا حرمة الشاعر ، ولا سمو الرجل ، كانت لتحول بينه وبين القيد . هنا ادرك عبث الحياة ، عفواً ، بل سخاء الحياة التي منحته الجرأة على ان يكون واحداً من هؤلاء « الجبناء والشجعان ، الجندلين المكدسين كأكوام الضمادات والاحذية والجلود، الذين يبدعون كل شيء حتى الشتائم ، والذين قيل عنهم ان ليس لديهم ما يخسرونه غير اغلالهم » .

وفي الساحة ، تعلّم كيف يواجه الشر بعناد لا يستبد الا

بأبله او برسول ، ليحمل قصائده ، بعد ذلك ، هذا الطابع الثوري المتزن . فهو لم يكتف مرة بتصوير الواقع بما فيه من مرارة ، وعذاب ، وحرمان ، بل يروح يستغل الواقع ليومىء الى الخلاص .

وما احسب التقاء الشعر بالحركات الشعبية والوقائع اليومية عملاً هيناً . فالمواضيع العادية المتشابهة هي اخطر المواضيع التي يتناولها الشاعر . ولن يتاح إلا لامكانية انسانية خارقة ان تلحظ الشعر الذي يكمن في كل ما يتراءى قريباً ، مألوفاً ، مملاً واكاد اقول بائساً . اما ناظم حكمت فقد عرف كيف يبدأ في الشارع ، وينتهي دائماً شاعراً . وهذا ، لعمري ، شاهد على ان الموضوع يتضاءل ، بل يمحي حيال الخالق ، وان بوسع الشاعر ان يحتفظ بشاعريته سواء داعب التجربة العميقة التي عاشها أو غمس ريشته في جراح العالم حوله ..

★

وانه لجهد ميمون ان تغنى المكتبة العربية بشعر ناظم حكمت الذي نقله الى العربية الدكتور علي سعد ، وقد يفجأ البعض ، في الكتاب ، ما يخرج على المألوف في التعبير العربي . وربما جرؤ احدهم ، فاتهم الناقل بالحاجة الى معالجة القول العربي الصحيح . لا ، فالمشكلة ليست هنا . وشاهدي على ذلك هذه المقدمة الرائعة المشرقة باصفى ما يميز الكلمة العربية من حرارة واستقامة ودقة في الدلالة .

ولكن السر يتضح متى أدرك القارىء موقف هذا الناقل من القضايا . فهو لا يؤمن الا باللحظة الاولى من كل عمل ... وما يلي ذلك ليس الا اضواء تبرز الشكل الذي كان قد تحدد في ذهن الخالق ، فمتى اشرقت الهنيهة الملهمة في الخاطر ، تأخذ الرعشة شكلاً معينا وواضحاً في النفس .. ثم تأتي الكلمات .. ومن هنا كان الفارق بين شاعر وشاعر : بين شاعر يبحث عن الكلمة وشاعر يبدع الكلمة ، بين شاعر تستعبده الكلمة ، وشاعر يستعبد الكلمة . بين شاعر يقيم الكلمة صنماً ، وشاعر يعذب الكلمة ويصلبها حيث يجب ان تكون .. فالتعبير في القصيدة ، اكثر من قول جميل . انه الحركة في الشكل ، بحيث تصبح الكلمة مسؤولة تجاه اللحظة الاخيرة .. أمثل على ذلك بالرقص : نحن نصفق للراقصة ، ساعة تكمل الرقصة ، وفي وجودنا متعة وانشراح .. لقد رأينا امراً عجيباً ، رأينا الحلم الذي لا يؤسف المرء بعده ان يموت .. امرأة تسخر كل شيء : الضوء والحب ، والذكريات والمستحيل ، والمتفرجين ، وهي ، لتكون الرقصة الجميلة . اما كيف أمكنها ذلك ، فنحن لا نسأل . وهل أتفه من السؤال في حضرة الجمال ؟ بيد أن الراقصة تعرف أن كل حركة جاءت في مكانها : شهقة الخصر هذه ، وهذه الانتفاضة المباغتة ، وهذا الاهتزاز المريب ، وهذه الحركة الدائمة التي تنشد السكون . فكل حركة تمهيد للحركة التي تليها ، وكان يكفي أن تتقدم حركة رفيقتها ، لتخسر المرحلة التي تفسدها ، فتفشل الرقصة ، أو تنتهي بنا الى رقصة ثانية ، ربما تكون جميلة ، ولكنها ، على كل حال ، شيء آخر . ففي الرقصة ، تفترق الطرق عند حركة . وكذلك القول في القصيدة ، وفي القصيدة المترجمة خاصة . فحيال القصيدة ، ينتهي بالنسبة للمترجم ، كل ادعاء بالابداع ، وإنما ينحصر إبداعه في نقل المتعة الجمالية التي تحدثها ، وبنفس الحرارة التي يحسها المرء حين يقرأها بلغتها الاصلية . ولن يتم له ذلك الا بالمحافظة على الفعل الشعري في القصيدة ، على الانخطاف الذي تثيره لأول وهلة . وهنا تبرز مسألة الطريقة في الترجمة : أهي الترجمة الحرفية التي تحفظ الفعل الشعري على قدرته في تحريك القوى الأخاذة عند القارىء ، ام الترجمة التي تهدف إلى سكب القصيدة المترجمة في قالب عربي صرف ؟ أما الدكتور علي سعد فما اختار طريقة ، لان الطريقة تقف بين الشعر والقارىء ، وإنما توخى الابقاء على البراءة التي تصل بينهما بلا كلفة وبلا شرح . وهذا ما حدا بالدكتور علي سعد إلى أن يترجم ناظم حكمت ترجمة توهم بانها حرفية ، ولو اضطره ذلك إلى مفاجأة الخاطر الذي اعتاد نحواً من التعبير يفترضه الاكمل ، كأن القول نغم عتيق معروف ، يجب أن ينتهي إلى قرار معين .. ومن يجرؤ فيقول بأن التعبير العربي — كما انتهى الينا — قد بلغ وجهه النهائي ؟ وهل في التعبير وجه نهائي ؟ من مآسينا أن نتذرع بالبلاغة وغيرها من ضروب البيان ، لنستر العقم في الفكر . أجمل البلاغة بلاغة تجيء .. لا بلاغة يسعى اليها المرء ، كالشهقة حيال جمال ، هي تشرق فجأة في حواشي القول ، ولا يتعمدها القائل . فالبلاغة لم تخلق العباقرة ، ولكن العباقرة خلقوا البلاغة . ولكن ما لي ولهذه الأسماء المدرسية الباهتة ؟ كل ما في الامر أنهم خلقوا قولاً جميلاً سماه الناس « بلاغة » ، سيبقى لهم رهف جمالي يقلق الفتنة في كل قول ، وللناس أن يسموا .. فأنا عندما أمسك كتاب « من شعر ناظم حكمت » وأقرأ قصيدة « إلى بيير لوتي » لا يفسح لي بأن أسأل اهي بليغة أم غير بليغة ، أم انها بلاغة من نوع جديد ، ولكنني أعرف انني

في نقلة جمالية ماتعة ، وهذا يكفي . الله ، الله ، من هذا السحر الشائع .. هنا يتغلب الاطمئنان الفني على الحقد ، والشعر على السياسة . هنا تقرأ قصيدة جميلة قبل ان يثيرك موقف فتى شرقي من شاعر فرنسي لم يرَ قذارته وقذارة البائسين أمثاله . بل تغنى بقصور الشرق ، ولياليه الراقصة ، وسمائه الصاحية الزرقاء واميراته المضيئات خلف حجاب كأنه « سحابة رقيقة تمر على وجه البدر المنير » . وبنفَس يكاد يسكره انسياقه ، استطاع الدكتور علي سعد أن « يتآمر » مع ناظم حكمت على بيير لوتي ، وكلاهما يتساءل أيها أجاد أكثر ، مدللاً بذلك على شاعرية تحتفظ ببهائها حتى في الترجمة ، وفي نقل الحب والكره من لغة إلى لغة .

الغاز .. خنوع .. وقدر
اقفاص ، وقصور وقوافل
وشلالات .
فامضين يا اميرات .. وامضين يا حوريات
يا من يرقصن على صينيات من فضة .
مهراجاه ، باديشاه ، وشاه من الف وسنة .
فكأنما تتدلى من المآذن حوافر من مرجان
ونساء مخضوبة بالحناء ، تدفع بارجلها انوال التطريز .

هذا هو الشرق ، الشرق كما رآه الشاعر الفرنسي ، الشرق الصافي والخام كما يبدو في الكتب التي تطبع منها ملايين النسخ في الدقيقة .

انما لا البارحة ، ولا اليوم ، ولا غداً ،
لم يوجد ، ولا يوجد ، ولن يوجد هكذا شرق !
الشرق ، مشرق الشمس ، ترى ام حمم ،
حيث العبيد ، العبيد العراة تقضي جوعاً .
بلاد البؤس ، وملك الجميع ما عدا الشرقي .
لقد سئمت آسيا .. سئمت كل هذا ،
والشرق لم يعد يريد ان يبلع هذا الحساء ...

وما القول في قصيدة « منذ اصبحت في الداخل » و « انهم لا يدعوننا نغني » و « الرسائل الى تارانتابابو » و « عيش » و « الرجل الذي يمشي » و « ملحمة حرب الاستقلال » و« الثلج يسقط في الليل » ورباعيات و « رسائل وقصائد » ؟

لا ، لن اقول .. فللسكر طعم لا يذيقه اي تفسير ، وللجمال ألق لا يغني عنه اي تشبيه أو تقريب .. بل سأقدم للقارىء مجموعة من الشعر كالطفل تضحك وتجهش في يديه ، وتثب ، على هواها ، الى حضنه وعنقه وفمه ، وتهتف به : هوذاك يا ابن القرن العشرين !. فقد توقف المسافر وردة متواضعة في جنب الطريق .

وبحسبك ان تهيج الوردة ، لتملأ انفك بالعطر .

احمد شحادة

من اسرة الجبل الملهم



ديوان القروي

للشاعر القروي رشيد سليم خوري

سان باولو – مطبعة صفدي التجارية – ٩١٦ ص

هذه نظرة خاطفة في ديوان القروي ، هذا الشاعر الذي يُعدّ بحق في طليعة شعرائنا المعاصرين الذين فهموا رسالة الشاعر فهماً عميقاً صحيحاً . فقد كرّس الاستاذ رشيد سليم الخوري شعره لمناهضة الاستعمار وتحطيم الطائفية وتمزيق الجهل وإيقاف الطغيان عند حدّه ودقّ المسامير في تابوت الرجعية . وهوفوق ذلك من الشعراء الذين يجرفون ولا ينجرفون ويعطون اكثر مما يأخذون ، فكل قصيدة من قصائده إنما هي قطعة دامية من قلبه ونفثة مستعرة من روحه وصرخة داوية من جوارحه واعماقه . وهو من الذين تنقاد لهم الالفاظ بذلة ما بعدها ذلة وتستسلم لهم المعاني بخضوع ما بعده خضوع .. فهو من هذه الناحية فنان أصيل يترفع عن وضع الأردية النفيسة على الأجساد القبيحة كما يصنع شعراء الصناعة الذين جفّت قلوبهم وماتت أخيلتهم وتحجرت مشاعرهم ..

والمعروف عن الشاعر القروي انه شاعر قومي كبير ، بيد ان أُفق شاعريته واسع جداً وله قصائد إنسانية رائعة رفعته الى قمة الشعراء العالميين الخالدين . ومن هذه القصائد « الشر الكبير والخير الكبير » ص ١٤٨ و « حضن الام » ص ٨١٩ و « تسبيحة الحب » ص ٨٠٧ و « ابن وجدتُ الله » ص ٨٢٧ و « تنديل ١ » او وداع تنديل المنشورة في ص ٨٦٥ والتي تعد بحق من الملاحم الشعرية العصرية المشحونة بأجمل الصور وادقها واصدقها واعمق المعاني وارقها . فبعد ان يصف الشاعر اشواقه واحلامه يطرق كعادته باب الحماسة بعنف مدهش :

(١) تنديل مصيف ريفي بين بونس آيرس وثغر نيكوتشيا .

فقل لشعبٍ رام ان يستقل ليس وراء اليأس غيرُ الفشل
وانما ينقل هـذا الجبـل بالهمّة القعساء لا بالكسل
والعزم لا إيمان اهل الخمولْ

ثم يثور على النائمين ثورة يائس ضاع نصحه فيهم سدى :

وقل لمن ضلوا سبيل الهدى وضاع فيهم كل نصح سدى
يا وطني منك نفضتُ اليدا فمن يحاول عنك دفع الردى
حاول أمراً دونه المستحيل !!

ولكنه سرعان ما يحطم يأسه على صخرة عزمه وحبه لشعبه فيصرخ من اعماق قلبه :

لا ! لا ! ستحيا رغم انف الزمن بل انت حي رغم هذا الكفن
مادام حرٌّ واحد في الوطن فهو بهـذا الحر حرٌّ وإن
عاش به مليون عبدٍ ذليلْ

* * *

ولنستمع قليلاً الى « اعاصيره » التي تزأر في سكون جمودنا واستسلامنا وسنجد في قصيدة « عيـد الفطر » ص ٣١٤ كل ما نصبو اليه من اخاء صادق وتحطيم للطائفية العمياء التي شتتتنا وجعلتنا لقمة سائغة في فم الاستعمار :

اكرّم هذا العيد تكريم شاعر يتيـه بآيات النبي المعظّم
ولكنني اصبو الى عيد امة محرّرة الأعناق من رق اعجمي
الى علمٍ من نسج عيسى وأحمدٍ و «آمنة» في ظله اخت «مريم»
هبوني عيداً يجعل العرب أمةً وسيروا بجثماني على دين برهم
فقد مزّقت هذي المذاهب شملنا وقد حطمتنا بين نابٍ ومنسم
سلام على كفرٍ يوحّد بيننا واهلاً وسهلاً بعده بجهنّم !

ومن روائع القروي في باب « الزمازم » قصيدة « لحيّ » التي رثى بها المغفور له الملك فيصل الاول . وتعدّ هذه القصيدة في نظري من اروع واصدق واعمق المراثي التي قيلت في الملوك . وقد القى القروي هذه الخريـدة في مسرح « سرفنتس » في « بونيس ايرس » آخر عام ١٩٣٣ بدعوة من الجالية العربية . وقد بلغ من حماسة ألوف الحاضرين خلال إنشادها وبعـده ان عقد نائب رئيس الجمهورية الارجنتينية يده في يد الاقرب اليـه وهذا في يد من يليه حتى تألفت سلسلة من الايدي بلغ آخرها يد الشاعر على المنبر وهزوها جميعاً هزة الاعجاب . وهي قصيدة طويلة تبلغ المئة بيت . استهلها الشاعر بالاشادة بوطنيـة الملك البطل المغفور له غازي الاول وبتصوير مواقفه الرائعـة ضد الاستعمار ومن ثمّ اشاد باعمال الفيصل وبالخسارة الكبرى التي حلت بالعرب بفقده . وحسبك ان تعلم بان كل بيت من هـذه القصيدة لا يقلّ روعة عن هذه الابيات التي خاطب بها المرحوم فيصل الاول :

وكنتَ لاجل المجد بالمال زاهداً وكنتَ لاجل العرب بالمجد زاهدا
وكم خضتَ لاستقلال شعبك لجةً وكم جبتَ آفاقاً وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تلق مرساة مطمح الى المجد إلا سامك المجد ابعدا
مشيت له تستبطىء البرق مركباً وادركته تستوطىء النجم مقعدا
ارح كبداً حمّلتها كل فادحٍ من الهمّ يُعيي الشمّ لو كنّ اكبدا
طعام على مضٍ وشرب على قذى ومشي على جمر ونوم على مُدى
صعدتُ جبال الالب تنشد راحة وعدت كأن الالب في القلب صعدا
كلا كل هم لو انيخت «بيذبل» لعاد «بزوفاً» يقذف الجمر والردى

* *

وللقروي قصائد غزلية تنضح صدقاً ورقة وعمقاً وروعـة وجمالاً جمعها في باب « زوايا الشباب » من ديوانه الجديـد . ويكفي ان اشير الى قصيدته الجميلة « لبستُ الى العذراء » ص ٧٠٧ وهي حكاية قصيرة وبسيطة ولكن خيـال شاعرنا العظيم صبغها بالوان ساحرة . استهل الشاعر قصيدته بهذين البيتين :

لبستُ إلى العذراء جبة راهبٍ من الليل لم تعلق بها كف ناسج
وبتّ حيال القصر ارعى إشارة بابيض يعني جىءْ واحمر لا تج

إلى ان يقول :

فلما أزيح السجن اورق طالعي وازهرَ في منديلها المتماوج
وراح فؤادي واثباً في أضالعي كوثبي في اعطاف تلك المدارج

ثم يعانق الشاعر حبيبته عناقاً حـاراً ويصف هذا العناق وصفاً رائعاً لم اجد له نظيراً في شعرنا العربي :

وقعتُ عليها وهي في رعدة الهوى فلاذت بصدري تصطلي بلواعجي
ورحتُ بروض النهد والخد عابثاً أنقل كفي بـين فج وناضج
وعين الهوى تحت الظلام بصيرة بما عنه تعمى تحت نور المسارج
وكم فاز من دنيا الهوى عدم شاعر بما عجزت عنه كنوز المهارج
فقالت وقد أحرجتها بدعابتي لك الله فانهج غير هذي المناهج
تعلمني في الحب عادات شاعر وتنزلـني منها على غـير دارج
فقلت ذريني انتهب فرصة الهوى وأقضي من العمر القصير حوائجي
بصدري كنوز للغرام خبيئة وهذا الذي شاهدتِ بعض نماذجي
فتنتُ الغواني قبل ما طرّ شاربي فدائي داء مزمن لا تعالجي !!.

* * *

وبعد فجـدير بكل عربي يحسن القراءة والكتابة ان يقتني او يطالع على الاقل هذا الديوان النفيس الذي ضم بين دفتيه آلام واحلام وآمال أمته مثلما ضم أصدق وأعمق الأحاسيس التي جاد بها القلب البشري في كل العصور ...

بغداد **حارث طه الراوي**

رقصة الاطياف..

أقبلنَ فارتعشت باللحن اوتـــاري
يرقصن حول سريري رقصة النار
شُقْر الغـــدائر في أعطافهنّ غوىً
مؤرقٌ كأساطيري وأفكاري .
تطوي الخصورُ على آه فينشرهـــا
لحن يصعّـــد من اغوار اغواري
فلا ترى غير قامات مرنحـــة
يزجي خطاها ويحدو صوت خمّـــار
كأنهن ظلال الروح هائمـــةً
كأنهن سبايا الوجـد اسراري
متى خلوت إلى ذاتي أهاذنهـــا
هتكن في ظلمات الليل استاري
ورحن يرقصن حتى ينتشي نهمي
ويستبحن أناشيدي وأشعـــاري

★

هذي تحدّق في كأسي مداعبـة
وتلك تعبث في أوتار قيثـــاري
رؤى تطوف ببـالي إذ يراودني
لحن غريب ويخبو همس مزماري
هنّ ابتسامات روحي في كآبتها
وهنّ كأسي وأحلامي وسمّاري

مصطفى محمود
من اسرة الجبل الملهم

دعـــاء..

سألت القلب ، عن دنياه .. ما دنياك يا قلبي ؟
فهذي ضجـــة الحرمان ، تلذع نارها جنبي
وهذا موكب السعداء ، يزحم ركبه دربي
لكم أزرع آمالي .. فما أجني سوى جدبي ؟!

★

احس دبيب ايامي ، تسارعـني الى النحب
وشمس شبابي المحروم ، قد مالت إلى الغرب
احس بقسوة الهجران تذرو ناضر الحب
احس بوحشة الايام .. والاحلام .. والصحب
احس بان أغلالاً يُضيّق قيـــدها رحبي
تمر مواكب النعمى .. واشهد فرحة الركب
وما حظي سوى ما شاهدت عيناي عن كثب
وأسأل نفسي الحيرى : تُرى يا نفس ما ذنبي ؟؟

★

لقد اشفق محروم بان يلقـــاك يا ربي ..
فتبدو لهفة الحرمان في جنّاتك الغُلب !!
فهيّئه إلى نعماك ، وامسح لهفـــة السغب
إذا مست يدا رحماك اجدابي .. فذا حسبي .

مكة **عبدالعزيز الرفاعي**

بالتقسيط !

قصة جديدة بقلم نهاد الغادري

اعتمد على الطاولة بمرفقيه ، وقد تقبض وجهه واربدّ ، وأراح رأسه الكئيب المتعب بين كفيه ، مثقلاً بالخواطر كزهرة شاخت على غصنها الظامىء ، في ثراها الجديد .

لم يكن الانذار مفاجئاً بالنسبة اليه ، فقد كان مستعداً له بسبق التوقع ، متوجساً منه ؛ ولكن أمد التسويف قد انقضى ولم يبق ثمة مجال لمماطلة جديدة ، ووعد جديد ، فما العمل ؟!

لقد حلت اللحظة الحاسمة ، وليس بعد انقضاء مهلة الانذار سوى الحجز ، فالدعوى ، فالجرجرة إلى المحاكم ، وهو ما يعتبره فضيحة ومهانة !

صحيح ان الحاكم صديقه ، ولكن هذا ما يزيد المشكلة تعقيداً ، فليس بجانبه متكأ حق ، وهو بعد ليس مستعداً لأن يكذب فيخلق باباً لتأجيل الدعوى ومطها والأخذ والرد بها ، ولقد يربحها في النهاية ، كما يربح كثير من الناس دعاوى باطلة ، ولكنه يخسر نفسه ، يخسر كرامته ، يخسر كل ما جاهد لفهمه والايمان به من مثل وقيم !

ما العمل إذن ؟

ما الحل ؟

ودار رأسه ، واستسلم لخواطره ، فأرخى لها تجوب آفاق ماضيه ، مستعرضة ما أثاره هذا الانذار بين يديه :

نزل الى الحياة دون ان يتزود بسلاحها ، السلاح الذي تعترف به الدولة ، ويقره المجتمع ، فقد كان نظيف الرأس من كل سخافات المدرسة وتفاهاتها ! ولم يكن يحمل شهادة عليا ، ولا سفلى ، فقد ترك الدراسة قبل ان ينهي المتوسط منها ، وانصرف الى الحياة يجاهد أثقالها ويحمل أعباءها بكاهل رجل ، وهو لما يقطع السابعة عشرة من سني حياته .

ولكن حظه من الثقافة كان وفيراً بالقياس إلى حملة الشهادات العليا منها ، ولم يكن يرى فيهم — دون اطراد لهذا الرأي فقد يشذ عنه ذو موهبة — الا مجموعة من السخفاء فصلتهم المدرسة على قياس واحد ، أو أقيسة متشابهة ، كما يفصل الخياط بذل التعهد ، وقذفتهم الى الحياة ليفسدوها ، أو ليزيدوا من فسادها فان الفساد موجود في رأيه مع الحياة منذ وجدت الحياة !

وقد تفتحت نفسه بهذا الحظ الوافر المكتسب من الثقافة ، وعرف به حقه ، حق وجوده وآدميته ، فآلمه أن يجد ما يجد من فوارق لا مبرر لها فيما يعلم ولا منطق .

واضطرته الحاجة أن يكون انساناً يأكل بكد اليمين وعرق الجبين ، فهو يكدح ويشقى ليظفر من عمله اللاغب بثمن الخبز ، ثم انتهت به الى ان يصبح موظفاً صغيراً بسيطاً ، براتب تافه هزيل ، يلتمس الكفية من طريقه !!

ومضت به الحياة لا تعبأ ، وتزيده ظلماً ونكداً ، وعسفاً وبغياً ، ليزيدها عملاً وجهداً ، وكرهاً وحقداً ، حتى أتعبته وما أتعبها ، وأشبعته وما أشبعها !

وكان على كل ما يحمل فوق كتفيه الصغيرتين الواهنتين من أثقال وأعباء ، فيه طيب وخير ، سريع الغضب ، سريع الرضى ، فما يكاد يعبس ويتجهم كلما أثاره حادث حتى يفيء الى شيء من بلادة الاحساس المكتسبة مع الزمن والألم فيرضى .

وكان كريماً ينفق ما في الجيب مؤمناً بالمثل ، دون ان يأتيه شيء من هذا الغيب الكز ، المقبوض اليد عنه في قسوة مصممة ! فكان بهذا كثير الاستقراض ، فاستنزف الدين موردة ، وأصاره الى ضنوكة ، وكان لا يبقى له في آخر كل شهر الا شوية يسيرة لا تسد ثقب حاجة !

ولم يكن له في حياته الشقية البائسة هذه ، من يعينه بكلمة ، أو يخفف عنه ببسمة . فلم تكن له ام ، أو كانت له ام فقد وجودها الحلو ، ولم يفقد ذكراها المشوبة بالمرارة . وكان كثيراً ما يحس بحاجة ملحة جارفة الى صدرها الحار ، يسند رأسه الكئيب اليه ، ويدها اللينة تمسح على وجهه بحنانها ورحمتها ، كلما أطبق عليه الالم ، وتكاءدته عقبات الدروب ، فتغلبه دمعة حارة ، تصعد الى عينه مالحة محرقة .

وكان له أب مرزوء يستحق المرثية حقاً ، فلم يكن خيراً منه حظاً في الحياة ، بل لعله أسوأ ، وأشد كاوحاً ، ولعله ورث عنه فيما ورث هذا الحظ !

حتى الحظ يرثه الابناء عن الآباء ؟!

مضت به الحياة على هذا ، تزيده ويزيدها ، وتوسعه ويوسعها وتتعبه وما يتعبها ، ويبذل الجهد كبيراً فوق طاقة شبابه الغريض ، حتى كان يوم تعرّف فيه برفيق .

ولم يكن بينهما رابطة سوى مشابه من الحرمان ، فقد كان

رفيق على جانب من ثراء حديث ورثه عن ابيه أيضاً ! ولكن علاقته به نشأت مما استقر في نفس صديقه الوارث من شعور بالتفاهة ، فقد عاش حياته محروماً مقتراً عليه في كل شيء ، بين أب قاس ، وجارية سيطرت عليه بعد وفاة امه فنزلت منزلتها وصارت سيدة البيت المطاعة واصبح لها من بعد خدم ! فكان رفيق بهذا ثرياً ولا يحمل نفسية طبقته ، أولم يكن قد حملها بعد، حين عرفه ، ومن هنا نشأت الرابطة بينهما .

ودعاه رفيق مرة الى بيته ، فقد كانت معرفتهما لا تتعدى حدود المقهى يلتقيان فيه على موعد ، وعلى غير موعد ، فلبى الدعوة ، وكان ذلك اليوم نقطة التحول في حياته البليدة .. وليته لم يكن !

كان بيت رفيق كثير الفراش ، مترفع الرواء ، فلما عاد الى بيته في المساء ، ودخل غرفته الفقيرة ، راعه ان وجدها غريبة عنه ، جديدة عليه ! لقد تفتحت عيناه فهو يراها الآن ، وكأنها قطعة من الشارع الأصلع ، مقفرة مجدبة ، ليس فيها ما يشعره انها عشه الذي يأوى اليه ويقضي اكثر ساعاته فيه .

وانحط كومة من الألم البليد على كرسي من الخشب ، يميد ويتخلع ، يفكر في حياته هذه التي كتبت عليه ان يعيشها حيواناً غليظاً خانعاً، مع فارق ، فان الحيوان يجد من يعلفه ويسقيه شبعاً ورياً ، اما هو فعليه ان يكدح ويشقى في سبيل علفه وشرابه دون الشبع والري ، او بهما في اقل شرط وأدنى مستوى .

وبدت له حياته الفقيرة ، المعدومة الفرص والامكانيات ، صورة ناقصة لم تتم ، وضع خطوطها رسام نزق لم يؤاته الصبر على اكمالها ، فعبث بها ، وتركها خطوطاً تشير الى صورة وليست بصورة ، كما يشير هو الى انسان وليس بانسان !!

وتساءل : لماذا وُجد في هذه الحياة ؟ انه يعيش لأن الموت ليس في مستطاعه أو ملك يديه ، ولو استطاعه او ملكه واندفعت أمام عينيه فكرة وليدة مباغتة : انه يملك ان يموت ! نعم الموت في مستطاعه .. فلينتحر !!

ولكنه سرعان ما نفض الفكرة نفضاً من رأسه ، فالانتحار جريمة ، وهو يريد الموت لا الانتحار . يريد الموت طبيعياً ، لا يحسه ولا يشعر به ! ثم لماذا ينتحر ؟ لماذا يموت ؟ ألأنه فقير منكود ؟ ان نصف هؤلاء الناس المحيطين به ، هذا القطيع البشري ، بل تسعين في المئة منه ، مثله ، لا تربطهم بالحياة سوى صورة التمثال لم يتم المثال صنعه ولم يسوّ خلقه .

ودار رأسه دوراناً سريعاً ، وأحس بشيء كالاعياء يؤود جفنيه ، فأطبقهما اطباقة من لا يريد ان يفتحهما ابداً .

وتدافعت موجات عكرة عاتية من الخواطر على رأسه وحسه ، وانتشر ماضيه امام عينيه بكل ما فيه من ألم جاف خشن ، اشباحاً مروعة ، كمقبرة نبشت ألحادها مرة واحدة ، وانتصب سكانها هياكل عارية :

ترى ؟ لماذا وجد ، وما الغاية من وجوده ؟ ولماذا يولد احدنا على طريق سهلة معبدة مفروشة بالورد ، وآخر على طريق شاقة غاصة بالمعاطب ، ولم يقدم الاول ما يستحق عليه هذا الخير الكريم، ولم يقترف الثاني مايجزى عليه هذا الجزاء اللئيم ؟

لماذا يفتح احدنا عينيه فاذا هو فوق القمة ، ويفتح الآخر عينيه فاذا هو في السفح ؛ ولم يعان الاول مشقة الصعود فيلقى، ولم تزل بالثاني القدم فيهبط السفح عجزاً ؟!

لماذا تتاح لذاك فرص الحياة ، وتفتح له ابوابها واسعة عريضة ، وتمنع عن هذا كل فرصها ، وتضيق جميع ابوابها حتى تغدو ثقوباً وشقوقاً وصيدة ؟!

لماذا هذا التفاوت ما دامت الحياة واحدة عند الاثنين ؟

لماذا يتفقان في المبدأ والنهاية ، كلاهما يجنّه بطن الام ، ويغيبه بطن الارض ، ويختلفان فيما بينهما من حياة ، واحدهما يقتله الشبع ، وثانيهما يمزقه الجوع ؟

لماذا يرث بعضنا الثروة والجاه ، والحظ الأبلج كنهار أبلج ؛ ويرث بعضنا الآخر الذل والفقر ، والحظ الأسود كليل ضرير ؟

أثمة حكمة ؟ أثمة عدالة ؟ أثمة منطق ؟. انه ان يكن شيء من هذا فان عقله أعجز من ان يدركه ، ولكن هذا لا يقدم في المسألة شيئاً عنده ولا يؤخر ، وما فائدته مما لا يفهم أو يعقل ؟!

واستطرد في خواطره ، وذهب الى أبعد فأبعد معها . وتكشفت له جوانب اخرى من المهزلة : فقد بدت له الحياة سباقاً ، ولكنه خال من أبسط قواعد السباق ، فلا تكافؤ بين المتسابقين ، وهم لا ينطلقون من نقطة واحدة ، بعضهم بوضع في اول الطريق ، وبعضهم في منتصفه ، وبعضهم الاخير في منتهاه على مقربة أو ملامسة من الهدف ! ولقد تتعقد المهزلة وتزيد في ضحكها الساخر ، وهزلها المجنون ، فيوضع ذاك

المستدق المنحرف ، المصاب بالكساح في اول الطريق ،ويوضع ذاك الممتلىء صحة ، الفوار حيوية في منتهاه .. وتطلق صفارة الحكم معلنة بدء السباق أو بدء المهزلة التي تسمى سباقاً كما تسمى حياته التي يعيشها ، حياة !

وعاد الى سؤاله الاول يلوكه من جديد ، وقد اثقله ألمه العاصف : لماذا وُجد في هذه الحياة ؟ انه لا يعيشها كما يجب ان يعيشها انسان ، ليس له فيها إلا نمو النبات ، كما تلقى بذرة القمح في الارض فتجنها إلى حصاد ، كذلك حياته ، وانه ليذكر جيداً بعد هذا انه خلق دون ان يسأل ، أو يكون له رأي في امر خلقه !

وبدا له في غمرة شعوره الجارف ، وثورته العارمة ، ان ليس امامه من منقذ سوى العمل .. نعم فليعمل عملاً اضافياً ، فليكدح في سبيل الحصول على لقمة أدسم وأنظف ، وبيت أجمل وأفضل .

ولكن كيف يستطيع العمل وهو يعيش في جو هذه الغرفة الضيق ، الشديد الوطأة ، المحتبس الانفاس ، هذه الغرفة المجدبة القرعاء ، كأرض صخرية حزن لا تنبت زرعاً ولا تبسم عن زهر . ليس امامه الا ان يملأها بشيء مما تملأ به الغرف .

كان متلهفاً على الاستقرار والاطمئنان ، ظامئاً الى الامن والراحة ، متوهماً ان الوسيلة الى ذلك سرير نوم ، وراديو ، ومنضدة ، وقليل من الكتب . فقد تحطم ظهره من نومة الارض القاسية ، والراديو سيفتح له نافذة على العالم بكل مافيه من علم وفن وأدب ، وحوادث وأخبار ، فيصرفه عن نفسه بعض الشيء .. ألا ما اشد حاجته الى من يصرفه عن نفسه .

ولكن من له بثمنها جميعاً ؟ انه لا يملك سوى راتبه الهزيل ، لا يكاد يُسكت به فماً شبعه خاطف موقوت ، وجوعه دائم ملحّ .

وهنا تمت المهزلة في نظره فصولاً . فليس مطلب فمه ولا معدته ، دون مطلب فم ذاك المحشو بالاطايب ، ومعدته المتخومة بالكظة !

وطاردته الغصة ، وشعر بشيء كالدوار ، وبرأسه يكاد ينفجر ، واحس كمن ركبته الحمى فلها على جسده نفض وارعاد ؛ فقام وانطلق الى المقهى يغيب في ضجيجه ، فان ملازمة التفكير على هذا النحو في نفسه ، لن تنتهي به فيما يرى إلا الى الخبال .

وجلس في المقهى مع لفيف من رفاقه يصرف نفسه في الحديث ، عن التفكير بأمره في صمته المخيف . ولكن حظه النكد ، وطالعه الشؤم ، كانا أتبع له من كلب ودود ، وأعلق من علق منهوم !!

فقد كان الحديث عن الراديو !

ولمعت عيناه ببريق غريب حين انتهى الحديث إلى التقسيط . ماذا ؟ واستدار يستوضح ويسأل : هل استطيع الحصول على راديو واشياء اخرى بالتقسيط ؟ ولم يمض عليه يومه ذاك حتى كان قد اشترى راديو ، وسريراً ومنضدة ، دفع من ثمنها جميعاً ٧٥ ليرة استلفها من زميل له ، وأحال البائع على نهاية كل شهر يدفع له فيهاً من راتبه ٣٠ ليرة . واستلف مبلغاً آخر اشترى به بعض الكتب ، ومبلغاً ثالثاً قضى به حاجات اخرى .

وفرك كفيه سروراً ، وشعر كمن يقف امام مروحة رقيقة الانفاس في يوم قائظ ذي لهب ؛ وبشيء من الارتياح يداخله ويشيع في جسده جميعاً ، وتحول سواد الدنيا في عينيه الى بياض ، وانفتحت له نوافذ الأمل العريض يطل منها على الجانب الأخضر من الحياة . اليوم هو مولده الحقيقي ، اما تلك الايام البليدة التي تقضت فليست من عمره في حساب ، وبدا له ماضيه كلطخة من طين قذر ، في ثوب أبيض نقي البياض ، هو مستقبل ايامه المشرقة .

ومضى الشهر فسدد قسماً يسيراً من دينه المقسط ، ولكنه استلف على الشهر التالي !. وجاء شهر آخر فسدد قسماً اقل ، واعتذر للدائن ، ووعده بسداد ما تأخر مع قسط الشهر القادم . وجاء الشهر الثالث فلم يستطع الوفاء ! وبدأ يطالبه اصحاب الديون الاخرى ، زملاؤه ورفاقه ، وكان يعتذر لهذا وذاك ، ويحيل الواحد على الراتب في نهاية الشهر ، والثاني على مبلغ آخر يزعم ان سيجيئه ، والثالث على دين له في عنق احد الناس .. وهكذا !.

وعاد للدنيا سوادها ، ولكنه اليوم سواد مرهق ثقيل جثم على صدره كما يجثم كابوس مزعج .

وبدأ يتهرب ، وبرع في التهرب ، فهو يذهب الى عمله ويسعى في مناكبها كالمعتاد ، ولكنه لا يسلك إلا المناكب المتعرجة الملتوية ، تحاشياً للقاء اصحاب الديون . وكان كثير اليقظة ، كثير الانتباه ، ولكنه مع حرصه ويقظته كان لا بد له من ان يفاجأ بأحد الدائنين يبرز له ، كأن الارض قد انشقت عنه ، فيمسك به الدائن مطالباً ، وكعادته — كما

صارت عادته ـ كانت تحضره الكذبة المنقذة ، عفو الخاطر ووحي الساعة ، ويواتيه الخيال ، فهو ناس مرة ، ومسافراً كان مرة ، وواعد بالوفاء اليوم أو غداً على أبعد حد ، مرة . وكان يرفقها جميعاً بابتسامة وببضع كلمات اعتذار تسيل رقة ، وتخجل الدائن ، فيصبر على مضض ظاهر وكره ملحوظ ، وهو لو استطاع لأنشب مخالبه في عنقه .

وتأخر عن وفاء دينه المقسط اربعة أشهر ، وكان يحيله في كل شهر إلى الشهر الذي يليه ، ثم كان ما لا بد له ان يكون ، وجاءت اللحظة الحاسمة التي هو فيها . فقد أنذره بسداد دينه في ثلاثة ايام ، مضى منها يومان وهو حائر ، ولم يبق امامه سوى يوم واحد ..

فما العمل ؟

لقد عاد إلى سؤاله الاول الذي تهرب منه . لا حيلة ولا مناص . لن تنقذه الذكريات أو الحيرة ، فليعمل ، فليواجه الواقع .

ولكن .. ما العمل ؟ ما العمل ؟ ما الحل ؟

ودار رأسه ، ومن جديد أحس بشيء كنفض الحمى ، وتمنى لو أن البطن الذي حمله كان قد ثكله .

ليس أمامه إلا ان يستدين . ولكن من يعطيه ؟! لم يترك صديقاً يعرفه ، ويعرف حقه عليه إلا واقترض منه ! لقد تورط بالدين وأصبح كمن ساخ في وحل عميق فهو يجهد للنجاة وكأنما هو يجهد للهلاك . أصبح كالغريق يغوص ويطفو ، وهو يشرق ويدفع ..

وفجأة، وعفواً ، ذكر « رفيق » ، صديقه الوارث الطيب . ليس غيره لها . فليأخذ منه سداد دينه . لن يؤذيه مبلغ بسيط ينجده به . عجيبة كيف أنسيه هذه الفترة كلها .

وقام يقصد « رفيق » ، غير أنه بدأ وقد ذهب عنه لمع المفاجأة يفكر : كيف يطلب من رفيق ؟ إنه لموقف سيء حقاً .. ولكن لئن لم يطلب فلن يكون الموقف خيراً منه الآن بل هو أسوأ .

ومضى في طريقه .. وما إن وصل البيت وهمّ بقرع الجرس حتى لمعت في ذهنه خاطرة جديدة : هل يعطيه رفيق ؟! ثم أن الحاجة مذلة ، فهل يقدم ؟ إن قرع أبواب الناس شيء هين ، ولكنه قد يغدو وصعود درج المشنقة أعز منه وأسهل. وأرخى يده قبل أن يضغط زر الجرس . لا ، إنه لن يطلب . إنه لن يذل نفسه أكثر مما اضطر ففعل . وتحول عن البيت ، وابتعد في الطريق .

ولكن ماذا يعمل ؟ كيف يحل هذه المشكلة الآخذة بخنقه ؟ صحيح أن الحاجة ذل ، ولكن هل يعتبر الاعتماد على الأصدقاء ذلاً أيضاً ؟ ولئن لم يكن الصديق لصديقه وقت عسره وشدته وضيقه فمتى يكون ؟ ولماذا الصداقة إذا لم تتقدمها التضحية ؟

واستراح بعض الشيء إلى هذه المناقشة، فقفل عائداً ، وهو يقتلع خطاه المترددة الواجفة من الأرض اقتلاعاً ، ورفع يده فضغط زر الجرس هذه المرة بسرعة لئلا يعرض له ما يثنيه من جديد ، وفتح له الباب رفيق بنفسه ، فرحب به وحياه ..

وتبع هو مضيفه واجف القلب جزعه وهو يتساءل : ماذا يحدث لو اعتذر رفيق ؟ إنه يكون قد أذل نفسه ، ولم تحل مشكلته . ولكنه بجرأة المستيئس قال وقد اقتعد كرسيه العريض الوثير: أتعلم ما جاء بي اليك يا رفيق ؟ قال رفيق وهو يبتسم ابتسامة مقتصدة : خير . قال : إنه القرش جلت قدرته . وروى له القصة كاملة ، وطلب منه أن ينجده بثلاثمائة ليرة . ولكنه لمح أو خيل اليه أنه قد لمح ، على وجه رفيق كمدة ووجوماً فعض شفته ندماً . كان من الخير أن لا يطلب .

وانفرجت شفتا رفيق عن سؤال : دين أليس كذلك ؟ فأجابه بغير وعي : طبعاً . وسأكتب لك بها سنداً، وأوفيكها بالتقسيط .

وقام رفيق بخطوات متثاقلة متباطئة، فأحضر أسناداً رسمية، وأخرج المبلغ من خزانته الخاصة المتخمة برزم من فئة المئةليرة وهو يقول بصوت خشن : لن آخذ فائدة منك عن المبلغ . ولكن أرجو أن تعتبر الصداقة شيئاً ، والدين شيئاً آخر .

ووقع صاحبنا السند ، وقبض المبلغ وهو مطرق واجم ما يحير لفظة ، ثم نهض شاكراً بصوت كان يخرج من أعماقه قطعاً من الألم الأسود .

★

إنه يستطيع الآن وفاء دينه للناس .

ولكن .. يا للسخرية اللئيمة .. لقد داوى المرض بالمرض ودفع الدَّين بالدَّين !!

حلب **نهاد القادري**

النشاط الثقافي في الغرب

روسيا

١ . في دنيا الاختراع

وفق البروفسور كيتاغورودسكي الى ان يبدع في مختبره حجراً تركيبياً جديداً أطلق عليه اسم Corundum microlit .

ويبدو هذا الحجر العجيب للناظر في شكل صفيحة صغيرة لبنية البياض تشبه قطعة من السكر كما يبدو هشاً وصغيراً الى درجة بالغة (ذلك ان نحواً من دزينتين منه يمكن ان توضعا في علبة كبريت عادية) تجعل المرء يتساءل : اي فائدة عملية يمكن ان تكون لمثل هذا الحجر الصغير ؟ .

وهذا الحجر مصنوع من الصلصال ، او على الاصح من احدى المواد التي يتركب منها « الالومينا » ، وهو الصلصال عينه الذي يستخرج منه الالومنيوم . وعلى حين تستطيع ان تخدش الالومنيوم بظفرك فأن اي محاولة تقوم بها لكسر احدى هذه الصفائح الصغيرة بأسنانك خليقة بأن تثبت إخفاقها وسوء مغبتها بالنسبة اليك .

وفي معرض حديث له عن مزايا هذا الاختراع قال البروفسور كيتاغوردسكي : حاول ان تمر هذه الصفيحة على لوح من زجاج بضغط طفيف فعندئذ تجد ان الصفيحة تترك خطاً دقيقاً عميقاً في الزجاج كمثل ذلك الخط الذي يغادره الماس فيه ، وتجد ان الزجاج ينقصف في سهولة ويسر على طول ذلك الخط الدقيق .

والماس كما نعلم لا يستعمل في قطع المعادن ، اذ ان استعماله جدير بأن يجعل الآلات القاطعة باهظة الثمن الى حد بعيد . اما الصفيحة الجديدة فهي لا تكلف غير بضعة دريهمات ، وهي مع ذلك تقوم بمهمة القطع على وجه ممتاز يجعلها اشد مضاء من ايما آلة قاطعة اخرى مصنوعة من اقسى الاخلاط المعدنية .

وقد جرب هذا الاختراع الجديد فاذا به يقطع الصلب ويصقل وجهه صقلاً لامعاً ، على حين لم تتأثر الصفيحة الصغيرة بما بذلت من جهد آلي ضخم ، وبالحرارة المرتفعة ، او بمقاومة الفولاذ العنيدة . لقد بدت ، على العكس ، «احسن حالاً» في اتون الحرارة المرتفعة ، واثبتت انها اقوى من التلين ، علة الأخلاط المعدنية على اختلافها .

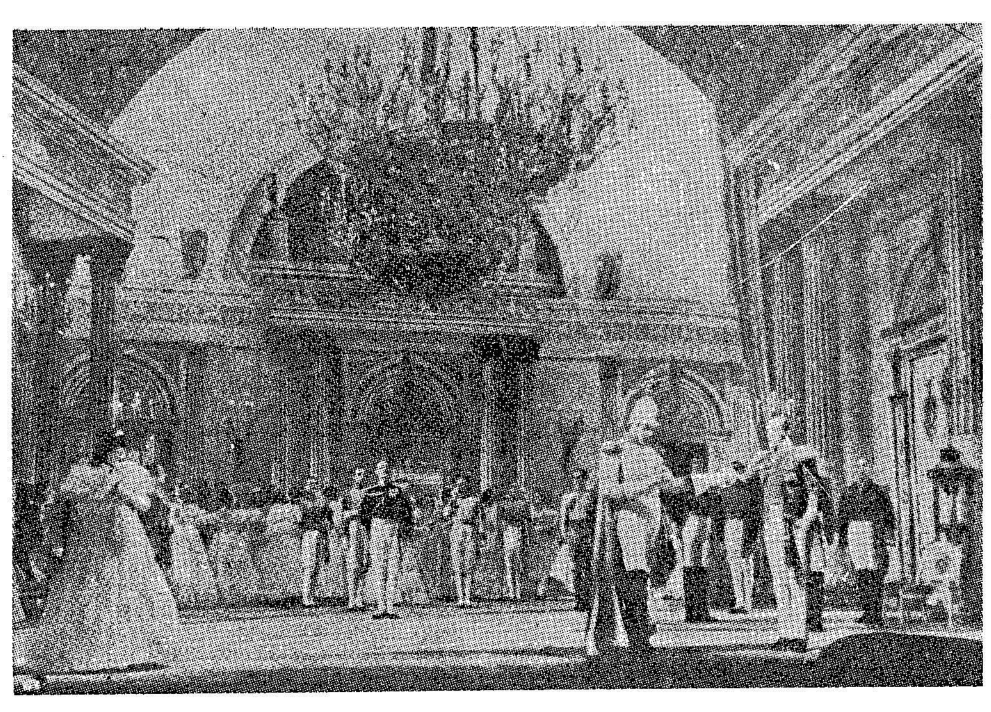
٢ . في عالم الموسيقى

زار العاصمة الروسية في الموسم الماضي عدد غير يسير من اعلام الموسيقى في اوروبة وآسية ، نذكر منهم بانتشو فلاديجيروف ، وبايان ليتشيف من بلغاريا . وهاينز بونغارتز ، وإيفا فلايشستر ، وهوغو ستويرر ، وجيرارد بوس من المانيا . وهالينا تسيرني ستيفانسكا ، وفاندا وياكوميرسكا من بولندة . واستمع هواة الموسيقى كذلك الى حفلات احياها موسيقيون من كوريا ، وهنغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا .

وينتظر ان تستقبل موسكو في الموسم القادم عدداً آخر من اعلام الموسيقى الاجانب . وسوف تقام سلسلة من الحفلات التذكارية لمناسبة مرور مئة وخمسين عاماً على مولد بيرليوز ، ومئة وخمسة وعشرين عاماً على وفاة شوبيرت . ليس هذا فحسب بل ستقام حفلات خاصة احياء للذكرى السبعين لوفاة سميتانا ، والذكرى الخمسين لوفاة دفوراك ، وسلسلة من الحفلات تعزف فيها مجموعة من آثار باخ وبيتهوفن . وسيستمع ابناء موسكو فوق ذلك الى موسيقى عدد من مؤلفي اوروبة الغربية في اواخر القرن التاسع عشر مثل « رافيل » و « ديبوسي » و « لالو » و « ريتشارد ستراوس » و « ماهلر » . كما سيستمعون الى اوبرا « توسكا » Tosca لبوتشيني ، و « مايستر سنجر » Meister Singer لفاغنر ، والـ Italiana In Algeri لروسيني ، و Pagliacci لليونكافالو .

٣ . في عالم المسرح

في اواخر حزيران الماضي قدم مسرح بولشوي Bolshoi في موسكو اول عرض للاوبرا الجديدة التي وضعها « يوري شابورين » Shaporin باسم « الديسمبريين » وقد بنى المؤلف رائعته الموسيقية هذه على اساس من ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ المعروفة «بثورة الديسمبريين» . وقد لقيت هذه الأوبرا اقبالاً عظيماً من ابناء العاصمة الروسية ، ويمثل الرسم أدناه مشهداً من الفصل الثالث من الأوبرا .



النشاط الثقافي في الغرب

٤ . قصة جديدة : « ايام حياتنا »

تعتبر فيرا كيتلنسكايا Ketlinskaya كاتبة تسابق الزمن دائماً ، لكي تعكس في آثارها القصصية ابرز مظاهر الحياة المعاصرة .

يضاف الى ذلك ان رواياتها هي الى حد بعيد ثمرة ملاحظاتها واختباراتها الشخصية . فقد وصفت في روايتها الاولى ، واسمها « شجاعة » ، بطولة اولئك الذين بنوا « كومسومولسك » ، مدينة الشباب في قلب سيبيريا ، واشادت بعملهم البطولي الذي شاركت هي فيه بنفسها . وفي روايتها الثانية ، « المدينة المحاصرة » وصفت فيرا محنة لينغراد اثناء الحصار النازي ، وقد ذاقت مرارتها بنفسها ايضاً .

أما الحوادث التي تعرضها كيتلنسكايا في روايتها الأخيرة « ايام حياتنا » Days of Our Life فتقع في أيامنا هذه . وانما تدور هذه الحوادث في احد مصانع التوربينات Turbines الكبرى . وهنا ايضاً قامت المؤلفة بدراسة دقيقة للحياة في ذلك المصنع ، قبل كتابتها القصة ، مما مكنها من ان تعطي القاريء صورة صحيحة صافية عما رأت ، ويسر لها أن تعدي القاريء بحماستها اللاهبة للحياة اليومية في ذلك المصنع الكبير ، فاذا بنا نتتبع في شوق عارم جهود العمال ، يوماً فيوماً ، من اجل استباق الموعد المحدد لصنع « توربين » ضخم ينتظر ان يستخدم في احد المشاريع الانشائية الكبرى .

وقد رسمت المؤلفة شخصيات قصتها رسماً بارعاً ينم عن تبصر سيكولوجي عميق . فهناك نميروف ، مدير المصنع ، وهو رجل ذو عزم شديد وامانة خارقة ، وبولوزوف ، المهندس ، وهو روح نابضة بالحياة لا تعرف الهدوء والاستقرار ، وفولوفيك ، العامل ، وهو مخترع دؤوب ورب اسرة عطوف . تلك هي بعض الشخصيات التي لا تنسى ، في هذه الرواية . وايا ما كان فاشخاص الرواية جميعاً ، الابطال ومن هم دون ذلك ، يتميزون بأنهم كائنات بشرية من لحم ودم فلهم نقائصهم ونواحي ضعفهم المعتادة . ونحن نرى ، هنا ، ان العمل وسط جماعة يظلها سقف مصنع كبير يساعد على تكييف شخصيات العمال وتطويرها ، كما قد جرى لأركادي ستوبان وهو فتى كسول من طراز « المتوددين الى النساء » الذين لا يصلحون لشيء . فقد تطور تدريجياً حتى انتهى الى ان يصبح عاملاً من الطراز الأول ورجل شرف واستقامة .

٥ . كتاب جديد عن مارك توين

الشعب الروسي معجب بالكاتب الأميركي مارك توين . فمنذ اواخر القرن التاسع عشر نشرت احدى دور النشر الروسية مجموعة لمؤلفات مارك توين تقع في احد عشر مجلداً . وقبيل الثورة نشرت اربع مجموعات اخرى من آثار هذا الكاتب الكبير .

واعجب الكتاب الروس الذين عاصروا مارك توين بمؤلفاته ايضاً . وتركت شخصيته اثراً عميقاً في نفوس من قدر لهم الاجتماع به . وقد وصفه ماكسيم غوركي في مقال له لم يتم ، فقال : « إن مقداراً ضخماً من الشعر ليغطي جمجمته المستديرة ، فكأنه الألسنة المتوثبة من نار باردة بيضاء . وإن اجفانه الناعسة تكاد تخفي دائماً تألق عينيه الرماديتين الذكي الحاد ، ولكنه ما إن ينظر اليك مباشرة حتى تحس ان كل تغضن في وجهك قد طلي بالغراء فهو يحتفظ بوضعه ذاك ليذكرك به أبد الدهر ... لقد بدا لي شيخاً كبيراً عالي السن ، ولكنه كان واضحاً تمام الوضوح انه انما كان يمثل دور الشيخ الكبير ، لأن حركاته واشاراته كانت من العزم والقوة والرشاقة بحيث انستني لحظة شعره المشتعل شيباً . »

واستشهد غوركي في بعض كتبه بكلمة مارك توين عن الثورة الروسية التي نشبت سنة ١٩٠٥ . « حواجز وسدود في موسكو ! اجل ، نحن نستطيع أن نفهم ذلك ، على الرغم من ان الحواجز والسدود لا تقام عادة من اجل جمع الدولارات ...

وفي ايامنا هذه يتمثل اعجاب الكتاب الروس بمارك توين في ما قاله الكسندر فادييف في هذا الصدد :

« في القرن التاسع عشر لم يكن في فرنسة كاتب واقعي اكبر من بلزاك وفي انكلترة اكبر من ديكنز ، وفي اميركة اكبر من مارك توين . »

ومن هنا لم يكن غريباً ان تصدر مؤخراً الكاتبة م. بوبروفا M. Bobrova هذه الدراسة النقدية لحياة مارك توين وآثاره. وقد احسنت المؤلفة في التأكيد على نزعة مارك توين الى تصوير الشرور والسخرية بها وهي ناحية قلما عني بها الدارسون لأدب هذا الكاتب الاميركي العظيم في ديار الغرب .

ايطاليا

١ . معرض هام للوحات بيكاسو

أقيم في الشهر الماضي في روما معرض هام كان جميع المعنيين بالفن في ايطاليا ينتظرونه بفارغ الصبر . وقد عرض في هذا المعرض قسم كبير من آثار الرسام الشهير بابلو بيكاسو التي انتجها بين ١٩١٤ و ١٩٥٣ ، وتضم مئة وسبعا وثلاثين لوحة واربعين محفوراً واربعين ليتوغرافا وتسعة وثلاثين سيراميكا اختارها كلها بيكاسو نفسه . وقد افتتح المعرض الذي أعد بعناية وذوق رئيس الجمهورية الايطالية لويجي اينودي ، وخصصت له اربع عشرة قاعة من « متحف الفن المعاصر » اضيئت اضاءة فنية ممتازة .

وتمثل هذه اللوحات جميع مراحل التطور الفني لبيكاسو ، باستثناء « المرحلة الزرقاء » ، فقد كان المشاهد يستطيع ان يرى « المدخن » (١٩١٤) وهو مثال نموذجي « للتكعيبية التركيبية » وبضعة « صور لبول » (١٩٢٥) وهو ابن الفنان ، وكلها تصف مرحلة نيو كلاسيكية ، و « نساء جالسات » (١٩٣٢ — ١٩٣٩) تبدو فيها نزعة بيكاسو الى النيو رومانتيكية ،

النشاط الثقافي في الغرب

وعدداً من الطبائع الميتة العجيبة حيث رؤوس الثيران السوداء او الحمراء ورؤوس المعزى تؤلف عناصر التأليف الرئيسية ، واخيراً لوحتين كبيرتين جداً بعنوان « الحرب والسلم » (١٩٥٣) صنعتا لتزينا معبد « فالوريس ». واحدث لوحات بيكاسو هي رسوم لمناظر عائلية تستأثر بمعظمها صور زوجته وابنه كلود وابنته بالوما . ونذكر من التماثيل بضعة رؤوس من البرونز والحديد : « العنزة » (وقد عرضت في السنة الماضية بمعرض نوار بباريس) و « الرجل ذو الخروف » المدهش ، و « غينون وطفله » الغريب ، وبومتين من السيراميك .

وسواء اهتم بيكاسو باختراع الشياطين او بتشويه الواقع او برد الطبيعة الى عناصر هندسية بسيطة ، او عني باكتشاف الميزة الرئيسية او الايقاع الصحيح لوجه من الوجوه ، وذلك عن طريق « إعادة تنظيمه » بواسطة اسب دقيق بالخطوط والالوان ، فهو لا ينی يعبر عن انفعال داخلي مجرد من اي صناعة فكرية .

وقد صرح جان كوكتو بانه قد تأثر عظيم التأثر بلوحة بيكاسو المساة « السلام » وهي من روائعه الاولى . وبالأمكان تلخيص فن بيكاسو بانه يهدف الى هز الضمائر واحداث انقلاب فيها . واذا صح ان يحكم على اثر ما بما يتركه في نفسه الجمهور ، فبالامكان الحكم بان بيكاسو قد نجح في « قلب » ضمائر المتفرجين الذين اقبلوا على مشاهدة هذا المعرض .

٢ . مجلة فكرية راقية

ظهرت في الشهر الماضي مجلة ثقافية رفيعة باسم « نيـوفي ارغومانتي » (البراهين الجديدة) يقوم عليها الكاتبان الشهيران البرتو مورافيا والبرتو كاروسي . وتهتم هذه المجلة بالتماس الحلول لضع قضايا تمت الى الثقافة والسياسة والحياة الفكرية واليومية التي يعيشها الناس منذ الحرب الأخيرة .

وقد خصص جزء كبير من العدد الاول من هذه المجلة لتحقيق عن «الفن والشيوعية » كتبه احد المديرين مورافيا ، وذهب فيه الى ان « الفن الغربي قد بلغ درجة من الانحلال اتخذها الشيوعيون موضوع سخريه . » ولكنه ينعي على الفنان ، في بلد كل شيء يخضع فيه الى حاجات الجماعات ، الا يتمتع بحريه التصرف والخلق وفق هواه . وهذه ملاحظة ليست جديدة توجه الى الفن الروسي .

ومجموع المقالات المنشورة في هذه المجلة على غاية من الأهمية ، بالرغم من انها لا تقدم الحلول للخلافات التي تضع وجهاً لوجه ، على الصعيد الفني او السياسي ، كتابا وفنانين ذوي مواهب غنية . وهذا العدد يكفي للحكم بان المجلة تتناول قضايا تهم اكبر عدد من المثقفين الطليان .

٣ . احدث المؤلفات الايطالية

تحتل واجهات المكتبات في هذه الايام مجموعة من المؤلفات الجديدة من اهمها روايات « فتيات سانفريديانو » بقلم فاسكو براتوليني ، وهي تمتاز بحس دقيق للنكتة ، وتروى قصة شاب يغوي فتيات احد احياء فلورنسا الآهلة بالسكان . وينتهي الامر بهذا « الدونجوان » الى ان تتضافر عليه ضحاياه من الفتيات وينتقمن منه . والاقبال على هذه الرواية لا يزال شديداً .

وتضم مجموعة « البيع بالمزاد » عدة اقاصيص كتبتها فيرا كاسياتوري التي تتميز بحس الدراما الانسانية ، وينعم ابطالها بشيء لا واقعي يجعلهم يعيشون خارج الحياة ، بالرغم من انهم مسجونون ضمن شقاء يومي رتيب ، يبدو ان حقهم الوحيد فيه ان يموتوا واعين الاحلام والشعر الذي يحملونه في نفوسهم . ان الحياة والذكريات والامل لا تباع بالمزاد : هذه هي العظة التي ترشح من هذه المجموعة الطاية .

اما ماريو توبينو وهو طبيب نفساني ، فتبدخانا روايته « نساء ماغليانو الحرائر » في عالم المجانين العجيب . والكتاب على شكل مذكرات يحرص فيه مؤلفه على إظهار هذه الكائنات في مظاهر تحببهم الينا . فلئن كان القدر قد أصابهم بالمأساة ، فان العواطف التي تضطرم في صدورهم تتميز دائماً بالبراءة والطهر .

ولنذكر اخيراً رواية جيوز ريمانيللي « صيد الحمام » وهي حكاية حربية يحدثنا فيها مؤلفها الشاب كيف سيق الى القتال بجانب الفاشيست بعد هدنة ١٩٤٣ ، وهو بالاجمال كتاب ممتاز نشاهد فيها قلق شاب ينغمر في العمل ليكسب كل ما يبدو له عبثا معنى من المعاني النبيلة .

٤ . بعض انباء السينما

يقوم روبرتو روسيليني بتمثيل فيلمه « رحلة الى ايطاليا » مع زوجته انغريد برغمان وجورج ساندرز كبطلين رئيسين ، بينما يعد دوسانتيس فيلمه (ترافياتا ٥٣) . وقد اعلن كذلك عن فيلمين نافرين ، احدهما بعنوان (توتو ٣ د) والآخر هو (الاوذيسة) الذي يخرجه ماريو كاميرين ويقوم بتمثيله سيلفانا مانغانو وكيرك دوغلاس .

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

١ . مناقشة الشهر

لمراسل « الآداب » الخاص

منذ شهرين خصصت « التايمس » ملحقاً ادبياً بالأدب الفرنسي . ومن اهم المقالات التي تضمنها هذا الملحق الخاص مقال كتبه تشارلز مورغان الذي تبنته فرنسا (وهـذا ما أثار بعض الدهشة في بريطانيا) ، وعرض فيه علاقات الأدبين الفرنسي والبريطاني . وقد علق شارل غوبو على هذا المقـال في « الجورنال دو جنيف » .

ويذهب مورغان الى انه « ليس كل شيء عـلى ما يرام بصدد المبادلات الفكرية بين فرنسا وبريطانيا ، ففي كلا الاتجاهين يقوم تيار منكسر » .

ويعلل شارلز مورغان هذه الظاهرة التي يشير اليها بالتأثير الاميركي الذي هو اعمق في بريطانيا منه في فرنسا ، ويستشهد بهنري جايمس و ت.س اليوت وهمنغواي وفولكنر ، ولجميع هـؤلاء تأثير عميق يعمر مكتبات المملكة المتحدة . ولكن شارل غوبو يرد على ذلك بقوله إن جايمس واليوت اللذين تجنسا بالجنسية الانكليزية ليس في ادبها طابع اميركي متميز . واما فولكنر وهمنغواي فقد طبعا الأدب الفرنسي بطابع بلغ من عمقه ان الفرنسيين لا يحسدون جيرانهم البريطانيين على شيء في هذه الناحية . ويذهب غوبو الى ان تعليل هذه الظاهرة مردود بالأحرى الى تعارض النزعة العقلانية التقليدية في فرنسا والنزعة التحكمية التقليدية في بريطانيا .

ولم يغب هذا التعارض طبعاً عن مورغـان ، ولكن الأدب الفرنسي في رأيه مهووس بالايديولوجيين امثال وجوديي مدرسة سارتر وسواهم من الذين يقوم خطأهم على انهم يؤلفون النظريات قبل ان تتيح لهم الظروف ان يحققوها.

هذا وقد اشترك في مناقشة هذه الأقوال اندريه بيللي عضو اكاديمية غونكور. فتساءل في التعليق على هذا القول الاخير : « من من كتابنا الثائرين كان عليه ان ينتظر ان تقره الاحداث ليكون احتجاجه على عبث الوضع الانساني ؟ الحق ان مورغان شديد التطلب في قضية التجربة ، وهو إن كان راضياً عن المصير المكتوب للانسان في هذه الحياة الدنيا ، فان تطلبه ، في مقابل ذلك ، ضعيف من هذه الناحية. ونحن قد نقره على ان كتابنا قليلو الاختلاط بالحياة، او ان آثارهم على الاقل تخاف هذا الشعور ، ولكن هذه ميزة كان الادب الفرنسي ولا يزال يتسم بها ، وان النقد الفرنسي قد شكا منهم دائماً ونعى عليهم ذلك » .

وروى اندريه بيللي اخيراً انه اجتمع في المدة الاخيرة باربعة كتاب او خمسة من المطامين اطلاعاً وثيقاً على الأدب الانكليزي، فحدثهم عن القضية التي اثارها تشارلز مورغان : هـل التأثير الفرنسي في بريطانيا ضئيل بالنسبة للتأثير الاميركي ؟ فعجب هؤلاء الكتاب جميعاً ، وذكروا ان كبار الكتاب الفرنسيين ينعمون بحظوة وتأثير كافيين في بريطانيا .

٢ . جوائز الاكاديمية الفرنسية

منحت الاكاديمية الفرنسية جوائزها للشعر هذا العام الى عدد من الشعراء المحدثين . فكانت جائزة « ارشون ديسبيروز » من نصيب فرانسواز دي فارين على ديوانها « السيدات اللواتي يمررن» ، وريموند لوفيفر على ديوانها « قصائد لأحد الاطياف »، وكانت جائزة «ارتيغ» من نصيب جاك نوار على ديوانه « التي لم تحب حباً كافياً » وجائزة « سولي بريدوم » لجاك كرافت ، وجائزة برنار لسيمون شيفاليه على «الزمن يذهب» وجائزة « لابيه فوكلين » لأليس كاوشيه على مجموعتها الشعرية « القلب والصليب » .

هذا وقد منحت جائزة «سانتونج» لجان سوربيه على روايته «الصلصال».

٣ . مجلة .. وخطة

عادت مجلة (رواية) Roman الى الصدور بهيئة تحرير مزيدة . ورئيسا تحريرها الآن هما مدام روز سللي وجاك هوليت . وقد بدأت المجلة في عددها الاول بنشر رواية جديدة لجاك هوليت ، وقدمت لها بمقدمة تتحدث عن خطة المؤلف في معالجة الرواية ، وتقارن بين طريقته وطريقة مورياك في كتابة الرواية لتخرج بان هوليت ابرع في هذا المضمار من مورياك ...

على ان ما يلفت النظر في المجلة دراسة نقدية عن بروست كتبها (اعضاء اسرة التحرير) جميعا ... وهذه ظاهرة لا سابقة لها ... فكيف عمل المؤلفون لكتابة هذا المقال المشترك ؟ مهما يكن من أمر فهذه تجربة نقدية تفتح على ادب الغد امكانيات تدعو الى الفضول !

٤ . احدث المؤلفات

١ – (شاعرية فاليري) دراسة كتبها جان هيتيه عن الشاعر الكبير بول فاليري ، وهي تمتاز بالدقة والعمق ، وتشير الى مزاج فاليري الشعري المعقد ، وتحـلل الموضوعات الرئيسية لفكرته الجمالية . وينوه المؤلف بان الشاعر الكبير يؤمن بالحساسية والالهام بالرغم من عقلانيته ، وبان فنه الشعري يقوم في الدرجة الاولى على فن اللغة . ويستشهد المؤلف بكثير من قصائد فاليري التي تغلب فيها أهمية الشكل على اهمية الموضوع .

٢ – (المملكة التائهة) بقلم ماري موررن ، وهي رواية تحليلية دقيقة تذكرنا بروايات كوليت ، بالرغم من ان اسلوبها يختلف كثيراً عن اسلوب الروائية الفرنسية الكبيرة . والمؤلفة شديدة الحساسية وعظيمة التوفيق في التعبير عن هذه الحساسية .

٣ – (فالس سيباليوس الحزين) بقلم لافارائد ، وهي رواية اعترافية تتناول موضوع (الصداقة الحائرة) .

٤ – (الكاهنـة) رواية تاريخية من تأليف مرسيل ماجدينيه تتناول الفترة التي واجهت فيها افريقيا الفتـح الأسلامي في النصف الثـاني من القرن الهجري .



Hispanidad Y Arabidad

بقلم رودولفو خيل بن امية
ترجمه ولخصه صباح محي الدين

توطئة

في اسبانيا اليوم بعث عـربي لا مراء فيه ، فان الجزيرة الأيبرية تحت سلطان فرانكو تجد ذاتها منقطعة او تكاد عن العالم الاوروبي الذي يسيطر عليه رجال لا يرغبون في التعاون مع العهد الفرانكي .

ولم يجد حكام اسبانيا — رداً على الحصار الاوروبي — مخرجاً سوى التوجه نحو آفاق اخرى يستطيعون أن يجدوا فيها متنفساً ومجالاً لنشاطهم . فكان التقرب من دول امريكا اللاتينية — والاتصال بالدول العربية على شاطيء المتوسط . وقد شاهد العالم منذ عام او اكثر وزير الخارجية الاسبانية .ارتين ارتاخو يطوف البلاد العربية وغيرها متنقلا بين سوريا ومصر والفيليبين والأرجنتين .

ولسنا في صدد الحديث السياسي فليس هذا مكانه ، ونحن لم نتعرض له إلا كأساس لظاهرة البعث العربي التي اشرنا اليها. فقد التفت الباحثون الاسبان الى ماضيهم يستنطقونه على ضوء ميلهم الجديد الى العرب ، متجردين عن الاحقاد المتوارثة منذ زمن فرديناند وايزابيلا، فتكشفت لهم آفاق جديدة من العلاقات بين الفاتحين العرب واهل الجزيرة الاسبانية .

ويدعونا الصدق الى القول بأن علماء اسبانيا ومستشرقيها لم ينتظروا حكم فرانكو ليبحثوا في تاريخ الاندلس باخلاص وتجرد. فان امثال ريبيرا Ribera وغونثالس بالنثيا Gonzalez Palencia ومننذز بيدال Menendez Pidal وآسين بلاثيوس Asin Palacios وغيرهم القوا اضواء كاشفة على الأثر العظيم الذي خلفته آداب العرب وفلسفتهم وموسيقاهم لا في اسبانيا فحسب ، بل في اوربا بكاملها من فرنسا الى ايطاليا وحتى انكلترا والمانيا .

ومن بين التآليف التي توضح جذور الاخوّة بين العرب والاسبان كتاب صدر مؤخراً بعنوان « اسبانيا والعروبة » Hispanidad Y Arabidad.

ومؤلف هذا الكتاب هو « رودولفو خيل بن امية Rodolfo Gil Benumeya » وليد غرناطة وسليل الامويين فيها ، وقد شاهد النور عام ١٩٠١ ودرس الفلسفة والأدب في جامعة مدريد ودرّس اللغة الاسبانية في القاهرة والجزائر ، وشغل منصب استاذ الفن العربي وتاريخ مراكش في مركز الدراسات المراكشية في تطوان . وهو الآن يعمل في معهد الدراسات السياسية ويشارك في معهد الثقافة الاسبانية ومعهد الدراسات الافريقية التابع للمجلس الاعلى للابحاث العلمية .

وقد نشر المؤلف عدة دراسات عن اسبانيا والبلاد العربية ومن بين تآليفه « تاريخ السياسة العربية » و « استعراض للعالم العربي» و « لاشرق ولاغرب » و «مراكش الاندلسية» الخ ..

ويبدأ الكاتب دراسته عن « اسبانيا والعروبة » بعرض لتشابك الاصول الاسبانية العربية منذ فجر التاريخ ، ثم باثبات لتعايش المسلمين والمسيحيين في ظل الخلافة القرطبية .

ثم يتطرق الى الثقافة الاندلسية التي استقت من نبعي العرب والاسبان ويدرس تأثيرها على الأدب الاوربي متابعاً في ذلك نظريات العلماء الذين ذكرنا آنفاً .

ويخلص بعد ذلك الى موضوع العرب وابناء العرب في امريكا اللاتينية مبيناً انهم نزلوا بين اهلهم حين هاجروا الى امريكا .

وهدف الكتاب سياسي اكثر مما هو ادبي ، وهو يرمي الى بعث التعاون بين العرب والاسبان في كل ميدان ، من البحر المتوسط حتى امريكا والفيليبين .

وقد اخترنا لقراء « الآداب » الفصل الاول من هذا المؤلف وهو يكشف النقاب عن قدم العنصر العربي في اسبانيا وفي المدنية العالمية . ولا يدفعنا الى ذلك كبرياء قومية او شعور

بالعظمة – فكلاهما لا صلة له بالعلم الحق – بل حافزنا الاول محاولة لتجريد ابناء الشرق العربي من شعور النقص الذي يساورهم امام الغرب وتفوقه الظاهر .

فان الغوص على الاصول يعيد لنا الشعور بكرامتنا وبنشاطنا في كثير من الميادين ، وهو امر يأخذ بمجامع النفس ويكشف للباحث – مثلاً – ان ابن قزمان واترابه الاندلسيين سبقوا الغرب بقرون في ميدان الشعر وكانوا المعين الذي نهل منه شعراء « التروفير والتروبادور » ، وان مقامات الهمذاني والحريري هي – دون شك – الاساس للقصة الاوربية التي تولدت من القصص الاسباني المعروف باسم Picaresco وان ابن النفيس سبق الانكليزي هارفي Harvey بمئات السنين في اكتشاف الدورة الدموية ، وغير ذلك كثير .

وليست الرغبة من هذا كله الفرح بسبق في اي ميدان لا سيما في ميدان العلم والأدب حيث تعمل الانسانية كتفاً الى كتف ، بل بث الايمان في النفوس المتشككة المستضعفة . فان هذا القسم من العالم – واعني الشرق العربي بأوسع صفاته – اسهم بقسط كبير في المدنية الانسانية ، وليس ما يمنعه من ان يعود الى احتلال مكانه في عداد الجمهرة الخلاّقة المبدعة .

من المقدمة

يحكي دون ميغيل دي ثيرفانيتس Cervantés ، في أحد ابواب القسم الثاني من كتابه « دون كيشوتي » كيف عاد سانشو بانثا من جزيرته الضائعة فالتقى بصديقه القديم الفلاح العربي « ريكوتي » الذي عرض عليه ان يقاسمه كنزاً مخفياً .

وهذا هو اليوم شأن اسبانيا التي اضاعت منذ ١٨٩٨ آخر ممتلكاتها في المحيطين الاطلسي والهادي . فانها التقت فجأة بصديق – او بالأحرى بقريب قديم – اعني العرب والمستعربين في مراكش فعرضوا عليها ان تقتسم وإياهم كنزاً مخبأ من زمن بعيد **هو كنز العروبة التي كانت امبراطورية اسبانيا الاسلامية المسيحية في قرطبة من ألمع مناراتها .**

العروبة كعامل داخلي اسباني

برهنت آخر الابحاث التاريخية عن اصول اسبانيا في العصور القديمة والوسطى على ان العناصر البشرية الآتية من الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط ، من البلاد السورية وما جاورها كآسيا الوسطى وجزيرة العرب كانت احد الاصول الاساسية التي نتج عنها المركّب الاسباني في الجزيرة الايبرية .

ولوقت يسير مضى كانت هناك فكرة خاطئة تقول بأن هذه العناصر – على وضوحها – لم يكن لها الا تأثير خارجي ، اي انها لم تمتزج ولم تذب في صميم الجزيرة اذ انها كانت ثمرة غزوة اجنبية . ومنشأ هذه الفكرة الاعتقاد بان العروبة الاسبانية لم ترَ النور الا مع الفتح الاسلامي الذي بدأ بين ٧١٠ و ٧١٣ ، وانتهى بسقوط غرناطة في ١٤٩٢ ، اي ان هذا الاعتقاد يوحّد بين العروبة وبين نشوء الدول الاسلامية في الجزيرة الاسبانية ووجودها فيها .

ولكن الواقع غير ذلك ، فان شعوب الشاطيء الشرقي للبحر المتوسط ، وليدة الجزيرة العربية ، كانت قد خلقت قبل ظهور الاسلام بعصور طويلة نويّات سياسية ، عرقية وثقافية ذات صفات عربية لا تقبل الجدل ، وان كانت تلك النويات داخلة في المدار الاغريقي او الروماني . وفي هذا ما يبرهن على ان العروبة لم تبدأ مع محمد والاسلام ، بل ان الاسلام خلع على العروبة اشعاعها الأوسع وان اكثر التأثيرات الواصلة من الشاطيء الشرقي الى الجزيرة الاسبانية – من ايام الهجرات الاولى – كانت عربية وان لم تكن تحمل هذا الاسم حينذاك .

ولا شك في ان العنصر البشري البدائي في الجزيرة الاسبانية ، المتمثل في الايبريين ، والبشكنس وغيرهم من العناصر الضاربة في منطقة جبال البرانس ، كان دوماً يفوق العنصر الشرقي المتوسطي في العدد وسعة المجال . فقد ظل هذا العنصر الأخير لاصقاً بالساحل والاراضي المتاخمة له مما منعه ، حينذاك ، من ان ينشب جذوره في الارض بقوة كما فعل السلتيون مثلاً وقد جاءوا اسبانيا متأخرين ولكنهم سرعان ما امتزجوا بالبلاد اذ اقاموا على الارض كفلاّحين قرويين في حين كان اكثر الشرقيين ملاحين وتجاراً .

ومهما يكن من امر ، فقد حسّن الشرقيون مركزهم شيئاً فشيئاً اذ ان هجرتهم استمرت – على الرغم من بطئها – منذ احد عشر قرناً قبل المسيح حتى ذهاب الامبراطورية الرومانية ، فضلاً عن انهم استفادوا من تفوقهم في الثقافة والتنظيم ، فكانوا خميرة استطاعت – على قلتها – ان تنفخ روحها وقواها في

المجموعة الايبرية .

وقد اتى الأغريق والرومان والقوط بخميرات اخرى ، الا انها لم تأتِ الا بعدَ الخميرة الشرقية التي سبقتها في التأثير ، **وفي هذا ما يفسر ان الاسلام الآتي من الشرق لم يجد صعوبة في تمثل العناصر الرومانية والقوطية ، ومزجها في مركّبٍ نهائي ذي شكل سوري ومادة اسبانية .**

ولذا فانه ليس من الصواب في شيء ان يقال ان العرب والعروبة شيء وصل اسبانية فجأة في وقت ما من القرون الوسطى وانتشر بسرعة الفيضان ، وكمثل الفيضان ، تراجع بعد ذلك شيئاً فشيئاً مخلفاً – هنا وهناك – مناطق مشبعة بفيضه . بل الامر بالعكس اذ قد تم بين النبتة العربية والارض الاسبانية امر فذ لم يكن لا عربياً صرفاً ولا اسبانيا بحتاً ، على الرغم من انه ضم مميزات العنصرين . فقد ظل الحافز والمحفوز ، الفاعل والمنفعل ، الشرقي والمحلي ، ثمرة خاصة بالارض التي نشأ عليها وامتزجا فيها ، كعاملين نشيطين في صميم الكون الاسباني .

أ – اسبانيا واصولها السورية اللبنانية

شهد التاريخ بين ٢٣٠٠ و ٢٧٠٠ قبل المسيح ، اي في عهد السلالات الفرعونية الأولى قيام علاقات تجارية ودينية بين مملكة النيل وبين مدينة جبيل التي يقال انها اقدم مدينة في العالم.

ويبدو ان جبيل شاهدت النور حوالى الالف الرابع قبل المسيح ، بعيد هجرة واسعة وصلت من الجزيرة العربية الى لبنان الفينيقيين . ويبدو ان اسم هؤلاء الذين عُرفوا بالبون Puni آت عن ارض البنط Tierra de Punt ، ارض الذهب والبخور التي لا تُميّز ، بسبب هذه المنتجات ، عن جنوب الجزيرة العربية او ما يعرف بالعربية السعيدة Arabia Felix . وبعد قرون عدة من ذلك ، اصر بعض المؤلفين من الاغريق مثل هيرودوت على ان اصول الفينيقيين من شواطيء البحر الاحمر ، ولكن المؤرخ اسطرابون – في عهد الامبراطورية الرومانية – يشير الى ان بعض المدن القائمة على ما يسمى الآن بالخليج الفارسي كانت ما تزال تحمل اسماء فينيقية مثل : صور واربد .

ومهما يكن من امر ، فان كل الدلائل تجمع على ان الفينيقيين كانوا – أول الامر – شعباً ساحلياً عربياً ولكنهم تبدلوا على الزمن بسبب مقامهم على الشاطيء اللبناني حيث تلقوا مختلف التأثيرات من الشعوب المجاورة ومن نشاطهم البحري .

وثمة اسباب تدعو الى الاعتقاد بان فينيقيي جبيل ، مذ بدأوا نشاطهم هذا ، وصلوا حتى الشواطيء الجنوبية للجزيرة الاسبانية حيث عثر في كثير من المغاور على ادوات تشابه في مادتها وهيئاتها الادوات المستعملة حينذاك في مصر والجزيرة العربية وما بين النهرين . وقد تكون هذه الأوائل ثمرة التصدير الفينيقي البدائي ، وإن لم يكن في المستطاع القطع برأي في هذا الموضوع .

اما اولى الدلائل التاريخية القاطعة عن الفينيقيين في اسبانيا فهي تعود الى سنوات ١١٠٠–١٠٠٠ قبل المسيح حيث انطلق من صور – العاصمة الفينيقية الجديدة – مؤسسو قادش التي كانت اول الامر مركزاً تجارياً لا غير . ثم استطاع الصوريون بعد عدة قرون (حوالى سنة ٨٠٠ تقريباً) ان يحتلوا الجنوب الاسباني بكامله .

ومرت قرون ستة (حتى سنة ٢١٠ قبل المسيح) كانت شاهداً على تمكن الدولة الفينيقية في جنوب اسبانيا التي انشأت المدن العديدة مثل غدير (قادش) ، وملكه (ملقا) وغدره (ابديرا) ومدينة صيدا (مدينا سيدونيا) ، فضلاً عن قيام مدن فينيقية على اطلال بعض المدن القديمة مثل اسباليس (اشبيلية) وكوردوبا (قرطبة) .

وخلفت هذه الدويلة الفينيقية التي ظلت على صلة دائمة مع صور ، دولة فينيقية اخرى هي قرطاجة التي انشئت عام ٨١٤ في افريقيا الشمالية . فقد احتل القرطاجيون قادش عام ٢٠٦ ثم اجتاحوا ثلثي الجزيرة الاسبانية بين ٢٣٨ و ٢٢١ . وعلى الرغم من ان هذا الفتح امتد حتى مشارف نهر الايبر الاعلى ، فانه ظل معتمداً على قواعد الصوريين ذاتها حيث مكن القرطاجيون حكمهم في مدن جديدة مثل قرطاجنة (قرية حدشت) واليكارت والثغور البحرية الامامية في جزر الباليار .

وتمتاز هذه الفترة القرطاجية بالنشاط الذي تجلى في الجنوب والجنوب الشرقي من اسبانيا معتمداً على القواعد الصورية ، وباحترام مناطق النفوذ الايبري في قلب الجزيرة . وقد وقعت بعض الاصطدامات بين القرطاجيين والايبريين ولكن الحرب

بين الفريقين لم تدم طويلاً ، واصبح الايبريون تابعين اوفياء للقائدالقرطاجي هانيبال فشكلوا النواة الرئيسية في الجيش الذي افتتح المستعمرة الاغريقيـــة في ساغونتو Sagunto ومكن هانيبال من انتصاراته في ايطاليا [1] .

وبعد ان تغلبت رومـــا على قرطاجة ، اضطرت الى شن حرب عنيدة ضـد سكان الداخل والجنوب من اسبانيا طوال قرنين كاملين ، خسر فيها الرومانيون خيرة قوادهم وجنودهم. وفي هـــذا دليل – وان كان غير مباشر – على الأثر العميق الذي خلفه القواد القرطاجيون بين سكان البلاد الايبرية .

هذا ولم يزل تأثـــير العامل البشري السوري اللبناني من الوجود في اسبانيا اثناء الحـكم الروماني ، بل ظل حياً رغم استعمال اللغة اللاتينية ونزول بعض النبلاء الرومان في البلاد مثل القائد كلوديو مارسيلو الذي اقام في مدينة قرطبة . ومن بين الاسباب التي سهلت بقاء هذا التأثير نجد الاستقلال المحلي الذي منح لقادش التي كان يدير امورها حاكم من اصل فينيقي. ومن بين الشواهد البارزة على النهج الشرقي الغالب على مدنية الجنوب الاسباني خلال هذه الفترة ، نجد النجاح الذي لاقتـه راقصات قادش اللواتي اطلق عليهن الرومان اسم Puellae Gaditanae ،اي فتيات غدير ،وقداشتهرن برقصاتهن بالصناجات، التي كانت تشبه رقصات النساء في مصر وسوريا الى حدجعل الشاعر مارسيال يمزج بينهن في منظوماته . ويضاف الى ذلك تعلـق السكان في منطقتي بيتيكا [2] وقرطاجنة بآلهـــة ميثولوجية ذات اصول فينيقية – عربية لاجدال فيها مثل سلامبو – وهي احد اشكال عشتروت – التي عبـــدت في اسباليس (اشبيلية) ، ودوساريس اله النبيذ او باخوس سوريا ، واللات الهة الصحراء التي كانت تسمى باثينا [3] الجزيرة العربية ، واهم من هذه كلهـا « ملكرت » الهرقل الفينيقي القرطاجي الذي كان يعبـــد في هيكل كبير في قادش .

هذا وان نزول المسيحية في اسبانيا لم يتمثل بتنصير البلاد فحسب ، بل رافقه وصول عناصر شرقية جديدة ، اذ يبدو ان عدداً كبيراً من المبشرين الذين صحبوا الحواري يوحنا جاءوا من اقليم دمشق الذي كان حينذاك قطعة من المملكة العربية النبطية التابعة لروما . وعلى اثر ذلك اخذت الكنيسة الاسبانية تنظم ذاتها معتمدة على كرسي قرطاجة التي كان سكانها – حسب قول القديس اغسطينوس – لا يتكلمون اللاتينية بل الفينيقية. وقد كان اسقف قرطبه اوسيو Osio من ابرز وجوه المسيحية فاصبح مستشاراً للامبراطور قسطنطين واحد محرري فعل الايمان Credo ورمزاً للعقيدة المسيحية.وقدخلع عليه معاصروه اسم « المصري الاسباني » اشارة الى اصوله الشرقية .

ومن الوقائع الهامة خلال الحكم الروماني ثم التسلط القوطي الذي تبعه انضمام قسم كبير مما سمي بعد ذلك بمراكش الى اسبانيا كمقاطعة تابعة لاقليم اشبيلية. فقد تمكنت بذلك العلاقات التي ما فتئت ناشطة بين الجنوب الاسباني ومركز الفينيقية في قرطاجة ، خاصة وان حدود مراكش الجنوبية كانت تحميها – منذ عهد الامبراطور ادريانوس الاشبيلي – جنود من الصحراء السورية اتى بهم الرومان من ضفاف الأردن ومن تدمر ، وهم بدو عرب من اصل نقي.

واثناء الفترة القوطية ظلت الصـــلات مستمرة بين العرب واسبانيا إذ تسلط التجار السوريون واللبنانيون على كل الاسواق في اوروبا الجنوبية التي زعزعتها غارات البرابرة. واشتهر هؤلاء التجار في مرافيء البحر المتوسط واطلق عليه اسم Syri وملكوا المراكز التجارية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وافريقيا الشمالية. ويبدو أن نواة هامة من هؤلاء السوريين وصلت اسبانيـا حين عمدت جيوش روما الشرقية ، في عهد جوستينيانوس وزوجته السورية اللبنانية تيودورا ، الى احتلال كل الجنوب الشرقي بين بلنسية وقرطبة ، واحتفظت به حتى سنة ٦٢١ حـين اكتسح القوط تلك المناطق .

وقد تم هذا الاحتلال الروماني بمساعدة السكان الاسبان المحليين ، في حين ان باقي الجنوب الاسباني الذي كان منذ البدء في حوزة القوط امضى أكثر الوقت في ثورات متتابعة عـــلى حكامه حتى اصبحت تلك المناطق ابواب الاحتلال والفتح دخل منها العرب المسلمون اسبانيا بمساعدة قسم كبير من السكان .

ب – العنصر الاسباني الروماني في سوريا والجزيرة العربية

إذا نظرنا الآن الى الدولة العربية الاسلاميـة في دمشق ، التي اصبحت اسبانيا اقليماً بعيداً منها بعـد معركة وادي بكة Guadi Bakka ، امكننا الاثبات – بشواهد كثيرة – ان

(١) كان جيش هانيبال حين وصوله الى ايطاليا يتألف من ١٢٠٠٠ من المشاة الافريقيين ، و ٨٠٠٠ اسباني و ٦٠٠٠ من الخيالة البربر .

(٢) الاقليم الواقع على نهر الوادي الكبير .

(٣) الهة الحكمة الاغريقية وتقابلها مينرفا لدى الرومان .

مؤسسيها الامويين حاولوا في انشائها ان يتبعوا مناهج الدولة البيزنطية التي لم تكن قد غيرت شيئاً يذكر في سوريا والبلاد المجاورة لها من الانظمة التي فرضتها الامبراطورية الرومانية على مناطق الشرق والشرق الأوسط .

وأهم ما في هذا النظام الروماني الذي امتد من الشاطيء الفينيقي حتى قلب الصحراء السورية انه جاء نتيجة لجهد عكسي لما قام به أقوام فينيقيا وسوريا والجزيرة العربية في الجنوب والشرق من اسبانيا . ذلك ان تراجان وأدريان، الامبراطورين الرومانيين اللذين ولدا قرب اسباليس (اشبيلية) هما اللذان جمعا بين سوريا – التي لم تكن تضم حينذاك سوى الشاطيء الذي يغلب عليه اللبنانيون – وبين الأقاليم الداخلية من بلد الشام إلى الأردن والبادية . وفي هذا المشروع كان البادىء « تراجان » وتبعه في ذلك « ادريان » . وقد ضم الأول الى الامبراطورية الرومانية مملكة العرب النبطيين في البتراء ودمشق ، وكانت تمتد من الفرات الاعلى الى شاطىء البحر الاحمر القريب من منطقة مكة والمدينة . وقد نتج عن ذلك ان هؤلاء العرب أصبحوا النواة الرئيسية للجيش الذي اعتمدته الامبراطورية الرومانية لمناهضة الامبراطورية الفارسية على الفرات . وكانت هذه النواة تتألف من فرسان عرب تتعاون مع كراديس من المشاة كانت حينذاك اسبانية في اكثرها. **وهكذا كرر « تراجان » الاسباني الروماني في الشرق مع القبائل العربية ما فعله هانيبال الاسباني الفينيقي مع القبائل الاسبانية قبل ذلك بقرون .**

اما « ادريان » فقد نظم المقاطعتين – سوريا والجزيرة العربية – في كتلة واحدة ، وادخل في الاولى لبنان وانطاكية وفلسطين ، وفي الثانية المناطق الواقعة بين دمشق والفرات والاردن والبحر الاحمر وصحراء الجزيرة العربية . وكانت تقوم الى جانب ذلك دويلة عربية اخرى مركزها تدمر .

وكان القسم الاكبر من هاتين المقاطعتين من اصول فينيقية سورية وسورية عربية على الرغم من ان اكثرهم كانوا يتمتعون بالمواطنية اللاتينية . وكانت دمشق المركز والرأس والعاصمة الطبيعية للمقاطعتين الموحدتين اقتصادياً وثقافياً . اما من الوجهة السياسية فان النظام الروماني كان يعتمد على ادارة من الموظفين السوريين الدمشقيين من طرف ، وعلى قوة من جنود الحدود اكثرها من العرب الاقحاح، يقيمون في معسكرات ثابتة مع عائلاتهم او في سلسلة من القلاع المحصنة على حدود فارس.

وحين جاءت المسيحية قام الاقليم العربي بدور هام في نشر الدين الجديد بعد ان اعتنقه بسرعة واصبح اساقفتها خير اعوان للاسقف القرطبي اوسيو Osio اثناء انعقاد مجمع نيسيا .

واستمر نظام الادارة الرومية قائماً اثناء الفترة البيزنطية ، وحين قامت الخلافة الأموية في دمشق عمدت الى الاحتفاظ بانظمة تراجان وادريان وخلفائهما بعد ان ادخلت عليها من التحوير ما يلائم واقع الدولة الاسلامية . وهكذا عادت دمشق – كما كانت في زمن الرومان – رأس الدولة وعاد الموظفون السوريون الى تنظيم ادارة الخلافة ، كما عادت القوة الحربية الرئيسية تتمثل في المعسكرات الدائمة يسكنها المحاربون العرب في البادية مع عائلاتهم . اما القلاع التي بناها تراجان فقد هيأها الخلفاء الامويون لتصبح قصوراً لهم كقصر رغدان وقصر الحير وقصر المشتى ، الخ ..

ولم تكن مسيحية بعض السوريين العرب عائقاً في سبيلهم اذ انهم كانوا يتمتعون بكل الحقوق حتى انهم توصلوا الى مراكز المستشارين والوزراء ، كما حدث ليوحنا الدمشقي احد مشاهير آباء الكنيسة الذي كان صديقاً حميماً لأحد الخلفاء .

ج – الاستمرار في الدولة الاسبانية العربية

وحين سقطت خلافة دمشق ، قامت محلها خلافة بغداد حيث تغلبت التقاليد الفارسية والهندية الى حد ما على التقاليد السورية العربية المتوسطية . وقد انتقلت هذه التقاليد برمتها الى اسبانيا بعد ان جعل عبد الرحمن الاول من قرطبة عاصمة لأمارة اسبانية مستقلة . وكانت الدولة الاسبانية التي انشأها عبد الرحمن مجمعاً للتقاليد الدمشقية المستوردة وللتقاليد المحلية الخاصة بالجنوب والجنوب الشرقي من اسبانيا ، وهي تشابه الاولى الى حد كبير .

هذا وقد امتازت الدولة القرطبية بمظاهر ثلاثة قامت في وقت واحد : مظهر « السورية » الدافعة المحركة ، ومظهر « الاندلسية » الذي خلع على الدولة شكلها ، ومظهر الأساس الاسباني الغالب على كل ما سواه .

وكان المظهر الأول بيّناً – اوضح ما يكون في رغبة الخلفاء في اقامة إدارة عمادها العناصر المحلية التي تضم العدد الكبير من المسيحيين ، وإنشاء مناطق حربية تقيم فيها القوات العربية مع عائلاتها (وهكذا نزل الدمشقيون في غرناطة

والاردنيون في ملقا واهل قنسرين في خاين واهل مصر في مرسية) ، وفي الميل الى اشكال الحياة البيزنطية التي تجلت في تبادل السفراء والصناع وفي الصبغة السورية البيزنطية الغالبة على ما شيدوه من ابنية ، وفي « بروتوكول البلاط » الخ ..

اما المظهر الثاني فقد اختلط – في كثير من تفاصيله – مع المظهر الاول . اذ ان ما اتى به السوريون انما نهض على آثار سورية ولبنانية سابقة في الجزيرة الاسبانية . ومثلاً على ذلك فان مسجد قرطبة يتكشف في مخططه عن عناصر سورية كتلك التي استخدمها البيزنطيون لبناء الصهاريج ذات العمد في القسطنطينية في حين ان التفاصيل البنائية الاساسية تحمل طابع اقنية المياه المعروفة باسم Acuedecto De Los Milagros في مريدا. وكذلك القوس الحافرية التي وصلت الى غايتها من الجمال في ابنية قرطبة وصلت الجزيرة في شكل بدائي من آسيا الوسطى ثم دخلت الهندسة الاسبانية الرومانية واصبحت عنصراً اساسياً في الابنية الاسبانية القوطية ولكنها ظلت متواضعة الشكل حتى حولتها الهندسة القرطبية الى عَلَمٍ من الابداع .

اما المظهر الثالث – مظهر تغلب العنصر الاسباني – فقد نتج عنه ان الامارة ثم الخلافة القرطبية نشأت في بلد لم يكن ذا قومية معينة بل كان يضم مجموعة من العروق والقبائل والمدن الحرة ودويلة فينيقية قامت في الجنوب قبل مجيء روما. ولم يتغير الامر تحت حكم روما فقد اصبحت اسبانيا مجموعة من الاقاليم التابعة للامبراطورية ، وحين تسلط القوط على البلاد انقسم السكان الى طبقتين : طبقة القوط الحاكمين وطبقة الاسبان المحكومين .

وقد ظهر العرب في اسبانيا عَرَضاً ، كأعوان لعصابة من القوط في نضالها ضد عصابة اخرى ولكنهم اقاموا فيها نهائياً والفضل في ذلك لمساعدة الاسبان المسترومين في الجنوب ، اذ ان العرب أتوا بنظام اجتماعي يحرر الاسبان من القوط ويساويهم بزعماء العرب وقادتهم ذاتهم . وقد تمثلت الدولة القرطبية قسماً من النبلاء القوط الذين ظلوا على دينهم وعينوا في مراكز هامة ، وكثيراً من القوط الذين اعتنقوا الاسلام .

ويمكن القول ان الامراء الامويين القرطبيين كانوا اول ملوك اسبانيا ، لأن دولتهم حاولت ان يمتد سلطانها الى حدود الجزيرة الاسبانية ، ولأنها لم تَقم على طغيان بعض القبائل او الطبقات الاجتماعية او المجموعات الدينية (على الرغم من ان الاسلام كان الدين الرسمي في الدولة) ، بل كانت تحاول فعلاً صهر كل الاعراق والفئات الاجتماعية لتخلق منها نموذجاً عاماً للفرد الاسباني في اطار قومية اسبانية وحيدة.

د – الاسبانيون داخل الخلافة

وقد سهّل محاولة التوحيد هذه منذ بدء استقرار العرب المسلمين في اسبانيا ان الكثير من السكان كانوا قد اصبحوا عبيداً ارقاء للنبلاء القوط ، وكفاهم ان ينطقوا بالكلمات التي تشكل عقيدة الاسلام كي يصبحوا – قانوناً – مساوين لحكامهم العرب ويستطيعوا في كثير من الأحوال ان يملكوا الأراضي التي كانوا يزرعونها . اضف الى ذلك ان العناصر الحرّة من الاسبان المسترومين الذين ظل اكثرهم على المسيحية وجدوا انهم يحتفظون بحقوقهم كطوائف محمية تحت ادارة رؤسائهم الروحيين . اما العبيد الذين اسلموا فقد كانت كثرتهم عاملاً آخر في تمكين ما اتى به الاسلام العربي في الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت كثرة السكان تشعر بالفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي جلبها النظام الجديد .

ويمكن القول بصورة عامة ان التغيير الاجتماعي لم يأت بتغيير في الاعراق أو السكان ، إذ أن الأهلين وإن تبدلت احوالهم وأسماؤهم ظلوا على ما كانوا عليه اذ لم تشهد الجزيرة افناء مجموعة معينة من السكان أو هجرة إجماعية .

وعلى الرغم من أن عدد المسيحيين ظل كثيراً فان المولدين والاسبانيين المسلمين كانوا يشكلون النواة الأكثر عدداً في السكان ، وخاصة في جنوب نهر التاج ، في حين ان العرب الشرقيين والبربر الآتين من مراكش –وأكثرهم من المحاربين العازبين – تزوجوا من الاسبانيات ومزجوا دماءهم بدماء أبناء الأندلس . وبصورة عامة كان الزواج المختلط منتشراً بين كل العناصر البشرية في الاندلس، وامتد ذلك إلى التزاوج بين الخلفاء وصغار الملوك المسيحيين في جبال الشمال. **وهكذا مثلاً تزوجت حفيدة قومص جبال البرانس بالامير القرطبي عبد الله،وقد اصبحا فيما بعد جدي الخليفة عبد الرحمن الثالث . وكذلك المنصور بن عامر ، ديكتاتور قرطبة الشهير تزوج ابنة شانسو الثاني ملك نافارا ، بينما تزوج الفونسو السادس ابنة احد ملوك الطوائف في اشبيلية .**

هذا وقد استخدم الجهاز الحكومي والتنظيمات الادارية في الخلافة الأندلسية كثيراً من العناصر الاسبانية مسيحية ومسلمة،

وقد بلغ هذا الاستخدام شأوه في عهد عبد الرحمن الثالث ، إذ غلب الاسبانيون على غيرهم في الادارات والدواوين وفي داخل القصر بين الخدم الذين كانوا من الصقالبة (وهم عبيد من شمال اسبانيا أو من ايطاليا والبلقان) في حين كان اكثر حرس الخلفاء من سكان غاليسيا وكاتالونيا الذين كانوا تحت قيادة القومص رئيس المسيحيين في قرطبة وذلك منذ عهد الخليفة الحكم الاول وقد استخدم كذلك عدد من المسلمين ذوي الأصول الاسبانية الرومية في عهود مختلفة كقضاة وعمال في الاقاليم وكتاب للخلفاء وحراس للترسانات الخ ..

ولكن أهم عامل – وأدعاه الى الدهشة – في الادارة الاندلسية كان العامل الحربي دون شك . فالى جانب حرس الخلفاء المسيحي الذي بلغ في بعض الأحيان ٥٠٠٠ جندي ، كان يوجد جيش رسمي دائم من المرتزقة يستخدم للدفاع عن الحدود ، وكان هذا الجيش يتألف في البدء من البربر الآتين من مراكش ومن جنوب المغرب ، ولكنه اصبح منذ عهد المنصور يضم اكثرية من الجنود ذوي الاصول الاسبانية ، مسيحيين ومولدين .

وفي هذا ما يفسر ان حروب حكام الاندلس ضد ممالك الشمال لم تكن في الواقع حروباً دينية ، اذ انها – حتى ذلك الزحف الشهير الذي قام به المنصور ضد مدينة سانتياغو Santiago في غاليسيا – كانت ذات هدف سياسي بحت .

وقد استمر الأمر كذلك حتى بعد ذلك بعصور ، اذ تأثر ملوك الموحدين الذين كان بلاطهم في مراكش بعادات الاندلس فأقاموا حولهم حرساً مسيحياً ، وتبعهم في ذلك سلاطين مراكش حتى اواخر القرن التاسع عشر . ونجد مقابل ذلك في الممالك المسيحية بعض كبار القادة يعملون في خدمة الملوك المسلمين المحليين كما جرى للسيد Cid مع ملك سرقسطة وللقائد القرطبي غونزالو فرناندز الذي ساعد عبد الله ملك غرناطة في حربه مع الزغل . ولا شك في ان اغرب مثال على هذه الظاهرة معركة نافاس دي طولوزا Navas de Tolosa التي ثبت فيها ان القوات الاسلامية المنكوبة كانت تضم في صفوفها جيوشاً مسيحية .

واذا انصرفنا عن هذه الظواهر الحربية الى الوقائع الدينية وجدنا ان وضع المسيحيين تحت حكم الدولة القرطبية خير مثال على نجاح حركة التوحيد المشار اليها آنفاً . **فإن ما نعرفه الآن عن حياة المسيحيين في ذلك العهد يمحو الخرافات القائلة بان تأسيس الدولة الاسبانية العربية تجسم في النضال بين عقيدتين كما انه لم يكن ثمرة النضال بين شعبين .** بل الواقع ان المسيحيين والمسلمين كانوا يعيشون مختلطين ممتزجين في مختلف الممالك والدويلات ، مهما كان دين ملوكها . ونحن نشير الى الدولة الأموية الاسبانية بشكل خاص لأنها كانت اهم الدول بسبب اصولها ، وطول بقائها وامتدادها وشمولها . ونجد ان المسيحين كانوا يتمتعون في تلك الدولة بحرية العبادة بما في ذلك الشعائر الخارجية في بعض الاحيان كقرع النواقيس ، ويعيشون في طوائف ريفية او مدنية يحكمها – ادارياً – موظفون خاصون بها منهم الحكام المحليون وجباة الضرائب وقضاة للشؤون الداخلية . وكان هؤلاء الموظفون لا يطبقون القوانين العربية بل القوانين القوطية كما وردت في Liber Judicum .

اما عن الطبقات الاكليركية ، فان الامارة ثم الخلافة القرطبية كانت تضم ثلاثة كراسي مطرانية في طليطلة واشبيلية وماردة ، وثمانية عشر كرسياً اسقفياً في الاراضي التابعة رسمياً للدولة الاسلامية . وكان في استطاعة رؤساء الاساقفة والاساقفة ان يعقدوا مجامع يتشاورون فيها . ولم يكن بعض الاساقفة ورؤساء الاساقفة يتعاونون مع الخلفاء فحسب بل كانوا يتمتعون بثقتهم ويحلون – في بعض الاحيان – ضيوف شرف على قصور قرطبة كما حدث في عهد عبد الرحمن الثالث لاسقف غرناطة « الربيع بن زيد » او في عهد الحكم الثاني لمطران طليطلة « عبيد الله بن قاسم » ولاسقف قرطبة « ابن عبد الله بن نبيل » .

ولم يكن سلطان رؤساء الأساقفة والأساقفة يشمل الأكليروس النظامي فحسب بل يمتد على عدد من الاديرة التابعة لنظام القديس بنيديكتوس . وكان بعض هذه الاديرة متاخماً للقصور الملكية الى حد ان احد ملوك بني امية الذي كان يشكو الأرق شفاه سماع قرع النواقيس في الصباح الباكر .

ومختصر القول ان القرون التسعة التي انقضت بين عام ٧١٠ وعام ١٦١٠ شهدت في اسبانيا شعباً يعيش فيه جنباً الى جنب قسم من السكان يدينون بالاسلام وتغلب عليهم المدنية العربية وقسم آخر من المسيحيين الذين تغلب عليهم المدنية اللاتينية المحدثة . وقد نتج عن هذا الواقع تسعة قرون من التركيب والانصهار والتبادل المستمر بين مختلف العناصر في مجال الحياة اليومية ، بدت آثارها في النماذج البشرية الجديدة ، وفي المنظمات والتعابير العاطفية والموسيقى والألبسة والمجوهرات والأبنية والفنون التزيينية والأساليب الزراعية الخ ..

على الحدود

الليل والهمسات والصمت المبيد
على الحدود
والطفل يصرخ بانفعال
« اماه .. اين ديارنا ؟؟ »
مستفهماً
« اماه .. اين ديارنا
اين التي حدثت عن سهراتها
والورد
و « البرقوق » في هضباتها
هل هذه اماه .. هذي ارضنا .. ؟ ! »
والوحشة السوداء .. والام الحزينة في اكتئاب
تبكي وتجهل ما المصير
فتخفف الخوف المرير

في آهة مكبوتة
« اسكت حبيبي .. لا تزد
لا ترجع الماضي السعيد
لا تبعث الاحلام والآهات
لا تذكر الوطن الفقيد .. »
ـ اماه .. هل سنعود ؟ ! يوماً
« لا تزد ! »
والام تنصت باكتئاب
والليل .. والشهداء .. والدم والحديد ! !
والحقد .. والثار المبيد
يرددون
على الحدود
غداً نعود !!!

سمير صنبر

هذا والواقع ان العنصر الاسلامي كان يهيمن هيمنة تامة حتى عام ١٠٣١ ، ثم برزت الى الوجود المشاركة الفعلية بين العنصرين الاسلامي والمسيحي واستمرت من١٠٣١ الى ١٤٩٢ وبين ١٤٩٢ و ١٦١٣ داب العنصر الاسلامي في الوسط المسيحي وسار في طريق الانحلال . ولم تخل هذه الانتقالات بين مرحلة الى اخرى من ازمات دامية . ولكن الدم المراق لم يكن نتيجة احقاد جماعية ، وان بعض الوقائع مثل اغتيال رؤساء المسيحيين العرب في قرطبة عام ٨٥٩ وخيانة العهد المكتوب لغرناطة عام ١٤٩٩ لم تكن إلا ظواهر فردية لا تعمد فيها .

ومهما يكن من امر فان هذا التيار المستمر الذي اتى الى اسبانيا بعرب الجزيرة وبالمراكشيين (وهم مزيج عربي ايبري ـ كما رأينا ـ شبيه بالمزيج الاسباني ومختلف عنه في آن واحد) ، وبالتأثيرات الجديدة الصادرة من الشرق الاوسط ، من بغداد والقاهرة واستانبول ، قد عمل عمله في اسبانيا المسيحية التي كانت فيما بعد اساساً للدولتين الاسبانية والبرتغالية .

ومما لا شك فيه ان الاسلام كان احدى المواد الاساسية في بناء اسبانيا المسيحية ، فان التطعيم جعل الاسلام والعروبة يتغلغلان في لحم اسبانيا بأجمعها ودمها ، حتى انه ليس في المستطاع القول ـ دون خطأ ـ ان مسجد قرطبة ومأذنة اشبيلية وحمراء غرناطة هي آثار خلفها في اسبانيا فاتحون غرباء ، اذ ان سليلي اولئك الذين بنوها ما زالوا يعيشون في اسبانيا ويشكلون قسماً من العوامل الاسبانية ولذا فان مجد هذه الآثار هو ملك هذه السلالات ـ اكثر من ملك ابناء الشرق الاوسط الحديث . **وهذا يعني ان العروبة حين تمثلتها اسبانيا جعلت من اسبانيا شيئاً عربياً الى حد ما ، وان اسبانيا اذ حملت التراث في احشائها جعلته اسبانياً الى حد كبير .**

(باريس) ترجمة : **صباح محي الدين**

لبنان

١ . توحيد الكتاب المدرسي

نشرت جريدة « الحياة » البيروتيــة كلمة للدكتور كمال الحاج رئيس مصلحة الثقافة بوزارة التربية اللبنانية تحدث فيها عن المناهج التعليمية وتوحيد الكتاب المدرسي في لبنان . وقد رأى ان « مناهجنا التعليمية بحاجة ماسة الى التوحيد ، وفقاً لروح لبنانية خالصة ، لان قوميات عديدة تتنازعنـــا في عقر دارنا ، دون ان نفسح المجال لانسجام يربط فيما بينهـــا ، عناصر قوميتنا الحقة ، كي نندفع بقوة نحو الغاية المثلى من كياننا الصحيح » .

والدكتور كمال الحاج على حق حين يرى الى قوميـــات مختلفة تتنازع ابناء لبنان ، ولكنه بعيد عن الصواب حين يعتقد ان توحيد مناهج التعليم سينتهي بهم الى اتفاق تام حول قومية واحدة ، محددة العناصر ، واضحة المعالم . فهل كان ظهور هذه القوميات المتعددة في لبنان نتيجة لاختلاف مناهج التعليم ؟ ألا تجد ابناء المدرسة الواحدة والمنهاج الواحد يتفرّقون شيعـــاً ومذاهب في اتجاههم القومي وفي موقفهم من لبنان ، وطناً وكياناً وقومية ؟..

ان التربية القومية في لبنان لن تتخذ طابعاً موحـداً ، او منسجماً ، بتوحيد المنهاج المدرسي ، كما يظن رئيس مصلحـــة الثقافة في وزارة التربية ، بقدر ما يتم ذلك بعدد من الدراسات العميقة ، والمناقشات العلمية تتناول الوضع القومي في لبنان في حقيقته وجذوره وفروعه في الماضي والحاضر ، ومن نتيجة هذه الدراسات التي يجب ان يدلى فيها بجميع الآراء والاتجاهات ، ينبغي ان تسود ، او تلتقي على الأقل ، الحقائق القوميـة التي يصح ان يعتنقها الواعون من ابناء هذا البلد ..

فما جدوى توحيد المناهج ، من الناحية القوميـــة ، إذا لم يكن ابناء هذا البلد متفقين على عناصر هذه القوميـــة ، وعلى طبيعة هذه القومية ؟

ان لتوحيد المناهج ، ولا ريب ، يداً في تقريب الخلاف بين الاتجاهات المختلفة .. ولكنها لن تحسم الخلاف ولن تحل المشكلة القومية التي يعانيها بلد كلبنان . ونحن لن نذهب بعيداً ، فقد قال الدكتور الحاج « إن مناهجنا التعليمية بحاجة ماسة الى التوحيد ، وفقاً لروح لبنانية خالصة » ما هي الروح اللبنانيـة الخالصة؟ هل يمكن حصر ما تعنيه هذه الروح اللبنانية في اذهان اللبنانيين ، هل اتفقوا على مفهوم واحد لها ؟ هل هي كل كامل ام هي جزء من كل ؟ هل هي مستقلة ام مشتركة ؟ وما مدى استقلالها او اشتراكها ؟

ويتناول الدكتور الحاج الكتاب المدرسي كوحدة لها تأثير واحد على الاتجاه القومي . والواقـــع ان كتب الرياضيات والعلوم لا صلة لها بالبيئة إلا الى حد .. بخلاف كتب القراءة والتربية والتاريخ والجغرافية ، التي تعتمد اعتماداً كبيراً عـلى العنصر القومي .

وينتقل الدكتور كمال الحاج الى القول ان عـــلى وزارة التربية ان تقف من الكتاب المدرسي موقفاً من ثلاثة :

١ – حرية الكتاب ٢ – تأميم الكتاب ٣ – لجنة الكتاب

وحرية الكتاب هو الموقف الذي تقفه الوزارة في الوقت الحاضر ، ونحن نوافق على ان هذا الموقف هو أسوأ الحلول ، لا لان هذه الحرية تفسخ الكيان اللبناني بعضه على بعض ، كما رأى الدكتور الحاج ، ولكن لان بعض هذه الكتب لم تبلغ مستوى صالحاً في تأليفها . ومن المؤسف ان الكتاب الجيد لا يستطيع ان يفرض نفسه في هذه الفوضى التأليفية ، ذلك ان مصلحة مدير المدرسة ومدرسها هي التي تتحكم في اختيـــار الكتاب الذي لا تحول اخطاؤه وركاكته دون هذا الاختيار. ومن هنا نشأ نوع من الاستثمار الشائن بين مديري المدارس ، إذ يكفي ان يرى مدرس انه ذو نفوذ في بضع مئـــات من التلاميذ حتى يؤلف كتاباً في مادة من المواد يفرضها على هؤلاء التلاميذ ، ولا يقر كتاباً آخر في مـــادة اخرى إلا اذا بادله صاحب هذا الكتاب فرض كتابه عـــلى مدرسة اخرى . . وهكذا تدور مبادلات في تدريس الكتب وتقريرها بـــين واضعيها دون نظر الى مدى صلاحها . .

ويرى الدكتور الحاج انه لا يجوز ان نفرض تأميم الكتاب فرضاً في الوقت الحاضر ، كما لا يجوز ترك حرية الكتاب على غاربهـــا .

ويبقى الحل الاخير ، وهو ما سماه الدكتور الحاج « لجنة

الكتاب » اي ان توحيد الكتاب يجب ان يتم عن طريق اللجان وذلك بان تقر الوزارة ثلاثة كتب او اربعة في كل مادة من مواد الدراسة ، على ان تختار كل مدرسة رسمية واحداً من هذه الكتب .

ويشترط الدكتور الحاج « ان تحمل هذه الكتب في صفحاتها ما يحترم الكيان اللبناني » . وقد بات احترام الكيان في حديث الدكتور الحاج وترداده الممل ، على نحو ما يردده كل بيان وزاري ، مثار انتباه القارىء كأنه مركب نقص او نقطة ضعف يبعث الالحاح عليه في النفس شعوراً بانه كيان غير طبيعي، وانه يحتاج إلى ضمادات خاصة حتى ينهض ويستقيم عوده . .

رفقاً بالكيان ، انه يعيش اذا كانت تنبض فيه مقومات الحياة ، ولا جدوى من صرخات الاستغاثة المزمنة ، اذا لم يكن من ابناء السلامة !. .

وايا ما كان الامر ، فان كلمة الدكتور الحاج تثير موضوعاً جديراً بالمعالجة ، واننا نرى كما رأينا في العدد الماضي حين تحدثنا عن ثقافة البكالوريا ان مشكلة المعرفة في لبنان بلغت حداً من التأزم لم يعد يصح معه ان نلتفت بالدرس الى جانب واحد ، ونهمل سائر الجوانب .. ان مشكلة الكتاب المدرسي جزء من المشكلة الكبرى ، مشكلة المدرسة في لبنان، فاذا أعيد تأسيسها على دعائم جديدة تلائم حياتنا الجديدة ، سهل حل جميع المشكلات القائمة اليوم . .

٢ . اخضاع الشهادات الخارجية لموافقة الحكومة

تعرضت الشهادات العليا التي ينالها الشرقيون من جامعات اوربة لهزة عنيفة في السنتين الاخيرتين ، كان سببها ان افراداً من حاملي هذه الشهادات لم يكونوا في مستوى شهاداتهم التي يحملون ، فهذا دكتور في الحقوق ولكنه لا يساوي في معلوماته

اشتات ادبية

● ينوي الاستاذ سعيد عقل اخراج مجموعات جديدة من شعره، ولكنه سيفاجىء قراءه هذه المرة باصدار خمس مجموعات دفعة واحدة. ويقول الاستاذ سعيد عقل انه بعث في شعره الجديد روح المرح والانشاد بعد ان خيم على الشعر العربي البكاء والنواح . ويرى ان النهضة العربية لا يمكن ان تكتمل اذا لم تدخل نفسية العرب موجات الفرح ويتركز الجمال في شعرهم وشعورهم وحياتهم اليومية .

● قرر الراسبون في امتحانات البكالوريا اللبنانية القيام بمظاهرة سلمية تجتاز بعض شوارع بيروت احتجاجاً على نتائج الامتحانات الاخيرة .

● انعقد مؤتمر الخبراء الحقوقيين المنبثق عن المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الانسانية ، في دار الاونيسكو بباريس ، وقدم كل من هؤلاء بحثه في ناحية من النواحي التي تتصل « بتوطيد التعاون الفكري العام في سبيل بث فكرة القانون الشامل » بين الشعوب .

وقد انتخب الخبراء الثمانية الذين حضروا جلسات المؤتمر الاستاذ روبيف عضو المجمع العلمي الفرنسي رئيساً والاستاذ صبحي المحمصاني، استاذ الحقوق بجامعة بيروت الاميركية ، نائباً للرئيس ، والاستاذ مكين، استاذ الفلسفة في جامعة شيكاغو، مقرراً للمؤتمر . وقد اتخذ المؤتمر قراراً بطبع الرسائل التي هيأها الاعضاء في كتاب ومتابعة الابحاث المتفرعة عنها.

● نشرت مجلة « الفيغارو ليتيرير Figaro Littéraire » الاسبوعية التي تصدر في باريس، في عددها الصادر في اول آب ، حديثاً اجراه « اندريه ألتر » مع الشاعر اللبناني بالفرنسية جورج شحاده ، تحدث فيه عن الثقافة الفرنسية في لبنان ، ثم عرض لتأثير الثقافة العربية في النتاج اللبناني ، وعرض لمجلة « الآداب » فوصفها بانها من اهم المجلات العربية بالوقت الحاضر ، وأثنى عليها لما توليه الآداب العالمية من اهتمام.

● تظهر قريباً مجموعة شعرية للاستاذ احمد ابو سعد بعنوان « قصائد دافئة » فيها من اسمها دفء وحرارة وحياة .

● يعود في نهاية هذا الصيف إلى لبنان الاستاذ رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) بعد غياب ثلاثة واربعين عاماً قضاها في البرازيل وغنى فيها آلام امته العربية وآمالها بالشعر الصادق الرفيع . وقد بدأت بعض الاوساط تستعد للاحتفاء بالشاعر القروي احتفاء يليق بمنزلته في عالمي الشعر والجهاد.

النشاط الثقافي في العالم العربي

ودرجة تفكيره طالباً في سنوات الحقوق الاولى ، وذاك دكتور في الآداب ، لم يسبق له ان كتب مقالاً او أنشأ دراسة او شارك في موضوع من موضوعات الادب التي تخصص فيها . .

ومنذ امد قريب ، دخل على احدى دوائر وزارة التربية الوطنية « دكتور » يرغب في الاشتراك في بعثة علمية على نفقة الاونسكو ، فلما طلب اليه الموظف المختص كتابة طلب بذلك ، رغب اليه « الدكتور » ان يؤجله الى غد حتى يأتيه بنص الطلب ، وبدا للموظف ان يلح في كتابة الطلب ، لما رأى من غبار حول رغبة الدكتور في التأجيل . . وكم كانت دهشة الموظف كبيرة حين اعترف له الدكتور بانه لا يجيد كتابة « الطلب » باللغة الاجنبية المطلوبة . . وهي اللغة نفسها التي نال بها شهادة الدكتوراه . .

وكانت هذه الحادثة ، الى جانب حوادث اخرى سابقة ، من اخفاق في التدريس ، الى جهل في البديهيات ، الى فضائح في مناسبات متعددة . . باعثة على تفكير بعض المشتغلين بشؤون الثقافة في لبنان . . حتى يوضع حد لمثل الشهادات المزورة يتستر وراءها جهلة ومنافقون . وقد اقترح احد رجال الثقافة إجراء امتحان « كولكيوم » لكل حامل دكتوراه في الآداب والحقوق يريد ان يستثمر شهادته في العمل ضمن الاراضي اللبنانية ، اسوة بالامتحان الذي تجريه وزارة الصحة للأطباء اذا ارادوا ان يمارسوا مهنة الطب في لبنان .

ويمثل هذا الامتحان ، يظهر للحكومة بوضوح من نال شهادته عن جدارة وجد واستحقاق ، ومن الذي نالها غشاً وتزويراً .

على ان وزارة التربية — كما يبدو — لا تحب ان تضيف الى مشكلاتها مشكلة جديدة .. انها لم تسلم بعد من امتحان الصغار ، وما رافقه من احتجاج وإضراب .. وامتحان الكبار القادمين من جامعات اوربا اكثر تعقيداً . .

ولكن هذا هو واجبها اذا شاءت ان تكون قيمة على الثقافة . .

« بهي »

مصر

معهد الدراسات العربية العليا

يتابع الاستاذ ساطع الحصري رئيس معهد الدراسات العربية العليا سعيه لافتتاح هذا المعهد في أقرب فرصة ممكنة .

ومعهد الدراسات العربية العليا هو المعهد الذي قررت جامعة الدول العربية انشاءه باشراف الأمانة العامة وجعلت مركزه القاهرة ، وغايته دراسة النهضة العربية المعاصرة في نواحيها التالية التي ستشكل فروع المعهد الأربعة :

١ — الأدب
٢ — التاريخ والجغرافية
٣ — الاقتصاد والاجتماع
٤ — الحقوق والقوانين

ومدة الدراسة سنتان ، ولا يقبل في المعهد إلا حملة الليسانس على ان يخرجوا منه حاملين شهادة « ماجستير » . والدخول الى

النشاط الثقافي في العالم العربي

المعهد مجاني عن طريق الدول العربية ، أو بالطلب المباشر . وتتحمل الجامعة نفقات المعهد ، وقد خصصت له بصورة اولية خمسة وعشرين الف جنيه مصري .

وتتألف هيئة المعهد العلمية من سبعة أساتذة دائمين ، ومن محاضرين يستدعون من مختلف الاقطار العربية بصورة دورية ليحاضر كل منهم بدوره .

وقد علمنا ان المعهد سيدرس الحياة الادبية من ناحية عامة ، ثم يتناول اعلام الأدب المحدثين . وسيلتقي في هذا المعهد كبار المحاضرين المعاصرين ، فيحاضر الدكتور طه حسين عن التيارات الفكرية في الادب العربي الحديث ، وسيعرّج في محاضراته على شوقي وحافظ . كما يتناول الاستاذ احمد حسن الزيات النثر العربي الحديث منذ المنفلوطي والمويلحي .

وسيكون للاستاذ ميخائيل نعيمه جولات في دراسة أدب المهجر . اما ادباء النهضة اللبنانيون (البستاني واليازجي والشدياق) فسيتحدث عنهم الاستاذ انيس الخوري المقدسي .

ومن العراق سيحاضر الدكتور ناصر الحاني عن الزهاوي ، والاستاذ مصطفى علي عن الرصافي .

وهكذا في سائر فروع المعهد ، حيث يشترك في التدريس اعلام من مختلف البلاد العربية .

وتتمنى « الآداب » ان تنجح الجامعة العربية في حقل الثقافة بعد ان اخفقت في حقول السياسة والحرب والاقتصاد !..

جوائز الدولة

وُزعت في الشهر الماضي « جوائز الدولة » التي انشئت عام ١٩٤٧ باسم فؤاد وفاروق . وكانت جوائز ذلك العام قد أجّلت ، ثم منحت مع جوائز العام التالي ١٩٤٨ للاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ احمد امين .

اما جائزة ١٩٤٩ فقد منحت للدكتور طه حسين وفي عام ١٩٥٠ أجل منح الجائزة ومنحت مع جائزة ١٩٥١ الى الاستاذين توفيق الحكيم ومحمود تيمور .

وفي سنة ١٩٥٢ منحت الجائزة مناصفة بين الاستاذين فريد ابو حديد وعزيز اباظه . واما جائزة هذا العام ١٩٥٣ فقد منحت مناصفة بين الاستاذين احمد حسن الزيات ومحمد عبد الحليم عبد الله .

والملاحظ ان هذه الجائزة السنوية ، ومقدارها الف جنيه ، إنما تمنح لكبار الادباء بقصد تتويج جهودهم الأدبية ، باستثناء الروائي الاستاذ محمد عبد الحليم عبد الله الذي قصد باجازته تشجيع الشباب .

تكريم الشاعر الحوماني

اقيمت في العاشر من الشهر الماضي بقاعة المحاضرات في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حفلة تكريم للشاعر اللبناني الاستاذ محمد علي الحوماني بمناسبة صدور ديوانه الجديد « النخيل » واعتزامه الرحيل من مصر . وقد اشترك في التكريم عدد من كبار ادباء مصر والاقطار العربية الاخرى .

« الأدب العربي في المهجر »

اصدرت الزميلة الاردنية « القلم الجديد » لصاحبها الاستاذ عيسى الناعوري عدداً خاصاً في اول الشهر الماضي عن « الأدب العربي في المهجر » يضمُّ مقالات قيمة عن ادباء المهجر وادبهم ، وأهمها : « نشأة الادب المهجري والرابطة القلمية » بقلم عيسى الناعوري — « الادب العربي في البرازيل » بقلم نظير زيتون — « خيمة عربية » بقلم يوسف غانم — « مذكرات » بقلم الياس فرحات — « بقية من ريشها » (شعر) لشكرالله الجر — « فوزي المعلوف » بقلم أخيه رياض المعلوف — قصيدتان لجورج كعدي — « الاديب المجهول » بقلم جورج ليان — « عبد المسيح حداد ، روح الرابطة القلمية » بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي — « بروغرام البرت بغدادي » (قصة) بقلم جليل عساف — « لماذا اكتب » بقلم الياس قنصل — « مع ديوان القروي » بقلم وحيد شارويه .

سوريا

ادبنا بين الانتاج والاستهلاك

كتب الاستاذ محمود الغول في العدد ١٨٨ من الزميلة « النقاد » مقالاً هاماً بعنوان « ميزاننا الادبي بين الاستهلاك والانتاج » عالج فيه جانباً خطيراً من واقعنا هو جانب « الانتاج » فقال ان انتاج العالم العربي ليس هو في حقيقته الا استهلاكاً . وقال موضحاً ذلك :

« لدينا اليوم جامعات فيها اساتذة يتصدرون لتعليم نتاج

النشاط الثقافي في العالم العربي

العلم والفكر الفرنسيين كما يعلم في جامعات الغرب نفسها ؛ وقد يكون فيها اساتذة يقومون بابحاث قد تلفت انظار الباحثين العالميين ، ولكن اساتذتنا الاجلاء لا يزيدون ان يعيدوا على طلابهم ما توصل اليه الغرب لا ما توصلوا هم اليه ، وهم في خير حالاتهم عالمون بالموجود لا مبدعون ولا مكتشفون ، حتى الباحثون منهم لا تزيد ابحاثهم ان تكون اموراً فرعية في نواح فرعية لا تبلغ من السعة او التنظيم او التكامل ان تكشف افقاً جديداً او تبني بناء ظاهراً . اذن فخير ما يرجى منهم ان يجيدوا الاستهلاك ، وانا لنظلمهم ان نطلب منهم ان ينتجوا . »

ثم تحدث الكاتب عن تأثر العالم العربي بالحضارة الغربية ، مما أدى الى ان يعاني العرب ، ولا سيا في النواحي الفكرية والاجتماعية « حالة تكاد تكون نفاقاً » . واشار الى انه كان من الصعب على العالم العربي ان يفهم بسهولة الفنون الغربية الخالصة « لأنها تقوم على فكرة فنية لم يألفها وتمتد إلى جذور لم يشارك فيها وقد لا يعرفها ، لأنها تتفاعل مع نوع من المجتمع تسوده آراء ومشاكل جديدة على العالم العربي ان لم تكن مدعاة لنفوره » . ومن هنا حصل عندنا ما يشبه ازدواج الشخصية بين استهلاك المفاهيم الفنية ، اي تذوق الادب الغربي ، وبين القدرة على نتاج ادب عربي يعتمد عليها ويحاول ان يحققها .

ويخلص الاستاذ الغول الى القول اننا فيما نكتب على منهاج الادب الغربي « لا نزال نتحسس مجتمعنا ونتلمس خطوطه العريضة وقد لا نصيبها اكثر الاحيان» ثم يدعو إلى فهم الادب الغربي على حقيقته ، اي الى متابعته في تسلسله الزمني وتفاعله الاجتماعي . وينهي الكاتب مقاله بقوله :

« وهكذا نحن لا بد لنا ان نفهم الادب الغربي على مر العصور ونمتص منه ما ابدعه وكشف عنه تصويراً لكل مايشبه حالنا في الحاضر والماضي ، ونجعل كل ذلك قدراً مكتسباً يكون نقطة انطلاق لنا . وبذلك تصح مفاهيمنا مستهلكين ومنتجين . »

من الروائع العالمية

لا تزال دار اليقظة عاكفة على ترجمة روائع الآثار ، ولاسيما الآثار الروسية وستصدر على التوالي الكتب التالية :

١ – نيتوتشكا لدستويفسكي ترجمة سامي الدروبي منشورات دار اليقظة .

٢ – الاخوان كرامازوف (في ثلاثة اجزاء) يشارك في ترجمته بضعة ادباء .

٣ – الحرب والسلم لتولستوي ترجمة جماعة من الادباء .

انتاج رابطة الكتاب السوريين

صدر في منشورات رابطة الكتاب السوريين الكتاب الثاني بعنوان « وفي الناس المسرة » وهو مجموعة قصص للاستاذ سعيد حورانيه . وقد قدم له الاستاذ حنا مينه . وكان قد صدر في هذه المنشورات نفسها التي تخرجها دار القلم في بيروت كتاب « مع الناس » وهو مجموعة قصص للاستاذ حسيب الكيالي واما الكتاب الثالث – وسيصدر عما قريب – فهو مجموعة قصص للاستاذ مواهب الكيالي بعنوان « المناديل البيض » ، ثم يليه مسرحية «المفتش العام» لغوغول وهي من ترجمة الاستاذ صلاح دهني .

وستصدر الرابطة كذلك ترجمة بقلم الاستاذ صلاح دهني نفسه لمسرحية سارتر المعروفة « البغيّ الشريفة »

اشتات ادبية

● تصدر في حلب مجلة قصصية شهرية عنوانها « كتاب القارىء » تجمع بين القصص الموضوعة والمترجمة . ويشترك في تحريرها الاساتذة خليل هنداوي ومظفر سلطان ومروان الجابري وفاتح المدرس وحسين جركس . اما رئيس تحريرها فهو الاستاذ عبد السلام الكاملي .

● قدم المعهد الموسيقي الشرقي في الشهر الماضي حفلته السنوية الكبرى في مدرج الجامعة السورية . وقد قدمت فيها معزوفات شرقية وغربية شهيرة . وبعضها من وضع عازف الفيولونسيل السوري الاستاذ تيسير عقيل ، كما قدمت فيها بعض رقصات السماح فنالت اعجاب الحضور ودلت على ما تتمتع به هذه الرقصة الشرقية من جمال وروعة .

● زار دمشق عدد من الاميركيين ممن ينتمون إلى جمعية «اصدقاء الشرق الاوسط» فتنقلوا بين الاماكن الاثرية واستمعوا الى محاضرات نظمتها لهم الجامعة السورية ، وكان بين المحاضرين الدكتور فاخر عاقل والدكتور نظيم الموصلي والدكتور جورج حداد والدكتور احمد السمان . وقد تناولوا في محاضراتهم

التعليم والاقتصاد والتربية والدستور في سوريا .

● اعلنت الزميلة « النقاد » انها ستصدر قريباً يومية ظهر كل يوم . والزميلة «النقاد» احدى الصحف القليلة التي تعنى في سوريا بالأدب والادباء ، ولهذا سيكون تحولها الى جريدة يومية ، موضوعاً للاسف بين هواة الادب .

● يصدر قريباً للدكتور بديع حقي ديوان شعر بعنوان « سِحْر » عن دار الاحد في بيروت .

العراق

« الطلائع الجديدة »

صدرت في اول الشهر الماضي مجلة ادبية اسبوعية جديدة في بغداد باسم « الفكر » لصاحبها الاستاذ محمد محمود السامرائي . وقد نشرت في عددها الاول بعض المقالات القيمة ومنها « الطلائع الجديدة » للاستاذ احمد كمال زكي يذهب فيه الى ان ادبنا بالرغم مما نحاوله فيه « سيظل أدب الفكرة المقيدة والاسلوب المتكلف » وهو يرى ان كثيرين منا لا يزالون كادباء يعيشون في ماضيهم ، يحلمون بالمجد الزائل ويبكون صرحهم الهادي ، ويستوحون ما كتبوه فيكتبونه من جديد أو يكتبون عنه .. وهؤلاء في رأي الكاتب هم الذين يجنون علينا وعلى ادبنا ، لانهم يأبون ان يعترفوا بسنة الحياة وان فيها الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة « وانهم مروا فيها اطفالاً وانتهوا الى السن التي ينبغي ان يعرفوا فيها ان الشيخوخة عجز ووهن بل موت وعفن » ومن اجل هذا تقف الآن عجلة الادب ..

ثم دعا الكاتب الى ادب يمثلنا ويرى ان اولئك الشيوخ لن يكتبوا هذا الادب ، وانما سيكتبه الشباب ، اولئك الذين يعيشون لفكرة ويخلصون لمبدأ ويجاهدون في سبيل غاية . سيكتبه اولئك الذين يؤمنون بان لهم رسالة وعليهم مسؤولية ووراءهم طائفة يعملون من اجلها »

وحذر الاستاذ احمد كمال زكي اخيراً من فهم المسؤولية الادبية على نطاق ضيق ومن زاوية واحدة فقال « ان ادبنا لن يكون بتصوير آفاتنا ، وإنما يكون بفهم روحنا وما تتوق اليه انفسنا [...] اننا نريد ان يجد كل شخص منا نفسه في الأدب.. يجد نفسه وماضيه وحاضره وصراعه وكفاحه ومجده ، يجد كل ذلك ، كما يجد دموعه وآهاته وآماله واحلامه . »

هذا ملخص لمقال الاستاذ احمد كمال زكي ؛ وفيما نحن نرحب بالزميلة البغدادية الجديدة نأمل ان تتضمن اعدادها القادمة مقالات تحمل الروح التي يدعو اليها الكاتب الكريم .

من مشاكل الادب

تناولت الزميلة «الهاتف» في عددها الاسبوعي الادبي الذي صدر في اول الشهر الماضي بعض مشاكل الادب ، فكتب صاحب المجلة الاستاذ جعفر الخليلي مقالاً افتتاحياً بعنوان «الادب للادب والادب للحياة » قال فيه ان « الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي انه ليس هناك شيء اسمه ادب دون ان يحكي الحياة ويصورها للذهن تصويراً صادقاً بجميع ما فيها من حقائق وأوهام وأخيلة »

وعلق الاستاذ فؤاد طرزي المحامي على المقال الذي نشرته الزميلة « الاديب » في عدد مايس الماضي للشاعرة نازك الملائكة بعنوان « الشعر والمجتمع » فأقر الشاعرة على رأيها في ان الدعوة الى جعل الشعر مرآة للمجتمع دعوة شاذة ، ذلك لأن تأثر الاديب بمجتمعه وحياته العامة وبيئته ليس امراً يحتاج الى ان تتبناه دعوة ويجمعه مذهب ، بل هو حدث طبيعي واقعي يتناول الانسان سواء أكان اديباً ام لم يكن .. « ولكن الفرق ان هناك من لا يؤمن إلا بالظواهر ويغفل عن الأعماق ويرى ان الفرجال وحده دون القلب والعقل يرسم طريق الحياة ويخطط نظرة الانسان إلى الكون . فالرغيف وحده هو المنهل والمنبع والمنهل والمورد وما عداه من سقط المتاع الذي يذهب جفاء ولا يمكث في الأرض ! »

ويستطرد الاستاذ طرزي الى القول : « ان هذه النظرة لا تأخذ الانسان كوحدة ولا تحسب انه يخلق بكل كيانه ، فكما تتأثر حياته بلقمته فهي تتأثر بعاطفته وفكره وروحه [...] ان الفرد لا يخلق بمعدته بل هو يخلق بكل كيانه ، وهو لا يعمل ويبدع حين يشبع ويرتاح فقط ، بل قد يقدم الروائع في عمله وتأليفه حين يكون في اخطر درجات الجوع والألم. انه يحس بالحياة بكل كيانه » .

وينهي الكاتب مقاله بقوله « فالادب والفن تعبير الانسان عن احساساته بلغة جميلة ، وهذه الاحساسات تنبع من كل

مُناقشَات

حول تبسيط قواعد اللغة العربية

بقلم الدكتور انيس فريحه

•

نشرت « الآداب » في العدد الماضي تعليقاً للاستاذ فؤاد حنا ترزي حول كتابي « تبسيط قواعد اللغة العربية ... » . واني ، اذ اشكر للادارة اهتمامها بامر اللغة العربية واساليب تدريسها، اتقدم بالشكر لكاتب المقال ، الاستاذ ترزي لملاحظاته المفيدة وتعديلاته المقترحة . اتقبل هذا بالشكر وبكثير من السرور ، وآمل ان يبعث الي المدرسون بالمزيد من هذه الملاحظات . لان الكتاب (تبسيط قواعد العربية ...) لا يعدو كونه اقداماً ، وشأنه شأن كل اقتراح : عرضة للتسفيه والتجريح والتعديل او الرفض التام. ونحن لم ندع ابتكاراً، ولم نقل ان القول الفصل عندنا ، انما ابتغينا ان نشرك الذين يمارسون تعليم العربية في الرأي ، لعلمنا انهم يشعرون ان في العربية وقواعدها وطرق تدريسها التقليدية مجالاً للاصلاح، الاصلاح الذي يقوم على علمي اللغة والتربية وقد كررنا القول مراراً ان التوصل الى الحقيقة يتم عن طريق الدرس والنقاش الحر ، ولا سيا اذا توفرت النية الحسنة وتضافرت الجهود المخلصة .

وفي نظر الاستاذ ترزي ان في تعرضي لذكر المات امثال « ما يريم » و « ما يني » دلالة على « خشية » تستولي على مشاعري وتفكيري . فهو يرى انني لم ابح بكل ما اعتقد به ولم اكن صريحاً في بعض امور تتعلق بجوهر اللغة .

الواقع انني ذكرت بعض هذا المات —وكان بودي ان لا اذكره — في الهوامش(١) خوفاً من ان يقول قائل ولماذا تركت هذا ؟ ولماذا اهملت ذاك ؟ واني جد مسرور ان ارى مدرساً يقف بجانبي فيقول : هذا ممات رحمة الله عليه . او ، هذا نادر شاذ فأهمله . وليذكر الاستاذ انني في اقتراحي اكدت هذه الناحية : تعليم الاساسي. ولكن لماذا ذكرت هذه في الهوامش فلست ادري . ربما لان « خشية » كما يقول الاستاذ ، كانت تستولي على تفكيري ، ولكن ليس دوما. فان الاستاذ يذكر انني كنت صريحا الى حد من الصراحة سبب لي شيئا من الازعاج - ولكنه ازعاج مستحب- فانني ارى ان مشاكل العربية الاساسية تنحصر في: (ا) الخط العربي الحالي من الحروف المصوتة (ب) والاعراب (ج) وتعقيد في القواعد وفي تبويبها. وقد كتبت في الحرف العربي كراسا ، وزعته على الأدباء ، موضوعه « نشأة الخط وتطوره ومشاكله » وخلصت فيه الى القول ان اقتراح عبدالعزيز فهمي — تبني الحرف اللاتيني — اقرب الى المعقول من اي اقتراح اخر قدم(٢) لمجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة. واني من الذين يرون ان الاعراب في كل لغة ظاهرة بدائية ، وقد مرت اكثر لغات العالم في هذا الطور ، وكان الاتجاه دوما نحو اسقاط الاعراب . والعامية العربية تطور منطقي محتم ، وسنحاول في كتابنا المقبل ان نجلو هذه القضية ونبين بصورة علمية — بناء على علمي اللغة والصوت — كيف تنشأ اللهجات المحكية في كل لغة.

اما فيما يتعلق باعادة النظر في تبويب القواعد

(١) مثلا في صفحة ٧٣ من كتاب تبسيط القواعد ذكرت في الهامش : « وفي المطولات يلحقون بها ... ما يريم وما يني » .

(١) راجع كتاب الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، القاهرة ١٩٤٤ وراجع مقالاً لنا في « مجلة الابحاث » السنة الخامسة الجزء الاول ص ١ — ٣٢ .

كيانه .. من معدته وقلبه وعقله ، منه كوحدة كبرى تجمع الكون باسره .. ففي هذا الجرم الصغير يتمثل العالم الاكبر! »

اشتات ادبية

● لا تزال مجلة «الزراعة العراقية» تصدر كل ثلاثة اشهر عدداً ضخماً يتناول اهم الموضوعات الزراعية العامة والخاصة بالعراق.

● قضى الشاعر الاستاذ عبدالوهاب البياتي قسماً من الصيف في الربوع اللبنانية . وقد رحبت به الاوساط الادبية وسجلت له محطات الاذاعة احاديث وقصائد. وستصدر له احدى دور النشر اللبنانية ديواناً شعرياً جديداً قدم له الاستاذ نهاد التكرلي.

● زار لبنان الاستاذ صالح جواد الطعمة في طريقه الى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة لاعداد الدكتوراه في الادب . وسيوافي قراء « الآداب » بمقالات ضافية عن الادب الاميركي، كما سينقل لهم بعض النتاج الاميركي الحديث .

● كتب الاستاذ علي الحلي في العدد الاول من « الفكر » كلمة ينعي فيها الزميلة الاردنية « القلم الجديد » ويقول فيما يقوله : « أهكذا تومض « القلم الجديد » سنة واحدة ملأى بالاحزان ، وتخفت أسيفه ملتاعة على غير ميعاد ، في وقت نحن بامس الحاجة الى ثورتها الانسانية وانطلاقاتها المشرفات في خضم البحران الطاغي من اليأس والتفسخ وروح الهزيمة بعد النكبة الكبرى .. »

● قدم صاحب الزميلة « الهاتف » بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين الناهي طلب امتياز مجلة شهرية قصصية باسم « ندوة القصة »

● رزئت الشاعرة المبدعة الآنسة نازك الملائكة بوالدتها الشاعرة الادبية ام نزار الملائكة وهي لا تزال في اوج شبابها . وقد كان لوفاتها تأثير عظيم في نفس الشاعرة العراقية الكبيرة التي كانت الفقيدة توجه شاعريتها . هذا وتتوفر الآنسة نازك الآن على اعداد ديوان اول من شعر والدتها الفقيدة للطبع وستجمع فيه قصائدها الكثيرة في « فلسطين » . ويجد القراء قصيدة للفقيدة بعنوان « ايتها العروبة » في هذا العدد من هذه المجلة التي كانت ام نزار رحمها الله تحبها وتتابعها ايثاراً منها لمذهب الالتزام الذي كانت من اشد انصاره تحمساً .

واساليب تدريسها فقد كنت صريحا ايضا ، ولكن سها عن بال كثير من الذين راجعوا الكتاب انـــه مخطط تقريبي ، او انـــه اقتراح لا كتاب تدريس في شكله النهائي. اريد ان اقول ان في الكتاب هفوات وفجوات ، وله سيئات كما ان له حسنات . وكان الغرض من نشره ان نشترك معا في الرأي لنصل الى احسن طريقة لتدريس العربية الفصحى ولتحبيبها الى الناشئة . اما الكلام في التيسير والأعراب والتغيير الجذري في قواعد الصرف والنحو فليس من مواضيع الكتاب . ولكن هذا لا يعني انها امور ليست بذات بال ، بل الامر على عكس هذا . هي مشاكل اساسية ولكن العرب ليسوا الآن في وضع يستطيعون معه ان يضعوا قضايا اللغة موضع الدرس العلمي المجـــرد .

الجامعة الاميركية **انيس فريحه**

« الملجأ العشرون »
و « مذبحة كيرنيكا »

بقلم نهاد التكرلي

●

بوسعنا ان نقارن قصيدة « الملجأ العشرون » بلوحة فنية « كمذبحة كيرنيكا » لبيكاسو . وسنرى من هذه المقارنة كيف تتشابـــه هاتان القطعتان الفنيتان في اساس الالتزام بالرغم من اختلاف نطاقهما .

فبيكاسو قد تأثر بالحرب الاهلية الاسبانية وتألم للفظائع التي ارتكبت فيها ، وقد اراد ان يصور لنا هذا التأثر وينقل لنا مشاعره على هيئة هذه اللوحة الفنية الخالدة . ونحن لا بد ان نحس لدى تأمل هذه الصورة برعب غامض وبقسوة وظلم وتجارب فظيعة مر بهـــا المصور واثرت في نفسه تأثيراً هائلاً. ولكن هذه الصورة لم تجتذب قلوبنا من اجل « قضية اسبانيا » فقط . لاننا هنا ازاء عمل فني . وان الانفعال الذي اوحى به قد تجسد واصبح من الغموض بحيث لم يعـــد في الامكان تعرفه وهو مفقود وغريب بالنسبة لنفسه قد تناثر في اربعة اركان المكان ولكنه حاضر مع ذلك اشد الحضور .

ومثل هذا القول ينطبق ايضـــا على قصيدة « الملجأ العشرون » التي نقتطع منها هذا المقطع :

كفراغ ايام الجنود العائدين من القتال
وكوحشة المصدور في ليل السعال
كانت اغانينا ، وكنا هائمين بلا ظلال
مترقبين الليل انباء البريد :
« الملجأ العشرون
ما زلنا بخير ، والعيال
–والقمل والموتى– يخصون الاقارب بالسلام »

ان نظرة عميقة واحدة الى هذه القصيدة والى الصور الغامضة المتناثرة في لوحة « كيرنيكا » تطلعنا على الشبه الاساسي الذي يقوم عليه هذان الاثران الخالدان . ليس من شك في ان قصيدة عبد الوهاب تعبر تعبيراً قويا عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ونحن ندرك بسهولة ان الشاعر تأثر بمشاعر وطنية معينة عندما نظم هذه القصيدة ، وان هذه المشاعر هي الاصل في ولادة هذه القصيدة . ولكن هذه المشاعر والانفعالات بعد ان تجسدت في هـــذه القصيدة اصبحت من الغموض بحيث لا يمكننا ان نحملنـــا نتألم كلما نقرأها لمشكلة فلسطين بالذات . بـــل ان هذه العبارات المعبرة والصورة الشعرية الحزينة اصبحت تساورها نفس غامضة وقد صارت من العمومية بحيث نستطيع ان نستعيرها لتصوير بؤس الانسانية باسرها ، بؤس المضطهدين والمشردين في كل مكان وزمان :

لا شيء يذكر ، لم تزل « يافا » وما زال الرفاق
تحت الجسور ، وفوق اعمدة الضياء
يتأرجحون بلا رؤوس في الهواء
ولم يزل دمنا المراق
على حوائطها القديمة واللصوص
وحقولنا الجرداء يغزوها الجراد

ان هذه اللوحة الفنية لا تعبر عن ألم المناضلين في سبيل « فلسطين » فحسب بل عن النضال ضد الظلم وفي سبيل الحرية في كل مكان وزمان. وحتى « يافا » تكتسب – بالرغم من وجودها الواقعي على الخارطة – شكل مدينة جديدة غامضة لا اسم لها ، دار فيهـــا نضال رهيب بين المعتدين والمظلومين . فبوسع شخص اجنبي مثلاً لا يعرف شيئاً عن قضية فلسطين ان يحس بروعة هذه القصيدة ويتأثر بها ، بل ويستعير بعض صورهـــا لنضاله وقضيته ، وهذا هو الشبه الخفي الموجود بين قصيدة (الملجأ العشرون) و (مذبحة كيرنيكا) وهذا هو الاساس الذي يشترك فيه عملان فنيان بالرغم من اختلاف نطاقهما وبالرغم من ان احدهما قصيدة شعرية والآخر لوحة تصويرية ، وعلى هـــذا الاساس وحده يجب ان يقوم الالتزام في الشعر وفي الفنـــون كلها ؛ وإلا هبط الأثر الفني الى حضيض الدعاية والابتذال .

حول الفرد والمجتمع

بقلم جعفر آل ياسين

اطلعت في العدد الثامن (اغسطس) ١٩٥٣ من الآداب الزاهرة ، في حقل النشاط الثقافي ، على التلخيص الذي قدمـــه الاستاذ « م ، ب » للجدل الذي اثاره الاستاذ حسين مروة حول علم النفس الحديث ، حيث انتهى [الاستاذ مروة] الى استقطاب في النظرة يدعو الى بعض التحفظ العلمي في المشكلة القائمة اليوم . . .

فعلم النفس كما يتفهمه المهتمون به ينهض اول ما ينهض على دراسة الفرد وسلوكه وما يخرج على السلوك هذا Abnormal بحيث ترتبـــط عناصر البحث في الفرد دون سواه – مـــا دامت النفس البشرية مرآة تنعكس عليها نوازع البيئة وتقاليدها – فتظهرها – في ذاتها – على صور متباينة قد لا تتفق في شيء قدر ما هي تختلف فيه .

فاذا استقصينا العلاج كان لا بد لنا من ان نستلهم البيئة واثرها في الفرد لنلمس مدى الفرق الذي تخلقه النفس في نوازعها حين « تتبأور » لتستوحي ما اعوزها من امور الحياة . فقـــد ينتهي بهـــا المطاف الى عبقرية خالدة ، او الى (زنزانة) مظلمة مقيدة .

انا اؤيد القائلين بضرورة النظرة الشاملة في علاج الفرد من الناحية الاجتماعية ولكنني اخشى ان اقول ان هذه الدعوة دون « تحديدها » قد تؤدي الى خلط لا نريده في بحث علمي دقيق .

فعلم النفس – من حيث هو علم – لا يخرج عما قررناه آنفاً ، وهو ما لا يرتضيه الأستاذ مروة بالطبع . . . اما الناحية الاخرى التي تنادى لها فهي غير متمشية مع « المنهجية » في علم النفس ، بل الاحرى ان ندعوها بعلم النفس الاجتماعي Social-Psychology وهو العلم الذي يدرس سلوك الفرد كعضو في جماعة ويحاول – عـــلى اضواء البيئة الاجتماعية – تبيان تأثير الفرد عليها وبالعكس . . . متخذاً من الحضارة وطابعها المتميز اساساً لدراسة الفرد وتطـــوره ، حيث اكدت ابحاث الطب الجسمي النفسي Psychosomastic ما للعوامل الاجتماعيـــة من الاثر الفعـــال في الامراض النفسية . .

يضاف الى هـــذا ما تتميز به الجماعـــة من ديناميكية Group - Dynamic تربطها بالجماعات الاخرى في انظمتها وقوانينها ، فتجعل للحيـــاة قيمتها الوضعية المنظورة . . .

وخلافاً لذلك اؤيد الفكرة القائمة عـــلى « التحديد » و « التخصيص » في علم النفس العام .



البقية من الصفحة ٨

وهكذا فان المواقف والغايات والمشاعر الفردية الأصيلة تنطوي على قيم عامة تهم كل انسان . وهنـــا تتحدد « النزعة الانسانية » بوضوح وتبرز مهمة الأديب الذي يريد ان يأخذ بهذه النزعة فيما يكتب. فالنزعة الانسانية – وفق هذه الفكرة – ليست سوى المذهب او الاتجـاه الفكري الذي يتخذ من الانسان ومصيره ومواقفه الاساسية في الكون والمشاكل التي تشغله ، غاية له. والكاتب الانساني النزعة هو الكاتب الذي يسبغ على تعبيره الذاتي ويمنح غاياته ، ومشاكله الخاصة – وحـتى مشاكله الوطنية – معنى انسانيا عاماً بحيث تصبح هذه المشاعر والمشاكل مفهومـــة يمكن ان يتبناها ويعطف عليها ويسعى اليها كل انسان . فشخصيات « دستويفسكي » مثلاً متميزة بطابع انساني لأن المشاعر والمشاكل النفسية والميتافيزيقية الـتي تؤرق هذه الشخصيات مشاعر ومشاكل عامة يمكن ان يتساءل عنها ويشعر بها كل انسان . فهو لم يكتف بوصف مخلوقات « روسية » في عهد معين بل كان يرينا دائماً خلال هـــذه الشخصيات « الانسان » الذي يتساءل عن نفسه ويفكر في مصيره. وهذا في نظري سر خلوده . وكذلك فان كتاباً مثل « غلام اسود » للكاتب الزنجي الامريكي (ريتشارد رايت) يتسم بنزعة انسانية عميقة لأنـــه لا يكتفي بالتعبير عن نفسية طفل زنجي وحياته ونضاله ضد الاضطهاد الذي يضغط على نفسه الفتية ، ولا يكتفي بتصوير مشكلة الزنوج ونضالهم ضد البيض من اجل الحرية فحسب ، بل هو يشف عن نضال مرير للحرية ضد العبودية بصورة عامة. ومسرحية مثل « الزمان وعائلة كونواي » للقصصي الانكليزي (ج ب. بريستلي) لاتبين جزع البطلة ضد الزمان الذي يوشك ان يحطم عائلتهـــا السعيدة الهادئة فقط ، بل هي تعبير عن جزع الانسان ضد الزمان بصورة عامة وان القارىء ما يكاد يقرأ هذه المسرحية حتى يشعر بهذه الغصة المريرة التي تجعله يتحسر على تلك العوالم البريئة السعيدة التي مر بها في طفولته وفي صدر شبابه ثم ما لبث ان انقض عليها الزمان وجرفها الى هاوية العدم . فهنا ايضاً حالة مخصوصة ما نكادنتبينها حتى تثير امامنا مشكلة اساسية عامة تتعلق بوجود الانسان وبالزمان باعتباره اساساً للتناهي الانساني . وكذلك فان كتاباً مثل « الطاعون » للكاتب الفرنسي المعاصر البير كامو لا يصف لنا حالة مدينـــة « وهران » بعد ان فتك الطاعون باهلها ونضال ابطالها للتغلب عليه فقط ، ولا يرمز الى حالة فرنسا تحت الاحتلال النازي ونضال افراد المقاومة ضد الغزاة فحسب ، بل هو يصف لنا الحالة الانسانية بأسرها . انه تعبير عن نضال الانسان ضد عبث الكون وجهاده لتأكيد المعاني الانسانية الخالدة التي تمنح حياة الانسان قيمة ومعنى . وهكذا فالأديب الانساني النزعة يحاول دائما ان يسبغ على مشاكله ومواقفه الخاصة قيمة انسانية عميقة بحيث يجعل كتاباته تهم البشرية كلها

والآن نتساءل ما هو نصيب الادب العربي الحديث من هـــذه النزعة الانسانية ؟ من الواضـح ان الادب العربي الحديث ضعيف بهذه النزعة . والسبب في ذلك كما اعتقد راجع الى عوامل تاريخية واخرى شخصية . اما العوامل الاولى فهي عوامل خارجية موضوعية تتلخص في ان الادب العربي القديم بصورة عامة مفتقر الى النزعة الفردية ولذلك لم يتسم بالشخصية وبالخلق والابتكار مثل باقي الآداب العالمية . فضلاً عن وجود نزعة بلاغية تسيطر على هذا الادب وتجعله يوجه جل اهتمامه الى فن صياغة الجمل وقوة تركيبها والى الاساليب البلاغية بصورة عامة اي انه لم يكن يعتبر الكلمات ادوات ووسائل لنقل المعاني بل كان يعتني بها بحد ذاتها . وقد كان لهذا التراث القديم ولاشك تأثير كبير على الادب العربي الحديث بحيث لم يستطـــع كثير من الادباء المحدثين التخلص من سيطرته . وان نظرة واحدة الى ما كان يكتبه ادباء الجيل الماضي ترينا تأثير هذا التراث على ما كانوا يكتبون . وافتقار الادب القديم الى النزعة الفردية جعله عاجزاً عن التعبير عن النزعة الانسانية لان هذه الاخيرة كما قلنا تنبثق عن تلك . اما العوامل الثانية فهي عوامل ذاتية تعود الى فقر اغلبية الادباء المعنوي وقلة ثقافتهم وضعف شعورهم بفرديتهم ومن ثم بالمشاكل الانسانية الرئيسية مما جعلهم عاجزين عن مقاومة تيار الادب القديم وعدم نجاحهم في ابداع صور حية جديدة من حياتهم ومشاكلهم الخاصـــة . فهنالك بعض الكتاب نجحوا في فترة من حياتهم في ابداع آثار انسانية كانت تبشر بمستقبل باهر – ككتاب « الايام » لطـــه حسين – الا ان انحرافهم عن استقلال النواحي الأصيلة التي نجحوا في التعبير عنها جعل هذا الاثر الحي الذي ابدعوه حدثاً فريداً لم يتكرر في حياتهم . والشيء الذي نود ان نوضحه هو ان النزعة الانسانية ليس معناها بحث المشاكل الفلسفية المجردة بل هي تعبير قوي عن القيم والمعاني الانسانية من خلال المواقف الفردية. فكاتب مسرحي مثل « توفيق الحكيم » حاول ان يحذو حذو الاوربيين في اقتباس مواضيع مسرحياتـــه وشخصياتها من الاساطير القديمة فكتب « شهرزاد » و « اهل الكهف » و« الملك اوديب » وغيرها . ولكنه لم يستطع ان يقدم لنا مسرحيات انسانية عالمية لان المشاكل التي بحثها من هذه المسرحيات حول طبيعة المعرفة والشهوة والزمان ... الخ . بقيت مشاكل فلسفية مجردة لا تمت الى حياتنا ومشاعرنا بصلة، ومن ثم فقد بقيت هذه المسرحيات مصطنعة لاتنبض شخصياتها بالحيـــاة . بينما يكفي ان نقرأ مسرحية « كالذباب » لسارتر او « انتيجون » لأنـــوي او « العادلين » لكامو لكي نشعر بأنها تمس كياننا كله بالرغم من بعد اورست وانتيجون وكاليغ عنا وقرب شهرزاد واهل الكهف الى ذاكرتنا . وهنالك بعض الكتاب ممن لم يستطيعوا ان يقدموا لنا ادباً انسانياً رغم محاولاتهم المتكررة بسبب عدم اتقانهم لاصول الفن الذي يؤلفون وعـــدم الارتفاع بالمشاكل الرئيسية التي تهم الانسان والمجتمع الى مستوى المشاكل الانسانية الخالدة. فكاتب اجتماعي معاصر مثل «ذنون ايوب» كتب قصصاً انتقادية شعبية كثيرة – لعله حقق بواسطتها الهدف الاجتماعي او السياسي الذي يسعى اليه – ولكننا لا نستطيع ان نقول عنه بأنه انتج قصصاً انسانية لعدم استكمال هذه القصص لعناصر الفن الذي ألفت فيه ولعدم ارتفاع موضوعاتها وشخصياتها الى المستوى الانساني الذي نتحدث عنه .

هذا ما يمكن ان نقوله عن اسبـــاب ضعف النزعة الانسانية في الادب العربي الحديث . امـــا طريقة علاج هذا الضعف فلن تكون بالطبع الا بالقضاء على اسباب هذا الضعف نفسها . وذلك لن يكون الا بتيقظ الادباء على اصول فنهم الرئيسية وتفتـــح انفسهم وعقولهم للمشاكل الاصيلة التي تهم الانسانية ، ولا شك ان استكمـــال الاديب العربي لأداته الفنية وشعوره بنفسه ومجتمعه وبالمشاكل التي تهم الانسانية وقدرته على تصوير هذه المشاكل والمشاعر واسباغ معنى انساني عليها ، كل هذا سيرفع الادب العربي الحديث الى مصاف الآداب العالمية . ولكننا مع الاسف لا نزال بعيدين عن هذه المرحلة . ويبدو ان ادباءنا الشيوخ قد استنفدوا طاقتهم ولم يعد بوسعهم تجاوز المستوى الذي بلغوه، فهل لنا ان نأمل في ان يحقق ادباؤنا الشباب ما لم يحققه الشيوخ ؟

جواب الاستاذ ابراهيم الوائلي

الانسانية نزعة محببة الى النفوس ،ما في ذلك من شك ، لأنها حين تخرج من طور الخيال والنظريات الى عالم التطبيق يكون معناها ان لا ظلم ولا

حروب ولا خصومات ولا استئثار ولا استعمار ولا قوة ولا ضعف ولا عصبيات بل قيادة مخلصة خبيرة في التقنين والتطبيق في عالم عارف بماله وما عليه.

وهذه النزعة قد فكر بها كثير من الفلاسفة والأدباء في عالمنا القديم ومنهم بعض مفكري العرب، وادبائهم وفي طليعتهم المعري . اما في ادبنا الحديث فقد نادى بها كبار ادبائنا امثال جبران ونعيمه وسلامه موسى وطه حسين في اخريات ما كتب، ونادى بها ايضاً من الشعراء الكاظمي والرصافي والزهاوي والصافي النجفي والجواهري وابو ماضي وغيرهم ، ولكن هذه النزعة لم تستطع ان تأخذ طريقها وتستقر بين مواضيع الأدب المعروفة في مجتمعنا العربي وان تصبح ظاهرة بارزة من ظواهر الادب لاسباب لا تحتاج الى تساءل وترقيم ...

واهم هذه الاسباب :

النزعات السياسية ، والدينية ، والعنصرية ، والاقليمية ، هذه النزعات ، وبخاصة القومية والاقليمية - قد استأثرت بادبنا المعاصر وطغت عليه طغياناً كبيراً يكاد يكون عاطفياً أكثر منه واقعياً ... !

يضاف الى هذا السبب ما في البلاد العربية من حكم يهيمن عليه جماعات بعضهم بعيد عن عالم الفكر والادب وبعضهم يضيق به ذرعاً فهم يعشون لأقل ومضة تنطلق في هذا الفضاء لذلك تراهم يحاربون الادب محاربة ترمي الى قتله !!

وهناك سبب آخر يعيش في نفوس الادباء ويؤثر في سلوكهم وانتاجهم وهو خضوع كثير منهم لعواطف محلية ضيقة وانسياقهم في ركاب التأريخ المضطرب وتأثرهم بالثقافات المتباينة التي تفرضها المعاهد دون مراعاة للنتائج والآثار التي تنبثق عنها ؟ ولا استثنى من ذلك الثقافات الغربية ذات الطابع الخاص في توجيه ابناء الشرق ، وهذا السبب الثقافي - او ما شئت فسمه - قد جعل الفكر العربي الحديث مضطرباً غير مركز لأنه يستمد حركته وعمه من مصدرين احدهما شرقي قديم فيه كثير من الاسراف في العرض والتحليل والاحكام وفيه كثير من الامشاج والاخلاط ، وثانيها غربي حديث فيه كثير من الدس والريب ، ومن ثم نشأ عندنا ادب يهيمن عليه طابع الارتجال والتضارب حتى عند الاديب الواحد ، ونشأ عندنا ايضاً ادب اولى به ان يسمى ادب الميوعة والتخدير سواء اكان شعراً ام نثراً . فهناك شعراء وكتاب يهيمون وراء الخصور والارداف واحمر الشفاه و « المانكير » !! وهناك شعراء وكتاب يعيشون في دنيا الملق والنفاق ويسيرون في ركاب الساسة المحترفين وهؤلاء اشد خطراً على المجتمع الانساني من الجراثيم الفتاكة ...

ونضيف الى هذه الاسباب اسباباً اخرى في مقدمتها الفلسفات الحديثة المتضاربة كالفلسفة الجماعية والفلسفة الفردية والنزاع المستمر بينها، هذا النزاع الذي يبدو بشكله السياسي والعسكري اكثر مما يبدو بشكله المنطقي المألوف. ثم اختلاف اللغات وتباعدها وتعصب كل قوم للغتهم تعصباً كثيراً ما ادى الى نزاع كبير بين القوميات المختلفة ومفارقات يصعب معها التفاهم والانسجام .

هذه الاسباب وغيرها - مما يدخل في نطاقها - تحمل اتجاه ادبائنا الى النزعة الانسانية اتجاهاً ضعيفاً بل تحمل بعضهم يعتقد بانها فكرة خيالية لا يمكن تحقيقها وان كانت انجع دواء في تضميد جراح الانسانية المعذبة . اما السبيل الى اشاعتها في ادبنا المعاصر فانه لا بد ان يبدأ بمرحلة التفكير في الضرر الناتج من الاسباب السالفة الذكر فاذا استطاع مفكرونا ذلك فانهم يكونون قد انتقلوا الى المرحلة الثانية وهي مرحلة الانتاج والتوجيه كما تريد هذه النزعة بعد ان يطرحوا كل شيء احتقبوه من الانقاض المختلفة التي اثقلتهم كما اثقلت هذا المجتمع واثرت فيه ... ولكن هل يستطيع ادباؤنا ذلك ؟ وهل يمكن ان يفكروا بالنزعة الانسانية تفكيراً جديا ؟ وهل يستطيعون ان يقصروا ادبهم على هذا النوع وحدهم وهم يعيشون في عالم مضطرب معظمه لا يدين بهذه الفكرة ولا يشايعها ؟! اقول : هل يستطيع ادباء العرب ان يكونوا هم وحدهم حمامة السلام في هذا العالم الجاحم وبلادهم احوج ما تكون الى ادب ثائر يكافح الاستعمار الداخلي والخارجي على السواء ؟؟

اما اذا اردنا بالنزعة الانسانية الاتجاه الواقعي في الادب والتعبير عن آلام البشر عامة والبلاد العربية خاصة فان ذلك هو الأدب الصحيح الذي نستطيع ان نحققه بشكل سهولة دون ان ننظر لأي اعتبار اهوج او سياسة حمقاء .



قرأت العدد الماضي من «الآداب»

بقلم
الدكتور نقولا زياده

كان اول ما قرأت من عدد «الآداب» الماضي انباء النشاط الثقافي في الغرب وفي العالم العربي. وفي هذه الصفحات امور كثيرة يمكن، ان يقف القارىء عندها ويطيل التفكير. ولعل اهمها احتجاب «القلم الجديد»، وليست القضية هي احتجاب مجلة تربطني بصاحبها صداقة، ولكنها قضية هذا الانتاج الفكري في العالم العربي، وسبيل نقله ونشره بين الناس. ويترتب على ذلك تعيين المسؤول عن هذه الحالة. ففي الوقت الذي تنتشر فيه عشرات المجلات الاسبوعية العادية وتزدهر، نجد ان العالم العربي يدفن الواحدة بعد الاخرى من مجلاته الجدية - الاسبوعية والشهرية. ولست ادري ألقارىء يوجه اللوم ام للأديب ام للناس ام للحكومة؟ وارى ان تستفتي «الآداب» قراءها حول هذا الموضوع*، بل احسب ان الامر حري باكثر من استفتاء واحد يكتب فيه المرء بضعة سطور، ثم يقرأ مجموع ما كتبه اربعة او خمسة ثم يطوى الامر. القضية بحاجة الى ان تثار من اسسها. وقد لفت نظري، في العدد نفسه من «الآداب» المقال الماتع الذي كتبه صديق آخر هو الاستاذ جبرا ابرهيم جبرا، وعرض فيه للادب الاميركي الحديث. لفت نظري في هذه المناسبة لانه عرض الى هذه الاشياء التي تنافس الادب الجدي عندهم، واشار الى المجلات الصغيرة (Little Magazines) التي هي «محدودة الانتشار ولكنها واسعة النفوذ، واكثرها مجلات فصلية قليلة الصفحات اذا قيست بالمجلات الشعبية التي تباع بالملايين. والشطر الاكبر منها يقوم باصداره وتمويله هيئات جامعية». واذن فالادب الجدي الرفيع يحتاج الى دعامة حتى في اميركا، فلنتدبر نحن امرنا قبل ان يفلت الامر من ايدينا نهائياً.

ولن اطيل الوقوف في هذه الصفحات، رغم ما فيها مما يحتاج الوقوف، لكنني قبل ان اترك انباء النشاط اود ان ارجو اصحاب «الآداب» الكرام ان يذكروا اسماء الكتب الاجنبية بلغاتها الاصلية، فذلك يسهل علينا الوصول اليها.

* من حسن المصادفة ان قلم التحرير كان قد وجه الى عدد من اصحاب المجلات الادبية ورجال الفكر في العالم العربي استفتاء في هذا الموضوع بالذات، وذلك قبل ايام قليلة من وصول مقال الدكتور زيادة. (الآداب)

ولنرجع الآن الى العدد من اوله، فنقف مع الدكتور سهيل ادريس حول «النقد الذي نريد»، والذي يريد فيه الكاتب من الناقد الواعي ان يكون مؤرخاً أدبياً، يسهم في خلق التيارات التي يقوم عليها التطور. كما يريده ان يعيش تجربة الكاتب وتجربة القارىء في وقت واحد. ولست اشك في ان الذي يطلبه الدكتور ادريس من الناقد كثير، ولكن عندما نفكر فيه نجده حاجه ملحة بالنسبة لنا. فنحن، في هذا الدور الذي نعيش فيه، وهذا الطور الذي نجتازه، بحاجة الى من يخلق لنا تيارات توجهنا. والمراقب للنقد الادبي في عالمنا العربي، يبدو له أن امنية الدكتور ادريس بعيدة المنال، لكن ما لم نواجه الامور مواجهة حقيقية صريحة فاننا لن نتمكن من الوصول الى هذه الامنية. وفي مقال الاستاذ جبرا عن الادب الاميركي اشارة الى النقد الادبي يقول فيها «والظاهرة التي يلحظها القادم الى هذه البلاد لأول مرة هي العناية العجيبة بالنقد الادبي التي يبديها قسم كبير من الادباء... حتى كاد النقد... ان يحل محل الكتابة الابداعية عند بعضهم. وغدا النقد يسمى في الغالب النقد الابداعي». وكأني بامنية الدكتور ادريس تتحقق في اميركا، لكني آمل ان لا تقف عند هذا الحد في التحقق بالنسبة الينا.

في العدد الماضي من «الآداب» قصتان سميتا كذلك، وثالثة اعتبرها انا من نوع القصص. والاولى، «لكي يموت وحيداً»، مترجمة عن الفرنسية، وقد سرني ان اقرأ قصة تعالج النفس البشرية على هذه الدرجة من العمق وعلى هذا النوع من التحليل. والقصة انكليزية، ولكنها نقلت الى العربية عن الفرنسية، ومعنى هذا انها دارت على نفسها دورتين قبل ان عرفناها. ولست اشك في ان ذلك اكسبها بعض الدوار. وكم كنت احب لو انها نقلت عن الاصل الانكليزي رأساً. وعندي اقتراحان اود ان اقدمها الى المعنيين بهذه الامور. الاول هو ان الذي يعجب بقصة يقرأها في لغة اجنبية غير لغتها الاصيلة، ويرى انها تستحق النشر في الآداب (او في غيرها من المجلات العربية) ان يقترح ذلك على المحرر، ويطلب منه

ان يكلف من ينقلها من لغتها الاصلية الى العربية رأساً . والاقتراح الثاني هو ان يذكر اسم القصة باللغة المنقول عنها .

والقصة الثانية هي « ازمة مالية » . واحسب ان كثيرين من الناس عندما يدعون صديقاً لهم يوماً يضطرون الى الاقتصاد في نفقات غدهم . وقد صنع الكاتب من ذلك قصة ، ومع ذلك فلست مطمئناً الى ان الحوار ، الصامت والناطق ، الخفي والباطن ، ادى الى حبكة موفقة . واما « اربعة جدران وكتاب » فهي نوع من القصص الوصفي (الجرافيكي) فيه متعة ولذة .

واود ان امر بمقالين مراً خفيفاً . ذلك هما « الجمال المصنوع ليس من الادب » و « الزمن في الفكر الاسلامي » . اود ان امر بهما مراً خفيفاً لانهما عرضا لقضايا قد ارى نفسي عاجزاً عن الخوض فيها .

وفي العدد مقالان من نوع الترجمة او السيرة . اما المقال الذي عرض لهوغارت فهو حري بان يكون اطاراً تاريخياً للحوادث التي مرت بحياة الرجل او مر بها . ولذلك ارجو ان يتلو ذلك مقال آخر يبين فيه الرجل كفنان صاحب مدرسة . واما المقال الذي عرض للرصافي بين السياسة والتاريخ فقد اثار حول حياة الرصافي ودراسته مسألة هامة هي الى اي حد يجب ان يدرس الرصافي في عالم الادب او عالم السياسة . وهو مقدمة صالحة لسلسلة من الدراسات توضح فيها قيمة الرصافي السياسية والادبية . فالرجل هضم حقه كثيراً ، وآن له ان تنشر حياته على الناس نشراً صحيحاً يوضح فيها ما له وما عليه .

وثمة اربع مقالات عرضت لنواح من الادب او على الاصح ، ثلاث مقالات واستفتاء . وهي الشعر اللبناني العامي ، والادب الاميركي الحديث ، وموسيقى الفاصلة ، والشعر العربي بين التقييد والتحرير . واذا قلنا ان الاستاذ مارون عبود جوّد الوصف واحسن التعبير ، فانما نقول معاداً من قول الناس مكروراً . فقد عرف الناس الاستاذ عبود سيداً للقلم يصرفه كما يشاء اعواماً طويلة . والمقال مقدمة لدراسة وافية وعدنا بها الكاتب في آخر المقال ، ونحن بانتظار وفائه بوعده . ولكن الامر الذي نريد من المشتغلين بالشعر العامي وتاريخه وتطوره ان يبحثوه هو قضية العلاقة بين الزجل والغناء السرياني الديني .

والاستفتاء دلّ على ان القافية والوزن في الشعر العربي في ازمة ، لأن شعراءنا يجتازون ، منذ مدة ، ازمات نفسية ، ويمرون باختبارات خاصة ، وقد لا يكون باستطاعة القافية والوزن ان يسمحا لهذه الاختبارات الجديدة بان تبدو واضحة ضمن تلك الحدود . لكنهم يحاولون التعبير عن اختباراتهم باساليب تتفق والحدود حيناً ، وتثور عليها احياناً . وسيمر وقت طويل قبل ان تتجلى الامكانيات وتتبلور الاساليب والسبل .

وسأنهي هذه الملاحظات العامة باشارة الى كتاب الشهر — فلسفة الظواهر — واهنىء الاستاذ اميل الشويري على نجاحه في تلخيص الكتاب بحيث نقل فكرته العامة الى القارىء العربي . وأحب لو ان بعض المشتغلين بعلم النفس في العالم العربي يتناولون بعض قضايا هذا العلم التي عرض لها سارتر ، فيوضحونها للقراء . ففي الوقت الذي يريد بعض هؤلاء الناس فيه ان يعتبروا علم النفس علماً على شكل العلوم الطبيعية ، ويريدوا ان يوضع مع الابحاث العلمية في كليات الجامعات ، تأتي عبارات سارتر مقوضة لكل دعاواهم ، مثل قوله « بالرغم من انتحال علم النفس الصفة العلمية فانه لا يمكنه ان يقدم للانسانية سوى مجموعة من الوقائع الشاذة التي لا يربط بين غالبيتها اي رباط . ولا تأتي هذه الفوضى صدفة ، وإنما تأتي من مبادىء علم النفس الصميمة » . (وبهذه المناسبة ليسمح لي السيد الشويري بان اشير اليه باستعمال مصادفة بدل صدفة) . فهل يكافأ الاستاذ شويري على جهده بنقل الكتاب ملخصاً بان تثار هذه القضايا على صفحات « الآداب » ؟

نقولا زياده

حديث في الادب

– البقية من الصفحة ١٥ –

ما دام هذا المدح تصويراً أو فناً ؟.. قالوا انه لون من الادب قد اشاع النفاق عند الناس وهو لون انبتته ضرورة اجتماعية سابقة وخدمته الطبقية في المجتمع القديم ؛ قال الدعاة هذا وعلى لسانهم يجري القول بان المجتمعات الشعبية الحديثة لم تخل من هذا اللون من الأدب بجانب ألوان اخرى يقال انها شعبية. فلم يحرم القديم ويحلل الحديث ؟ ولنفرض ان اوسع صورة للمجتمع الشعبي هي في المجتمع الشيوعي فهل قال احد انه قد خلا من ألوان المدح او صور المدح الوصفية وهل يعيش هذا المجتمع بدون حكام او رؤساء او حتى بدون نفاق ؟ . .

ان اكثر هؤلاء الدعاة يؤخذون بالأدنى فيما ينظمون من اقوال ، مع ان هذا الحقل الواسع قد عرف من قبل وفي ازهى صوره وانضرها هذه الألوان الأدبية وصورها وفي تصويره لها نجد حلاً لمثل ذلك الاشكال .. انهم قد وهموا ان الميزان اللغوي قد اضطرب في العصر الحديث فوجد التمهيد للآداب الديموقراطية بينما وجدت الأرستقراطية او الكلاسيكية قديماً كما يقولون .. مع اننا اذا عرضنا صورة المجتمع اللغوي الأول في العصر الجاهلي فاننا نجد هذه الألوان معروضة عند طبقات الأدباء او في ألوان الفن الأدبي المختلفة وهو مجتمع لم يكن هناك من يتهم او يوجه اليه الاتهام بهذه الأرستقراطية او هذه الكلاسيكية . ولعصور بقي حال هؤلاء الشعراء الجاهليين منذ امرىء القيس الى عهد حسان بن ثابت . سيقولون انهم ارستقراطيون فناً محافظون طريقة وهم كلاسيكيون باختصار ! إذاً فأين التجديدية في عصرهم ان كانوا هم على ما تصفون ، هل ضاعت ؟ ام تختفي الآن ؟ . لقد كان فيهم المجددون مثل اولهم امرىء القيس حيث عدوا له اختراعات او تجديدات على نظام القصيدة وفي موضوعها ومع ذلك – فقد كان هذا الفن هو معرض المجتمع العربي في ذلك الوقت ، تعرض هذه اللوحات الفنية لامرىء القيس او لغيره في اعمر بيوتهم واشهرها كما نصنع اليوم في معارض الفن التي نقيمها في اسابيع او اعوام ؟ . . . فهل قال المجتمع العربي القديم اين التجديد يا امرأ القيس او يا نابغة او يا اعشى ؟ ام كانوا يجدون في هذا الأدب صورة الحياة الأدبية التي يرون او يتمثلون – تحمل مقومات الفن في نظرهم ومفهوم الأدب عندهم كما نطلب نحن اليوم من شعرائنا ان يكونوا معبرين عن حياتنا او عن عصرهم الذي يعيشون فيه ؟.

قال الدعاة لقد كان هذا الأدب كلاسيكياً ونقول حاشا ان يكون هذا الوهم صادقاً ! فاننا لم نجد فيه آية على هذه الكلاسيكية ؛ إنما الكلاسيكية صفة قد خلعها الحاضر على الماضي كما نقول عن اجدادنا رحمهم الله بعد ان ماتوا ولكن في الدعاء عليهم لفت الى حالهم أو كما نقول عن ثورة حدثت في القرن الماضي انها الثورة الماضية مع انه مفهوم انها ثورة ماضية وهكذا كان منشأ كلمة كلاسيكية وقديم من صنع المحدثين او الخلف ، وسيقول ابناؤنا في الغدعنااننا كنا من ابناء الماضي أو اننا محافظون قدماء .. وانتصار هؤلاء الدعاة على هذا ليس إلا انتصاراً للزمن وحده ، وكلمة الزمن في هذا المجال عامل لفظي لغوي ومن الاسف ان يكون هذا اللفظ « الماضي » اساساً لفهم التاريخ ولكن هكذا تصنع اللغة احياناً من الالفاظ ما يخفي علينا المعالم الواضحة ..

لقد قلت ان اللغة قد وضعت هذه المشكلة عند بعض الناس فجعلت من الماضي قديماً ومن الحاضر حديثاً . واتبع هذا بعضهم بدعاوى كثيرة عن حاضر الأدب وكيف يكون ؛ ومن الواضح ان اظهر مسألة تقوم عليها هذه المجلة هي مسألة « الالتزام في الأدب » وقد بين رئيس التحرير طريقة هذا الالتزام ، كما اجمل العوامل التي دفعت الى تبني هذه الفكرة ؛ والالتزام في رأيي مثل كثير من الاتجاهات الحديثة امر قديم عرفته الآداب أو الادباء وإن لم يكن لديهم هذا الاسم أو هذا التوسع في شرحه ، ولكن جدة اللفظ قد صنعت مذهباً على رأي المحدثين كما ان جدة الالفاظ قد صنعت اكثر من مذهب وهدمت ادباً على رأي المحدثين ايضاً ..ومن غريب الامر ان تجد المعارك على صفحات نفس هذه المجلة الجديدة في دعوتها تثور حول القديم والحديث ، ويختلف اغلب كتاب هذه المجلة في الرأي أو في التقدير ، حتى بالنسبة الى الآثار الماضية – وشغلت المجلة صفحات من كل عدد في مناقشات حول مدلول الالفاظ مرة أو حول تقدير الآثار الادبية مرة اخرى ،ويختلف ناقدان حول تقدير الشعر العربي القديم ويزول هذا الخلاف ثم ينتهيان الى رأي واحد هو ان في بعض القديم حياة – وهذا إقرار بصلاحيته حتى في مجال الدعوة الالتزامية ، ومعنى هذا ان حقل هذا الادب الحديث لم ينكر العناصر القديمة أو الاشجار التي نبتت

منذ الف عام فوجد فيها الظل الذي تريده الانسانية في بعض جوانب حياتها وكان الجديد بجانبه مكملاً لهذا الظـــل أو اشجاراً اخرى تغرس بجانب تلك الاشجار في هذا الحقل الواسع..

ومن حسن الحظ انني اعرف بعض شؤون الفلاحة، واقضى كثيراً من الاوقات بين ما يذكرني بها ولهذا اكثر من الالتفات الى الاشجار الادبية أو إلى الحقل الذي يجمع بينها ولا أجد فارقاً كبيراً بين حقل الادب والبستان الذي يخلق على الطبيعة. وفي دعوات الادباء المحدثين كثير مما يذكرني بالدعوات التي تثار لاصلاح البساتين او تطورها ، فهناك تربية نباتات وايجاد سلالات جديدة من التوليد أو التهجين وهناك عمليات انتخاب، وهناك استيراد نباتات جديدة من بلاد اخرى واقلمتها، وهناك نباتات طفيلية ثم هناك نباتات معمرة في سلالاتها لم تتغير بعد.. وكل هذه الصنوف تجد دعاة يشيدون بجمالها أو فائدتها وكذلك الحال في هذا الحقل الادبي : لم أجد احداً الا ويشيد بالدعوة التي يقوم بها وكأنها هي الدعوة التي تغير وجه التاريخ أو هي الدعوة الوحيدة الجديرة بالنظر والتأييد ، وهكذا لم نجد احداً يشيد بالنباتات الاخرى التي تعيش في نفس الحقل .. مع ان الحقل لم يرفض نباتاً واحداً وان كل نبات يجد من يستظل تحته او يتمتع به أو يدين بجماله وفائدته ! اليس هذا هو حال الادب اليوم وفي الامس وفي الغد ؟ ألم تكن هذه هي تجربة القدماء من أجدادنا في العصور الماضية ؟ ألم نجد عندهم هذه الألوان من الآداب او هذه الصنوف من النباتات ؟

إن نظرة واحدة الى يوم الاسلام وهو يعتبر عصر نهضـــة واقعية تؤيد ما نقول . ألم يوجد ادب ديني قبل القرآن الكريم ثم فيه ؟ ألم يوجد ادب شهري بالشعر الجاهلي والشعر المعـاصر في الاسلام ؟ ألم توجد خطابة في العصر الجاهلي والاسلامي ؟ ألم توجد كتابة ادبية ؟ كل هذا قد وجد ولم تخل الحياة من هـذه الالوان أو من غيرها . ومع هذا ، فلم يمت لا الشعر ولا الخطابة ولا الكتابة .. وكان الادب القرآني الديني جديداً من غـير شك ولكنه لحسن الحظ وجدت اصوله الادبية في نفس البيئة العربية فلم يعد غريباً على هؤلاء العرب ؟ وهو كذلك لم يمت ما عداه من ألوان الادب كما انه لم يكن هو اللون الوحيـــد الرائج فيما بعد .

وجربت الحياة العربية تجارب اخرى في ميدان الأدب ، وخذ مثلاً لذلك العصر العباسي : وجد فيه ادب فـني تصويري طبيعي وأدب فلسفي وأدب حمـــاسي وأدب جنسي وأدب قصصي .. الخ . ومعنى ذلك ان الحياة لم تنفر من لون من هذه الالوان بل وجد من أطهر الناس وأتقـــاهم من كان يشارك الاستمتاع باكثر من لون واحد. وهكذا نجد ان هذه الالوان الادبية انما هي الحياة الكاملة وكل نشاط يصيب لوناً من هـذه الالوان لفترة من الفترات ولكنه لم يغير من جوهر المسألة في شيء . أليس في هذا رد على ما يقال من ان الادب الذي قيل في العصور الماضية كان أدباً رسمياً؟ ألا نعرف ان اكثر الآداب الشعبية الخليعة قد قيلت في قصور الولاة والحكام ؟ ومن الذي ينكر ان مجلس الامراء كان يجمع بين الفقهاء المتزمتين والخلعاء المجان كل قد وجد باباً ينفذ اليه منه ؟. بل من ينكر ان هذا المجلس الذي كان يعقده الامير كان يحوي كل ممثل لطائفـة او طبقة من الناس ؟ سيقول الدعـــاة ان كل هـذه الالوان ارستقراطية او شعبية قـد وجهت لخدمة ذلك الوالي او ذلك الامير في ظل هذا العهد الاقطاعي ولم يحفل احـد بالشعب او الطبقات الشعبية او يتحدث عـــن مشاكلهم وآلامهم ؟ ونحن نقول : وهذا امر منكر لان احدا لا يستطيع ان يقول ان كل ألوان الادب قد وجدت في خدمـــة الولاة والامراء ولم تكن في نشأتها ارستقراطية قد نشأت لطبقة خاصـة حتى الشعر والخطابة أو الكتابة أو القصة ، وان كل ما ظهر انه قد وجه هذه الوجهة كان عند افراد معدودين وفي ظروف خاصة لا يمكن ان يقال على وصف تاريخ الادب أو وصف ادب عصر من العصور ..

انني لا أدافع عن القديم ... ولم أنشىء هذا الحديث من اجـل هذا الدفاع ولكني اتحدث الى رواد الادب الذين يعيشون معنا في هذا العصر ويشاركون في الحيـاة كما نشارك احياء لهم رأيهم وفكرتهم وتقديرهم ، ولكنني فقـــط اختلف معهم في تقدير الموازين وضبط الرأي وحكم التاريخ ، وارجو ان تكون امامنا طريق التقدم واضحة ظاهرة .

القاهرة **بهي الدين زيان**

صندوق البريد

الادب وواقع العالم العربي

أمدنا صدور (الآداب) ، بما حوت من ادب قيم وما استهدفت من غايات حيوية ، بشيء غير قليل من التفاؤل والاطمئنان الى مستقبل ادبنا العربي الذي تواطأ على قتله انصار القديم والجديد على السواء: اولئك بجمودهم وضحولتهم وانصرافهم عن مشكلات الواقع الذي يكابده الناس ومهادنتهم لقوى الاسترقاق والجهالة والظلم ، وهؤلاء باسرافهم في التحفي بالالفاظ واصرارهم على التسكع في دهاليز الاخيلة والأوهام ... بعيداً عن مصطرع القيم ومصطدم الأفكار !

ان واقعنا السياسي والاجتماعي العنيف ، هذا الواقع الذي تداس فيه القيم الانسانية بوحشية وصلف ، ويستمر فيه الفرد بمنتهى القسوة ، هذا الواقع الذي يجثم كالكابوس على قلب المجتمع العربي لم يمنع اكثر الادباء عن الاسترسال في احلامهم الناعمة الطويلة ، ولم يحمل هؤلاء الذين فتنتهم زرقة السماء على النظر إلى اقدامهم التي تتخبط في الاوحال وتتعثر بالأغلال !!

ما اكثر المجلات والكتب التي تلفظها المطابع ، هذه الايام ... وما أقل حظها من النفع واوهى صلتها بالأدب الحق ! إن القارىء العربي ليقف ، أمام هذه الأكداس من المطبوعات ، باحثاً عن نفسه وبيئته ، عن مشاكله وآلامه ، عن النقمة التي تتضور في قلبه ، والحقد الذي ينهش أعصابه ، والبؤس الذي يخنق آماله ومسراته ... ولكنه لا يكاد يجد في ما يقرأ إلا قصصاً جنسية وقحة ، وألغازاً شعرية مرقعة ، وبحوثاً أمعن كاتبوها في تجاهل واقعهم فكأنهم يعيشون في دنيا غير دنيانا !

انا ، يا سيدي! أكاد انفجر سخطاً حينما اسير في ازقة بغداد المنتنة الموحشة ، مصطدماً ، في كل لحظة ، بمأساة : بامرأة تبيع عرضها لتعيش ، او يتيم يفتش في القمامة عن طعام ، أو بائس يبصق رئتيه دماً على الارض ، او بما هو افظع وابشع من هذا كله ... ثم اتلفت حولي فلا ارى قلماً يغمس في هذه الجراح ! اين الادباء والفنانون من هذا كله ؟ ? او ليس النزول الى واقع هؤلاء الاشقياء اقرب إلى رسالة الاديب وواجب المواطن من (لمس النجوم) و (نسج الغيوم) ؟!

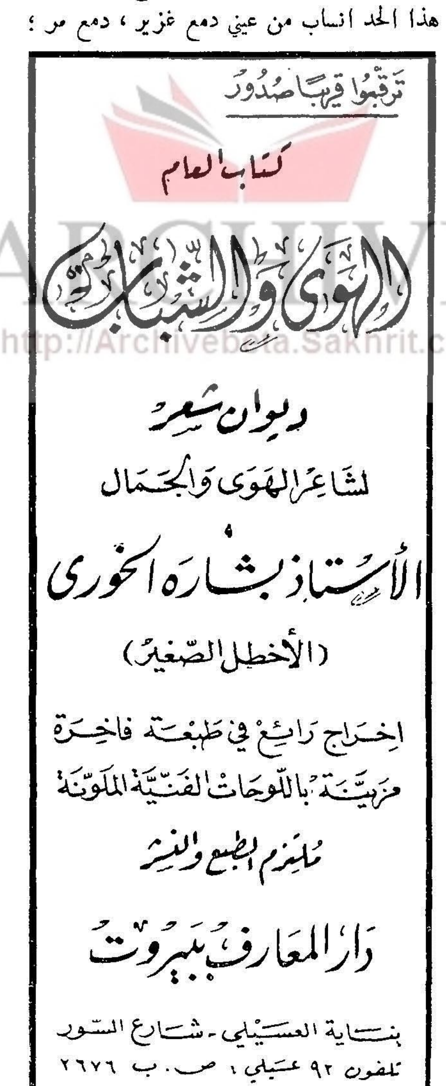
إن دعوة (الآداب) إلى ادب الالتزام « الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه » فاتحة خير كثير ، وهي في الوقت ذاته ، دلالة اكيدة على ان قضايانا الجوهرية قد بدأت تفرض نفسها على اقلام الكتاب.

بغداد **رشيد ياسين**

الى صاحب « الدمع المر »

« لا : إنك مخطيء ... إننا لم نخسر ... إن فلسطين لم تضع .... سيستأنف العرب القتال ؛ وسيتمون النصر الى آخره.... هدىء روعك ايها الصديق ، إنك تبالغ في يأسك » .

عندما وصلت من قصة « الدمع المر » الى هذا الحد انساب من عيني دمع غزير ، دمع مر ؛



أقسى وآلم وأمر من دموع « الدمع المر » التي تغلغلت في دمي ، ونفذت الى اعماق قلبي وجوارحي لتثير في نفسي آلاماً دفينة مكبوتة ؛ آلام الواقع المر ، والخيبة القاتلة ، والجراح الدامية ، وتبعث فيها الحقد والثورة والجزع .

سيـدي ! كانت قصتك « الدمع المر » هي الينبوع الذي اجترعت منه الرحيق المر ، الرحيق الذي ألهب في نار الألم للكرامة المهدورة ، واطلق الشعور الحبيس ، ونكأ الجرح العميق ... وعلى اديم هذا الينبوع تراءت امامي المهزلة الباكية ، بصفحاتها السود ، وبكل ما فيها من الخزي والمهانة والغدر..

وفي الصفحة الاولى رأيت ضوء القمر ، قمر الخامس عشر من ذلك التاريخ المشؤوم ، يوم زحف جيوش « الجامعة العربية » الى فلسطين !... ورأيت اليقظة التي تقمصت وجودنا واستبدت بعواطفنا ، فأحالتنا الى عيون ساهرة وحماسة ملتهبة « تنسج الآمال وترسم خطوط المستقبل... سنركز اقدامنا ثابتة في ارض صلبة . ثم نمشي . » ويغيب القمر ولا ننام ... فلقد كان يخيل الينا بأننا نسمع اصوات التفجير وهي تقوض صروح البغي والعدوان التي شيدها الغرب في ديارنا لسحقنا وإذلالنا... واخيراً ينبلج الصباح ، ويتعاقب الليل والنهار ، والصحائف السود تنقلب باستمرار ليسجل فيها التاريخ افجع مأساة عرفها البشر... ونستيقظ نحن ذات صباح ، فلا نجد من قصور آمالنا إلا الأطلال ، اطلالا تسيل فيها الدماء ، وتتناثر بين خرائبها والأشلاء ...

ومن عميق الجراح تنهض هذه الامة لتواصل السير في درب الحياة... فتجد الطريق ملأى بالعقبات التي خلفتها عهود الظلام والاستبداد... الرجعية ، والجمود ، والاستسلام ، والقناعة وعدم الثقة بالنفس: هذه كلها صخور تحتاج الى معاول ثائرة واعية لتحطيمها وازاحتها عن طريق النهضة والتحرر... فمن يقدم لها هذه المعاول؟... ومن يبعث فيها الثبات والاقدام لتتمكن من تمهيد طريق الثأر والانتقام ؟... ويأتيها الجواب ملبياً النداء !... يأتيها الجواب قوياً يقرع برنين الواقع الذي يعيش فيه... يأتيها هذا الجواب عن طريق الادب الذي يغني لها اناشيد الثورة والتمرد والطموح... الأدب الذي يقدم لها من معينه الصافي الشراب العذب الممزوج بدموعها ودمائها ، ملوناً بآلامها وآمالها... انه الادب الذي يتدفق من معين «الآداب».

دمشق **لمياء المطوقة**